العظة على الجبل

وشروحاتها عند الآبـاء



دار مجلة مرقس

العظة على الجبل

وشروحاتها

عند الآباء

دار مجلة مرقس

كتاب: **العظة على الجبل وشروحاتها عند الآباء.**

ترجمة وإعداد: **رهبان دير القديس أنبا مقار.**

الناشر: **دار مجلة مرقس.**

الطبعة الأولى: **١٩٩٣**

مطبعة دير القديس أنبا مقار – وادي النطرون.

ص. ب ٢٧٨٠ – القاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٥٩٢٤ / ١٩٩٣

رقم الإيداع الدولي: ٥ – ٠٤٤ – ٢٤٠ – ٩٧٧

(هذا الكتاب هو مجموعة مقالات مسلسلة سبق نشرها في مجلة مرقس من عدد أبريل ١٩٨٤ إلى عدد يونيه ١٩٨٧).

المحتويات

صفحة

التطويبات

مقدمة ٥

تأملات الآباء وشروحاتهم:

«طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات» ١٠

«طوبى للحزانى لأنهم سيتعزون» ٢٣

«طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض» ٣٠

«طوبى للجياع والعطاش إلى البر، لأنهم يُشْبَعون» ٣٦

«طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون» ٤١

«طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله» ٤٧

«طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناءَ الله يُدْعَوْن» ٥٧

«طوبى للمضطهدين من أجل البر...
طوبى لكم إذا عيَّروكم واضطهدوكم...
افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات...» ٦٢

«أنتم ملح الأرض» ٦٨

«أنتم نـور العالم» ٧٤

«ما جئت لأنقض بل لأكمِّل» ٨٣

بـرُّ الحيـاة الجـديـدة	٩١
طهارة السـيرة ونقـاء السـريرة	٩٨
«ليكن كلامكم نعم نعم لا لا»	١٠٧
عدم مقاومة الشر – سخاء العطاء	١١٧
قمـة الكمـال المسيحي	١٢٦
عمل البـرِّ في الخفـاء	١٣٣
الصـلاة الربـانيـة	
«أبانا الذي في السموات»	١٤٠
«ليتقدس اسمك»	١٤٥
«ليأتِ ملكوتك»	١٤٩
«لتكن مشيئتك كما في السماء، كذلك على الأرض»	١٥٣
«خبزنا كفافنـا أعطنا اليوم»	١٥٦
«واغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا»	١٦٢
«ولا تُدْخِلْنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير»	١٦٩
«اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرَّه، وهذه كلها تُزاد لكم»	١٧٦
«لا تدينوا لكي لا تُدانـوا»	١٨٧
«اسألوا تُعطَوْا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم»	١٩٤
«ادخلـوا من الباب الضيق»	١٩٩
البيت المبني على الصخـر	٢٠٥

التطويبــات

(مت ٥:١-١٢)

مقدمــة

تبدأ العظة على الجبل بالتطويبات؛ وكلمة «طوبى» تعني غبطة. وكلمة «مُطَوَّب» تعني مُنعمٌ عليه بالسعادة الروحية. إنها تعني ما هو أعمق بكثير من «السعادة» بمفهومها في الاستعمال الدارج. فنحن بقِصَر بصر وعدم وعي حقيقي ندعو الناس سعداء عندما تجري معهم أمور الدنيا في يُسرٍ وعلى ما يُرام، وعندما نراهم مَرِحين أو مبتهجين، محبوبين من الأقارب والأصدقاء. ولكننا لا ندعوهم أبداً «مُطوَّبين» أو «مُباركين»، لأننا نحس أن الكلمة (طوبى: غبطة) تنطوي أساساً على هبة سماوية أكثر منها دنيوية، وعلى فرحٍ أكثر عمقاً وقداسة.

الطوبى أو الغبطة جوهرية وثابتة؛ بينما النجاح الخارجي لا يمكن أن يمنحها، ولا الحظ العاثر أن يسلبها. إنها أشبه بأعماق المحيط: فالسطح متقلبٌ وبعض الأحيان يكون هادئاً ساكناً وأحياناً أخرى تتطارح أمواجه هنا وهناك

وامل الرياح الشديدة؛ في حين أنه في الأعماق بعيداً نجد دائماً الاستقرار ذي لا يتبدل، والسكون التام والهدوء الذي لا يعكر صَفْوَه شيءٌ ما.

المعنى العميق لكلمة «طوبى» أو «غبطة» كان محسوساً لدى الكُتّاب قدامى جداً. وكانت أبسط صيغة للكلمة اليونانية μακαρ مستخدمة في شعر القديم أولاً في وصف الآلهة – فهم الآلهة المغبوطون بالمقابلة مع البشر فانين – ثم في وصف الأموات الصالحين الذين كان يُعتَقدُ أنهم كانوا قطنون بعد انتقالهم في جزيرة منعزلة تسمّى «أرض الطوبانيين». أما كلمة «مُطوَّب» في صيغتها الوصفية العامة (μακαριος = مُطوَّب أو مغبوط)، نقد انحدروا بمستواها لتُستخدم بالمعنى الدنيوي في وصف الشخص الرفيع لمنزلة سواء كان غنياً أو متعلماً.

إلا أن العهد الجديد حرر الكلمة من هذا الاستعمال القاصر وحمّلها بمعنىً مقدسٍ سامٍ. فالعالم باطل وما يصيبه المرء فيه من نجاح أو من ثروة لا يجلب أبداً السعادة. فالسعادة الحقيقية (الطوبى أو الغبطة) هبة من الله؛ وما يمنحه تعالى لا يمكن أن تمحوه تقلبات هذه الحياة الزائلة أو أحداثها مهما كانت. هذه الغبطة ليست هي زينة خارجية للحياة؛ بل إنها تصبح من صميم حياة الإنسان وملءِ حريته وكيانه الداخلي؛ إنها سمة روحية سماوية يتميز بها بنو الملكوت لأنهم ينبغي أن يحملوا صورة الملك السمائي: «وكما هو السماوي هكذا السمائيون أيضاً.» (١كو ١٥:٤٨)

لقد أظهر الرب أولاً هذه الحياة السماوية هنا على الأرض؛ حيث لم تكن أبداً من قبل. إن مفهوم هذه الحياة جديد كل الجدة؛ إنه لم يخطر قط على فكر القدامى من الشعراء أو الحكماء. إنه يختلف تماماً عمَّا كان يرسمه أو يحلم به الفلاسفة من حياة فاضلة مُثلى. إن الرب يسوع هو في آنٍ واحدٍ المثال والمعلم، فحياته هي المثل الأعلى للحياة الفُضلى، وهو يدعونا أن نتعلم منه؛ وعنده فقط يمكننا أن نجد الراحة الحقيقية لنفوسنا.

الغبطة التي نتعلمها وننالها من المسيح لا تَفْنى أبداً؛ إنها بداية لنعيم السماء. ينبغي أن نكون مغبوطين هنا، لنكون مغبوطين هناك؛ أي أن يكون لنا هنا أولاً تطويبات العظة على الجبل، وبعدئذٍ يكون لنا الطوبى التي للقديسين الراقدين الذين يموتون في الرب.

• • •

«طوبى للمساكين بالروح»:

ليس بالضرورة أو دائماً أن يكون المسكين هو من تنقصه لوازم الحياة الدنياوية؛ أو مَنْ تعوزه المواهب الطبيعية التي للنفس، من رجاحة عقل أو قوة إرادة أو نُبْل خُلُق، لأننا نجد الكثيرين من أصحاب المناصب وذوي الغنى والجاه؛ بل والكثيرين أيضاً من أصحاب المواهب الطبيعية الكبرى وقادة الفكر قد تعلَّموا ونالوا هذه الطوبى من الرب يسوع. «**لأن هذا غير مستطاع عند الناس، ولكن ليس لدى الله؛ لأن كل شيء مستطاع عند الله.**» (راجع مر ١٠:٢٧)

إن مَقَرّ هذه المسكنة الإنجيلية هو الروح. والروح عندما تُميَّز عن النفس في الأسفار المقدسة إنما يُقصد بها أسمى جزء في كيان الإنسان اللامادي؛ إنه النسمة التي نفخها الله، والتي مكّنته وحده دون الخليقة الحيوانية من الحنين إلى الله، والتي بها استطاع أن يكوِّن فكرة تقريبية مصغّرة عن الله. هذه الفكرة التي عندما تنفتح على الروح القدس وتستنير بنعمة حضوره، تمكّن الإنسان من البقاء في شركة مع الله.

روح المسيحي الحقيقي يمكنها من خلال المسيح أن تأتي إلى علاقة صميمية مع الله. ولكن مثل هذا الإنسان يحس في نفس الوقت بصغره وضعفه وعدم أهليته في ذاته للوجود في حضرة الكلي القدرة والكلي القداسة. إلا أنه عندما يقوده روح الله ويقرّبه إلى المسيح فسيتعلم عندئذ نعمة الاتضاع من ذاك الذي وهو في صورة الله، «وضع» نفسه و«أطاع» حتى الموت.

مسكنة الروح هي أول ملامح الحياة الجديرة بالتطويب. تواضع النفس هو بدء القداسة؛ وبدونه لا يمكن أن يكون لنا أي تقدم حقيقي في الحياة الروحية.

المسيح كان متواضع القلب، وأولئك الذين يريدون أن يكونوا من المقرّبين إليه ولهم حظوة في ملكوت السموات عليهم أن يتشبهوا بملكهم بأن يكونوا متضعين بحق. عليهم أن يلقوا عنهم الطموح الدنيوي وأن يكونوا مستعدين أن يأخذوا المكان الأخير بعد أن يتعلموا الدرس الأول: «بتواضع حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم» (في ٢:٣). لأن هذا هو قانون ملكوت

السموات الثابت الذي لا يقبل التغيير: «مَنْ يرفع نفسه يتضع، ومَنْ يضع نفسه يرتفع.» (مت ٢٣:١٢)

«لأن لهم ملكوت السموات»:

الملكوت بنعمة الإيمان كائن فيهم من الآن «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف ٣:١٧). إنهم باتضاعهم مع نعمة الله قد أنزلوا ذاتهم عن عرش القلب ليملك المسيح وحده عليه. إنهم أخضعوا له ذواتهم باتضاع عميق وتوقير شديد. والقلب الذي يُفرَّغ من الذات يمتلئ بالمسيح.

إن ملكوت المجد المزمع أن يكون، هو لهم الآن بالرجاء في موعد الله الأكيد. لقد خُتموا بروح الموعد القدوس الذي هو عربون الميراث السماوي. ملكوت السموات هو لهم؛ لأن قانون ذلك الملكوت مكتوب على قلوبهم، مميِّزاً إياهم كمواطنين سمائيين، ورعايا أمناء لمليكهم.



تأملات الآبـــاء وشـــروحاتهم

«طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات»

- التطويبات موضوعة للجميع، وليس للتلاميذ في عصر المسيح فقط.
- التطويب لِمَنْ هم مساكين طواعية وليس إجباراً.
- المساكين هم المتواضعون.

لنتأمل بانتباه تام في ما قيل، لأنه حتى وإن كان الكلام مُوَجَّهـاً للتلاميـذ، إلا أنه كُتِبَ لأجل كل الآتين فيما بعد. ولهذا السبب، وبالرغم مـن أن الـرب كان واضعاً في اعتباره تلاميذه الأخصَّاء عندما كان يلقي عظته العامة، إلا أنه لم يحصر أقواله فيهم وحدهم؛ بل نطق بكل تطويباته بلا تحديد، فهو لم يقـل: «طوباكم أنتم يا مَنْ صرتم مساكين»، ولكن: «طوبى للمساكين».

بل ويمكنني أن أقول: حتى وإن كان يعنيهم بالذات فيما قال إلا أن العظـة ستظل مشاعاً للجميع. ومثل ذلك ما يقولـه (الـرب): «هـا أنـا معكـم كـل الأيام، إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨: ٢٠). فـالوعد هنـا لم يكـن موجَّهـاً لِمَنْ

سمعوه وحدهم؛ بل أيضاً لكل العالم من خلالهم. وعندما يطوِّب المضطهدين والمطرودين من أجل البر، فهو لم يكن يعني تلاميذه وحدهم فقط؛ بل كذلك أيضاً مَنْ نال هذا الامتياز مثلهم، فهو يُعِدُّ لهم إكليله.

■ ماذا يُعنى بـ «المساكين بالروح»؟ هم المتواضعون ومنسحقو القلب. لأنه يعني بـ «الروح» هنا النفس، ومَلَكة الاختيار، ذلك لأن هناك كثيرين متضعين ومُذَلِّين، ولكن ليس عن اختيار وطواعية؛ بل مُجبَرين تحت وطأة ظروف الحياة... إنه لا يقصد مثل هؤلاء في هذه المناسبة. بل يطوِّب أساساً هنا أولئك الذين باختيارهم يواضعون ويذلّلون أنفسهم.

■ ولكن لماذا لم يقل: «**طوبى للمتواضعين**»؛ بل «**للمساكين**»؟ لأن هذه الأخيرة أكثر اتساعاً من تلك، فهو يعني هنا: أولئك الذين يمتلئون بالخشية والرهبة لدى سماعهم وصايا الله. هؤلاء أيضاً الذين يقول عنهم الله بفم نبيه إشعياء قابلاً إياهم بحق: «إلى هذا أنظر إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامي» (إش ٦٦: ٢). لأنه في الواقع هناك أنواع من الاتضاع: فواحد متضع على قدر قامته، وآخر ينزل إلى أقصى حدود الاتضاع. هذا الاتضاع الأخير (الذي هو من كل القلب) يمتدحه هذا النبي المبارك مصوِّراً لنا، لا مجرد خضوع النفس؛ بل انكسارها كُلِّيةً، وذلك عندما يقول: «الذبيحة لله روح منسحقة، والقلب المنكسر المتواضع لا يرذله الله.» (مز ٥١: ١٧)

وها الفتية الثلاثـة يقدِّمـون انسـحاقهم هـذا كذبيحـة عظمـى لله قـائلين: لكـن في نفـس منسـحقة وروح متضعـة ليتنـا نكـون مقبولـين لديـك» (دا ٣٩ – حسب السبعينية). هذا هو ما يطوِّبه المسيح الآن.

لأنه لما كانت أكثر الشرور جسامة هي الكبرياء، تلك التي بواسطتها دخل ئك الذين أتوا بالخراب للعـالم: لأن إبليـس لمـا لم يكـن لـه الفضيلـة الأولى 'تضاع)؛ بل تبع الكبرياء، صار شريراً، كما يعلن ذلك بولس الرسول بكل لاء ووضوح قائلاً: «لئلا يتصلف فيسقط في دينونة إبليـس» (١تـي ٣:٦). كذلك أيضاً الإنسان الأول لما انتفخ بواسطة إبليس الذي أوْحـى إليـه بتلـك منيات الكاذبة جُعل عبرة وصار قابلاً للفناء (بعد أن كـان مُعـداً للخلـود)؛ رَّث هؤلاء الذين أتوا بعده (الكبرياء والطموح) زاجًّا كُلاًّ منهـم بنفسـه في يق العقوق، متوهماً ونازعاً إلى حدٍّ مـا أن يكـون نـدًّا لله: ولهـذا أقـول أن ه الرذيلة هي معقل آثامنا وأصل ومنبع كل شرٍّ.

لذا فلكي يعدَّ الله الدواء المناسب للـداء، وضـع هـذا القـانون (الاتضـاع) لاً كقاعدة قوية ومأمونة. وهذه إذا تثبتت كأساس فإن البنَّاء سـيضع عليهـا ية المواد مطمئناً. أما إذا غاب هذا الأساس، فإن الإنسـان حتـى ولـو بلغـت يرة حياته عنان السماء فإن كـل شـيء سيتلف لا محالـة وينحـدر إلى نهايـة طيرة. ولو اجتمع الصوم والصلاة والصدقة والعفة وأي أمر صالح آخر مهما ان – لو اجتمعت فيك كل هذه – ولكن بدون اتضاع فسيتلاشى حتماً بل ينتهي ويزول.

كان هذا هو الحال في مَثَل الفريسي. لأنه حتى بعد أن وصل إلى الذروة (في الممارسات التقوية)، رجع خاسراً الكل، لأنه لم يكن له دعامة الفضائل: فكما أن الكبرياء هي أساس كل الشرور، كذلك الاتضاع هو مبدأ كل مقوِّمات الروح والحياة الروحية. من أجل ذلك أيضاً نجد أن الرب يبدأ باقتلاع التعالي من جذوره، من داخل نفس سامعيه.

ورب سائل يقول: "وكيف يكون هذا وتلاميذه كانوا – على أي تقدير – متواضعين؟ لأنهم في الحقيقة لم يكن لهم شيء يتفاخرون به، لكونهم صيادين، وفقراء وليسوا ذوي حسب أو نسب، أُمِّيُّون". ولكن حتى ولو كانت هذه الأمور لا تعني تلاميذه، إلا أنها بالتأكيد كانت تعني أولئك الذين كانوا حاضرين، وأولئك أيضاً الذين سيؤمنون به بواسطة التلاميذ فيما بعد، حتى لا يحتقرهم بسبب هذا الاعتبار (كونهم فقراء ووضعاء)...

ومع هذا كان من الأصوب أيضاً أن نقول إن تعاليم الرب كانت تعني تلاميذه، فحتى ولو لم يكن حينذاك، ولكن كانوا على يقين أنه عمَّا قريب سيحتاجون إلى هذا التعزيز بعد الآيات والأعاجيب التي سيجرونها والكرامة التي سينالونها من العالم وثقتهم في الله، لأنه لا الثروة ولا القوة ولا السلطة الملوكية حازوها بالكمال حتى الملء. ولكن مع هذا، كان من الطبيعي حتى وقبل صنع الآيات أن يرتفعوا حينما كانوا يرون الجماهير الغفيرة من الأتباع والمستمعين ملتفين حول معلمهم؛ لابدَّ وأنهم كانوا يحسون بشيء من الزهو الناتج من الضعف البشري. لذا كان الرب يريد أن يقمع زهوهم في التو.

■ وكان أيضاً يقدِّم أقواله هذه لا بطريق إسداء النصيحة أو الوصايا؛ بل
ريق المدح والتطويب، جاعلاً كلمته هكذا أقل ثقلاً، وفاتحاً للجميع ميدان
بيق تعاليمه الضابطة للسلوك والعمل. فهو لم يقل: «هذا أو ذاك الشخص
لوَّب»؛ بل قال: «أولئك الذين يعملون هكذا جميعهم مطوَّبون (طوبى
م)». حتى وإن كنتَ عبداً رقيقاً، أو متسولاً، أو مسكيناً أو غريباً، أو
اهلاً، فلا يوجد شيء يعوقك من أن تكون مطوَّباً (مغبوطاً أو سعيداً) إذا ما
لتَ بهذه الفضيلة: «**المسكنة بالروح**».

القديس يوحنا ذهبي الفم
بطريرك القسطنطينية
(٣٤٧ - ٤٠٧م)

* * *

- **ربنا يسوع المسيح هو مثال المساكين بالروح.**
- **المسكنة بالروح متناسبة مع الخليقة البشرية.**
- **التخلي عن طلب الثراء، وإشراك الفقراء في ما لنا، هما التطبيق العملي للمسكنة بالروح.**

+ «المسكنة بالروح» - كما أعتقد - هي التواضع الإلهي. والرسول يخبرنا
ن اتضاع الله بقوله: «فإنكم تعرفون نعمة ربنا يسوع المسيح الذي من
جلكم افتقر وهو غني لكي تستغنوا أنتم بفقره.» (٢كو ٨: ٩)

+ كل ما يمكننا أن ندركه من الطبيعة الإلهية يفوق قدراتنا البشرية، أما الاتضاع فهو يتناسب مع طبيعتنا، ومُشاع لكل مَنْ يحيون على الأرض المخلوقين من التراب هذا الذي إليه سيعودون.

+ فإذا أنت تشبهت با لله فيما يتوافق مع طبيعتك وبما لا يتجاوز إمكانياتك – أي بالاتضاع – فأنت ستكون كمَنْ يتوشح بثوب الزي الإلهي المطوَّب.

+ لكن اقتناء الاتضاع ليس ميسوراً، كما قد يُظن – لأنه أكثر صعوبة في اقتنائه من الفضائل الأخرى. ولماذا؟ لأنه في مَثَل الزوان (مت ١٣:٢٥)، نجد أن الإنسان بعد أن زرع الزرع الجيد ونام، أتى العدو (الشيطان) وزرع بذار الزوان في غالبية الأرض. هذا الزوان هو «الكبرياء» الذي تأصَّل وترعرع في الجنس البشري البائس. فليس هناك بلية أشد خطورة على طبيعتنا مثل الكبرياء.

+ لذلك، وكما أُصيب كل البشر تقريباً بداء التشامخ، هكذا يبدأ الرب التطويبات بما هو عكس الكبرياء، أي المسكنة بالروح، ناصحاً إيانا أن نقتدي بمَنْ صار مسكيناً بحق، وعن طواعية، وهو الذي يحمل الطوبى الحقيقية في طبيعته؛ لكي نتشبه به بقدر استطاعتنا في مَسْكَنَةٍ إرادية، حتى يكون لنا نصيب في طوباويته الخاصة.

التخلي عن طلب الثراء، وإشراك الفقراء في ما لنا:

+ ولكن لا ننسى ذلك الشكل الآخر من المسكنة عندما يقول الرب: «اذهب وبعْ كل أملاكك وأعطِ للفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعالَ اتبعني» (مت ١٩:٢١). هذه المسكنة، أعتقد أنها مَعْنيَّة أيضاً ضمناً بالتطويب.

+ «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك فماذا يكون لنا»؟ هكذا يقول التلميذ للمعلم. فماذا يكون الجواب الطبيعي؟ «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات».

+ مَنْ هو «المسكين بالروح»؟ هو من يستعيض عن **رفاهية الجسد بغنى النفس.** مَنْ له روح المسْكنة فهو يطرح عن نفسه السعي وراء الثراء، وكأنه حِمْلٌ ثقيل، ليرتفع ويطير مع الرب محلِّقاً فوق سحب السموات - بالوصف الذي يصفه الرسول في (١تس ٤:١٧).

+ ثقيلٌ هو الذهب، وثقيل هو كل ما من شأنه أن يورثنا الغِنَى. ولكن خفيفة هي الفضيلة، لأنها تسمو بنا بلا توقف.

+ الثقل والخفة لا يجتمعان معاً. فمن غير الممكن لِمَنْ هو مثقَّل بالمادة أن يحس بخفة روحه. فإذا أردنا سمو الروح، فعلينا أن نتخلص من كل ما يشدنا إلى أسفل، حتى نتمكن من الوصول إلى الساكن في الأعالي.

+ صاحب المزمور يعلّمنا كيف يتأتى لنا ذلك: «فرّق وأعطى المساكين، وبرّه يدوم إلى الأبد» (مز ١١٢: ٩). فمن يُشرك المسكين في معيشته، فسوف يكون له نصيب مع مَنْ «افتقر من أجلنا...».

+ وهكذا إذ تصير مسكيناً ضمن المساكين، فستملك مع الملوك: «طوبى للمساكين بالروح **لأن لهم ملكوت السموات**».

القديس غريغوريوس النيسي

(٣٣١ - ٣٩٥م)

* * *

- **العظة على الجبل تشمل المبادئ التي تبني عليها الحياة المسيحية.**
- **وهي تمثل المبادئ الكبرى للبشرية بعد أن نضجت.**
- **المساكين بالروح هم طالبو ملكوت السموات، وليس الملكوت الأرضي.**

إذا تأمل أي إنسان بتقوى ووعي في العظة التي فاه بها ربنا يسوع المسيح على الجبل كما نقرأها في إنجيل متى، فأظن أنه سيجد فيها كل ما يتعلق بأسمى المبادئ الأخلاقية وأكمل القيم المعيارية للحياة المسيحية: وهذا لا ننادي به مجازفة أو اعتباطاً، وإنما نستلهمه من كلام الرب نفسه.

فالعظة صيغت بهذه الكيفية حتى صار من الواضح أن فيها قد تجمعت كل المُثُل العليا التي تصوغ الحياة. ولذا يقول (الرب): «كل مَنْ يسمع كلامي هذا

ويعمل به أُشبهه بإنسان حكيم بنى بيته على الصخر، فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبَّت الرياح ووقعت على ذلك البيت، فلم يسقط، لأنه كان مؤسساً على الصخر. وكل مَنْ يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها أُشبهه برجل جاهل بنى بيته على الرمل، فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبَّت الرياح وصدمت ذلك البيت، فسقط، وكان سقوطه عظيماً» (مت ٧: ٢٤-٢٧). فهو لم يقل فقط: «مَنْ يسمع كلامي»؛ بل «مَنْ يسمع كلامي **هذا**».

فهو يشير هنا بوضوح - كما أعتقد - إلى أن هذه الأقوال التي نطق بها على الجبل كفيلة بأن تقود حياة مَنْ يرغبون أن يحيوا بمقتضاها، حتى يكونوا جديرين بحق بأن يُشبَّهوا بمَنْ يبني على الصخر. وهذا أقوله لكي يتأكد لنا بوضوح أن العظة التي أمامنا هي كاملة وشاملة لكل المبادئ التي تنبني عليها الحياة المسيحية...

■ فالعظة تبدأ هكذا: «**ولما رأى الجموع صعد إلى الجبل، وعندما جلس تقدَّمْ إليه تلاميذه. ففتح فاه وعلَّمهم قائلاً**». فإذا سأل واحد: ماذا تعني كلمة «الجبل» هنا؟ أقول إنها تعني تماماً وتُفهَم على أنها مبادئ البر الكبرى، لأن المبادئ التي أُعطيت قديماً في الناموس كانت صُغرى. ولكن هو نفس الإله الواحد الذي من خلال أنبيائه القديسين وخدامه (الأمناء)، وبحسب توزيع الأوقات المرتبة والمحددة بدقة، أعطى المبادئ الصغرى لشعب كان لابد أن يكون مضبوطاً بالمخافة؛ وهو نفسه الذي من خلال ابنه أعطى المبادئ الكبرى لشعب أصبح الآن من المناسب لهم أن يحيوا أحراراً في ظل المحبة. وعندما

تُعطى المبادئ الصغرى للشعب الأصغر والكبرى للأكبر، فهي إنما تُعْطى بواسطة ذاك الذي وحده يعرف كيف يقدِّم للجنس البشري الدواء الذي يتناسب مع حالته الراهنة. ولا عجب أن تُعطى الوصايا الكبرى من أجل ملكوت السموات، والصغرى لأجل الملكوت الأرضي، بواسطة ذات الإله الواحد الذي خلق السماء والأرض.

أما عن البر **الأعظم** فقد قيل بالنبي: «برُّك مثل جبال الله» (مز ٦:٣٥ – حسب السبعينية)، وهذا يمكن أن يكون إشارة واضحة إلى أنه من الأليق جداً بالمعلم الوحيد وحده أن يعلِّم الأمور العظيمة بهذا المقدار على جبل (لينبِّه ذهن السامعين إلى سمو التعليم الجديد).

وكان يعلِّم جالساً، وهذا يتناسب مع كرامة منصب المعلم؛ وتقدَّم إليه تلاميذه ليكونوا قريبين منه بالجسد لسماع كلامه جيداً، كما اقتربوا منه بالروح أيضاً ليتمموا وصاياه. **«ففتح فاه وعلَّمهم قائلاً»**.

فماذا يقول؟ **«طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات»**.

«المساكين بالروح» يمكن أن يعني بهم «المتضعون» الذين عندهم مخافة الله، أي الذين لهم روح لا تنتفخ، ليس من طوبى تبدأ من أية بداية أخرى مهما كانت إذا كانت تريد حقاً أن تبلغ إلى قمة الحكمة. ولكن «مخافة الرب هي بدء الحكمة» (مز ١٠:١١١)؛ لأنه من جهة أخرى تسمى «الكبرياء بدء الخطية.» (سفر يشوع بن سيراخ ١٣:١٠)

إذاً فليطلب المتكبرون ملكوت الأرض، ولكن «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات».

القديس أغسطينوس
أسقف هيبو بشمال أفريقيا
(٣٥٤ - ٤٣٠م)

* * *

«طوباكم أيها المساكين، لأن لكم ملكوت الله»
(لو ٦: ٢٠)

- **صفات المسكين بالروح.**
- **فرق بين الأغنياء، وبين الذين وضعوا آمالهم في الغِنَى الأرضي.**

هذه كلمات المخلِّص عندما كان يقود تلاميذه في طريق حياة الإنجيل الجديدة بعد أن عيَّنهم في الخدمة الرسولية.

ولكن ينبغي لنا أن نعرف ما هي نوعية هؤلاء المساكين الذين يتحدث عنهم بمثل هذه الأمور الجليلة: لأنه في الإنجيل بحسب تدوين القديس متى مكتوب: «**طوبى للمساكين بالروح؛ لأن لهم ملكوت السموات.**» (مت ٥: ٣)

+ لقد رغب الرب أن يُفهِّمنا أن المسكين بالروح هو الإنسان الذي لا يضمر في نفسه إلا الأفكار المتضعة، والذي عقله لا يتعالى بتاتاً؛ ذو قلب رقيق حساس مستعد للطاعة؛ وخالٍ تماماً من رائحة الكبرياء.

مثل هذا الإنسان جدير بالإعجاب ومحبوب لدى الله؛ بل قيل عنه أيضاً بأحد الأنبياء القديسين: «إلى هذا أنظر إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامي» (إش ٦٦:٢). وداود النبي أيضاً قال: «القلب المنسحق والمتضع يا الله أنت لا تستهين به» (مز ٥١:١٧)؛ بل والرب نفسه يقول: «تعلَّموا مني لأني وديع ومتواضع القلب.» (مت ١١:٢٩)

ومع ذلك ففي فصل إنجيل لوقا الذي أمامنا يقول: «طوبى للمساكين» دون إضافة «بالروح». والإنجيليون في هذا ليسوا في تعارض - كما يبدو - بل إنما هم يوجزون الوقائع ويكملونها معاً، فما تركه الواحد يسرده الآخر في روايته حتى لا يظل شيء من الحقائق الأساسية النافعة خفياً عمَّن سيؤمنون بالمسيح.

■ لذلك يبدو هنا بوضوح أنه يعني بـ «المساكين» هؤلاء الجديرين بالتطويب، الذين لا هَمَّ لهم بالغِنَى، وهم أرفع من أن يشتهوا ما يملكه الآخرون؛ وقد زهدوا الخيرات الدنياوية؛ لهم سيرة خالية من محبة المال؛ وحتى وإن كانوا أثرياء بارزين فهم لا يتباهون بشيء ولا يقيمون لغناهم وزناً. ولذا يوجِّهنا العظيم الحكمة بولس بوضوح إلى أسمى المبادئ حيث يقول: «لتكن سيرتكم خالية من محبة المال. كونوا مكتفين بما عندكم» (عب ١٣:٥)،

وأضـاف إلى هـذا أيضـاً: «فـإن كـان لنـا قـوت وكسـوة فلنكتـفِ بهمـا.» (١تي٦:٨)

ولقد كان من الضرورة بمكان، لأولئك الذين كـان عليهـم مهمـة المنـاداة ببشارة الإنجيل للخلاص أن يكون لهم عقلٌ خالٍ من الاهتمام بـالثراء، وأن لا ينشغل تفكيرهـم إلا بالأمور الفُضلى. وعلى أي حـال فـإن موضـوع الحديـث هنا لا ينصبُّ على مَنْ لهم موارد ماليـة وافـرة؛ بـل فقـط علـى أولئـك الذيـن يضعون كل أمانيهم في اكتناز المال: ومَـنْ هـم هـؤلاء؟ هـم كـل مَـنْ يعنيهـم كلام المخلِّص في قوله: «لا تكتنزوا لكم كنوزاً على الأرض.» (مت ٦:١٩)

القديس كيرلس الإسكندري

بطريرك الإسكندرية

(٣٧٥ - ٤٤٤م)



«طوبى للحزانى لأنهم سيتعزون»

- **يطوِّب الرب الحزن - لا في حد ذاته - بل بسبب ما يفجِّره فينا من طاقة للسعي لنحو الأفضل.**
- **أمثلة ورموز من العهد القديم (خبز الفصح، حزن داود).**
- **التعزية الروحية هبة تأتي لنا نتيجة شركتنا مع الروح القدس المعزِّي.**

+ التعليم الخفي هنا الذي يعلنه الرب في تطويبه، أن الحزن يُراد به تشجيع النفس على السعي وراء الخير الحقيقي بدون استسلام للإغراءات الخادعة التي لهذه الحياة الحاضرة. مَنْ له نظرة فاحصة لحالة الإنسان الراهنة، ومدى حرمانه من الحياة الحقيقية، لا يمكنه أن يحيا بدون حزن: إما على نفسه أو على الآخرين.

+ هنا أُناس لا يعرفون مقدار النعمة التي قد حُرمنا منها بسقوط آدم ونسله من بعده؛ فيقضوا حياتهم في السعي وراء اللذة، حسية كانت هذه اللذة أو نفسية. وهم في اكتفائهم بهذه اللذة يمتنعون من أن يرجوا ما هو أفضل. من أجل هذا يطوِّب كلمة الله الحزن، لا في حد ذاته، ولكن بسبب

ما يفجِّره فينا من طاقة للسعي وراء طلب الأفضل. وفي سياق الكلام يبين لنا أن في التعزية، يتحول الحزن إلى غبطة (أي إلى فرح روحي عميق).

يقول الرب يسوع: «طوبى للحزانى»؛ ولا يتوقف عند هذا الحد؛ بل يواصل القول: «لأنهم سيتعزُّون».

+ لقد أنبأ عن هذا الأمر موسى النبي العظيم؛ بل على وجه الدقة فإن كلمة الله هو الذي سبق فأنبأ، وذلك في فروض الفصح السرية. إنه يأمر أن يؤخذ خبز غير مختمر (أي فطير) للعيد وأن يمزج الطعام بأعشاب مُرَّة (خر ١٢:٨). وذلك لكي نستخلص من هذه الإشارات الخفية أنه لا يمكننا أن نشارك في العيد السري (أي أن نعيِّد روحياً)، إلا إذا مزجنا الأعشاب المُرَّة التي لهذه الحياة الحاضرة بالحياة الروحية الصافية والتي بلا خمير (أي التي بلا خطية).

+ داود النبي والملك العظيم وهو في قمة مجده ومُلكِه، امتزجت حياته بالأعشاب المُرَّة، فتأوَّه باكياً بسبب طول بقائه على الأرض وهو تائق إلى ما هو أفضل، فيصرخ قائلاً: «الويل لي فإن غُربتي قد طالت» (مز ١١٩:٥). وفي موضع آخر ينذهل عندما يتأمل في بهاء الديار الإلهية المقدسة فيجد نفسه مأخوذاً بالاشتياق الشديد إليها: «الموضع الأخير في بيت الآب خيرٌ من المكان الأول في ديار هذه الدنيا.» (مز ٨٣:١١ – ترجمة حرفية تفسيرية من النص).

+ يوجد عَالَمان، وكلٌّ منهما يقدِّم شكلاً من الحياة، كما يوجد أيضاً نوعان من الفرح؛ أحدهما لهذا العالم الحاضر؛ والآخر للعالم الآتي، حيث

هناك يترسَّخ رجاؤنا، وطوبى لِمَنْ يضع رجاءه في الخيرات الحقيقية التي لا تزول إلى الأبد، فيقبل حزن هذه الحياة الحاضرة العابرة، عارفاً كيف يحرم نفسه من أفراح ومسرات هذه الدنيا منتظراً ومترجّياً النِّعَم الأسمى.

+ الطوبى تقوم على أساس نوال الغبطة الدائمة، أي الفرح الروحي الأبدي. وفي سبيل ذلك علينا أن نقبل المعاناة هنا. والآن ليس من الصعب أن نفهم لماذا يطوِّب الرب الذين يتألمون، لأنهم سيتعزُّون إلى الأبد. نحن نستقي التعزية من خلال شركتنا مع الباراقليط، أي المعزِّي. والتعزية في الحقيقة هي هبة الروح القدس المُعْطى لنا بنعمة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد إلى أبد الآبدين آمين.

القديس غريغوريوس النيسي

* * *

● الحزانى من أجل الخطايا: خطايانا، وخطايا الآخرين.

+ وبعد أن بدأ الرب بوضع الأساس اللازم جداً، يتابع كلامه بتطويب آخر يبدو متعارضاً مع اتجاه رأي العالم برمته، إذ بينما يظن الكل أن أولئك الذين يفرحون هم السعداء المحظوظون، بينما الذين يعيشون في غمٍّ وفقر وحزن هم التعساء الحظ، أما الرب فيغبِّط هؤلاء دون أولئك قائلاً هكذا: «طوبى للحزانى»، رغم أن كل الناس بدون ريب يدعونهم بؤساء.

ومرة أخرى فهو لم يقصد كل مَنْ يحزن بصفة عامة؛ بل المحزونون من أجل الخطايا، لأنه من المؤكد أن النوع الأول من الحزن مُحرَّم، وذلك لأنه يتعلق بأمور هذه الحياة (الزائلة) وهمومها. وذلك ما أعلنه الرسول بولس بوضوح عندما قال: «الحزن الذي بحسب مشيئة الله ينشئ توبة لخلاص بلا ندامة (بلا رجوع)، وأما حزن العالم فينشئ موتاً» (٢كو ٧: ١٠). هذه الوصية أيضاً ملائمة جداً لترويضنا على الضبط الكامل للنفس؛ لأنه إذا كان أولئك الذين يحزنون على فقدان أولادهم أو زوجاتهم أو أية قرابة أخرى تَمُتُّ إليهم، يموت فيهم الولع بالكسب المادي أو باللذة الحسية بسبب حزنهم، وإذا كان مثل هؤلاء إبان أحزانهم لا يمكن أن يطمحوا في تمجيد أو أن يُستثاروا بإهانات، أو أن يُوْسَروا بالحسد أو أن تتسلط عليهم أية شهوة أخرى ما دام حزنهم وحده هو المتملك عليهم، فبالأكثر جداً سيكون أولئك الذين يحزنون من أجل خطاياهم الخاصة فسيُظهرون ضبطاً للنفس أعظم من هؤلاء وأكثر دواماً منهم.

ولكن ما هي المكافأة لهؤلاء؟ يقول (الرب): «إنهم سيتعزون».

وأين سيتعزون؟

هنا وهناك معاً. لأنه ما دام الأمر المفروض ثقيلاً جداً وفوق الطاقة، فقد وعد الرب بأن يعطي أعظم شيء يعادله ويجعله خفيفاً. إذاً فطالما أنت ستتعزى، فاحزنْ: ولا تظن أن هذا قول غامض أو جاهل. لأنه عندما يمنح الله التعزية، فلو أتت عليك الأحزان بآلام ككتل الثلج، فستكون مرتفعاً

فوقها جميعاً. لأنه في الحقيقة لما كانت التعويضات التي يعطيها الله دائماً أعظم بما لا يُقاس من نتاج جهدنا؛ لذا رأى والحالة هذه أن يعطي الطوبى للذين يحزنون، لا بناءً على قيمة ما يعملون، ولكن بحسب ما تقتضي محبته هو من نحو الإنسان. فالذين يحزنون هنا، يحزنون على أخطاء ارتكبوها، ومثل هؤلاء كان يكفيهم أن ينعموا بالغفران ويفوزوا براحة الضمير، ولكن نظراً لأن الرب غني بالمحبة من نحو الإنسان فإنه لم يحدّ مجازاته فقط برفع العقاب عنّا وتحريرنا من الخطايا، ولكن أيضاً بإعطائنا الطوبى (الغبطة = السعادة الأبدية) ويمنحنا التعزية الفيّاضة.

وهو يدعونا أن نحزن لا من أجل ذنوبنا نحن فقط؛ بل ومن أجل تلك التي للآخرين أيضاً. على هذه السجية كانت نفوس القديسين: مثلما كان موسى وبولس وداود؛ كل هؤلاء حزنوا مراتٍ عديدة من أجل آثامٍ ليست لهم.

القديس يوحنا ذهبي الفم



«طوباكم أيها الباكون الآن، لأنكم ستضحكون»
(لو ٦: ٢١)

- **الباكون من أجل التخلُّص من كل ما يعيق انطلاقهم الروحي.**
- **الباكون من أجل نقص الأمور الضرورية للراحة والحرمان والعوز الشديد.**

+ يطوِّب الرب الباكين ويقول إنهم سيضحكون. ولكن نقول إن الباكين ليسوا هم مجرد من يذرفون الدموع، لأن هذا أمر عام بين الجميع بدون استثناء، سواء كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين، بسبب ما يصيب الطبيعة القابلة للألم؛ بل هم الذين هجروا حياة المرح الباطل والملذات الدنياوية.

+ فالأولون (وإن كانوا يبكون في بعض الأوقات) إلا إنهم يحيون (في أغلب الأوقات) في التنعم والضحك؛ أما المؤمنون فإنهم يتخلُّون عن حياة الترف والملذات الجسدية الطائشة وكل ما يتعلق بها. وهم وإن كانوا يبكون، فلكي يتخلصوا من بقية الأمور الدنياوية والمعيقة لانطلاقهم الروحي؛ فهؤلاء يعلن مخلصنا تطويبهم.

+ ولهذا السبب ولكونه أيضاً قد أوحى بالمسكنة (أي بالتخلي عن كل شيء من أجل ملكوت الله)، لذا نراه يكلل بالكرامة كل ما يصاحب الفقر بالضرورة، مثل نقص الأمور الضرورية للراحة، واتضاع الروح الناتج عن

الحرمان وشدة العوز، كما هو مكتوب: «كثيرة هي شدائد الصدِّيقين ومن جميعها ينجيهم (الرب).» (مز ٣٣:١٩ – حسب السبعينية)

القديس كيرلس الإسكندري

* * *

- **الحزن هو الأسى الناشئ من فقدان أشياء عزيزة على الإنسان.**
- **هؤلاء يعزيهم الروح القدس لينعموا بالفرح الأبدي.**

+ **الحزن هو الأسى الناشئ من فقدان أشياء عزيزة يملكها الإنسان؛** ولكن أولئك التائبين إلى الله يفقدون أشياءً قد اعتادوا عليها، وكانت عزيزة لديهم في هذا العالم: فلم يعودوا يتمتعون بما كانوا ينعمون به قبلاً (حسياً أو نفسياً)؛ وإلى أن تحلَّ فيهم محبة الأبديات فسيكابدون شيئاً من الحزن إلى حدٍّ ما. ولكنهم بعد ذلك سيتعزون بواسطة الروح القدس، الذي من أجل هذا الاعتبار لُقِّب أساساً بالباراقليط: أي المعزي، حتى إنهم في فقدانهم للسعادة الزمنية يمكنهم أن ينعموا حتى الملء بالفرح الأبدي.

القديس أغسطينوس

• • •

«طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض»

● الرب يقدِّم الجزاء المحسوس في هذه الحياة الحاضرة، جنباً إلى جنب مع الجزاء الروحي في الدهر الآتي.

(الرب) هنا يُقدِّم جزاءً محسوساً، كما يفعل بولس الرسول أيضاً عندما يقول: «أكرمْ أباك وأمك... لكي تطول أيام حياتك على الأرض» (أف ٦:٢و٣ – حسب النص المترجم)... فالرب يحثّنا ليس فقط بحافز العطايا الإلهية في الدهر الآتي، ولكن في الدهر الحاضر أيضاً، لأن الغالبية العظمى من مستمعيه تطلب عطايا الدهر الحاضر قبل عطايا الدهر الآتي.

+ والقديس بولس الرسول كثيراً ما يعلن عن المكافأة المحسوسة في نصائحه متكلماً عن الأمور الحاضرة؛ كما عندما تحدث عن البتولية، فلم يذكر شيئاً عن السماويات؛ بل يحث المؤمنين وهم في الحالة الراهنة بالظروف الحاضرة، فهو يقول: «لسبب الضيق الحاضر... فإني أُشفق عليكم... فأريد أن تكونوا بلا همٍّ.» (١كو ٧:٢٦-٣٢)

+ وهكذا يمزج الرب الأمور الروحية بالمحسوسات، فبينما يُظن أن الإنسان الوديع قد يفقد كل ما يمتلكه بسبب وداعته، يَعِدُ الرب ما هو على النقيض من هذا وكأنه يقول: «كلا، بل إن مَنْ لا يتّسم بالتهور والعجرفة، فسوف

يحوز ممتلكاته بأمان. بينما صاحب السجايا المرذولة فإنه غالباً ما يفقـد ميراثـه بل وحياته أيضاً».

+ هـذا ولأن النبي في العهـد القديم اعتـاد أن يقـول: «الودعـاء سـيرثون الأرض» (مـز ٣٦:١١ – حسب السبعينية)، لذلـك نجـد أن الـرب يَحْبِـك حديثه بالأقوال التي اعتـاد مسـتمعوه أن يسـمعوها، لئـلا يبـدو وكأنـه يتكلـم بأسلوب غريب.

ولكن قوله هذا لا يعني أنه يحصر الجزاء في حدود الأمور الزمنية؛ بل يُلحق أيضاً بهذه الوعود الزمنية، تلك الهبات الـتي مـن النـوع الآخـر، أي الروحيـة. فهو عندما يتكلم عن أي أمر روحي لا يستبعد ما هو زمني ومـا يختـص بهـذه الحياة الحاضرة، كما أنه أيضاً لا يقصر وعده على ما هـو خـاص بهـذه الحيـاة فقط. فهو، في موضع آخر، يقول: «اطلبوا أولاً ملكوت الله، وهـذه الأشـياء كلها تُزاد لكم» (مت ٦:٣٣). وأيضاً: «مَنْ ترك بيوتاً أو إخـوة سـينال مئـة ضعفٍ في هذا العالم، وفي الدهر الآتي سيرث الحياة الأبدية.» (مت ١٩:٢٩)

القديس يوحنا ذهبي الفم



- **الوداعة الإنجيلية هي طريق يصعد بالطبيعة البشرية إلى العلاء.**
- **التطويب هنا موجَّه لِمَنْ يضبطون غرائزهم، وليس لِمَنْ لا غريزة أو شهوة له.**

الوداعة الإنجيلية هي طريق صاعد:

+ كلمة الله يشير هنا إلى أن طريق الرذيلة زَلِق، وأن طبيعتنا ميَّالة نحو الشر؛ كالأجسام الثقيلة التي إذا دُفعت إلى أعلى تتحرك بصعوبة، أما إذا زُجَّ بها إلى أسفل كما من على قمة جبل فإنها تتدحرج بسرعة شديدة بسبب ثقلها. هنا تكون السقطة مريعة للغاية بما يفوق الوصف.

+ إذاً مَنْ يتجنب مثل هذا الهبوط المؤذي باتخاذه الطريق المضاد، أي الصاعد إلى أعلى، فإنه جدير بالتطويب حقاً. هذه هي الوداعة التي تضاد عنف الانفعال السريع، وهي الهدوء الثابت المُتَبصِّر.

+ وكما أن النار بطبيعتها تدفع بلهبها إلى أعلى ولا تتجه إلى أي اتجاه آخر، كذلك الفضيلة تنجذب نحو العلاء بسرعة نافذة ولا تتحرك في الاتجاه الآخر المضاد.

+ طبيعتنا الطائشة تندفع إلى أسفل بسبب ثقلها، لذا يُطوَّبُ هنا كل مَنْ يثبت غير متزعزع. وكلُّ مَنْ فينا يحس بالسكينة في نفسه فهو يشهد بصعوده في سلم الفضيلة إلى أعلى.

+ ويحسن بنا هنا أن نشرح موضوع حديثنا بأمثلة مستمدة من الحياة. فإرادة كل واحدٍ منّا ثنائية التكافؤ، فيمكنها أن تتخذ بمحض رضاها أحد اتجاهين: الاتزان (أي ضبط النفس) أو التطرف (وهو عدم الانضباط)، وكل ما يمكن أن يُقال عن فضيلة أو رذيلة ينطبق على كل القيم الأخلاقية. فالطبيعة البشرية في كل الأحوال تختار بين اتجاهين مضادين: إما الغضب أو الوداعة، الكبرياء أو التواضع، الحسد أو اللطف والتعاطف مع الآخرين أيًّا كانوا، الكراهية أو الكَرَم الذي ينمُّ عن سخاء النفس والسلام الداخلي.

+ ولما كانت الحياة البشرية تحمل في طياتها عنصراً طبيعياً حيث تتأصل الشهوات المختلفة، وكل شهوة تندفع بقوة لتقهر الإرادة، لذا لم يقل الرب: «طوبى لِمَنْ لهم حياة معصومة من الشهوات». لأنه ليس من الممكن، ما دمنا على الأرض، أن نحيا متحررين تماماً من الأحاسيس والشهوات. فالمسيح يعني بالوداعة تلك النوعية من الفضيلة التي يمكننا أن نبلغها في مسيرة حياتنا هنا على الأرض. ويؤكد على أن هذه الوداعة كافية للفوز بالطوبى. فهو لا يتطلب منا انعدام الشهوة تماماً، لأنه ليس بحاكم طاغٍ حتى يكلِّف الطبيعة البشرية ما ليس في إمكانها.

+ صاحب الطوبى إنما يُنتظر منه ضبط النفس والوداعة، لا غياب الشهوات كلية، فهذا غير مستطاع للطبيعة، أما هاتان الفضيلتان فميسورتان.

+ لو أن الطوبى تستبعد تماماً كل شهوة وكل رغبة، لصار التطويب باطلاً وبلا جدوى، وأيُّ كائن ذي لحم ودمٍ يمكنه أن يبلغ إليه؟ الرب لا يدين

أولئك الذين تتحرك فيهم الشهوة الغريزية عَرَضاً؛ بل ذاك الذي يدأب عن عمدٍ على إشباع شهواته.

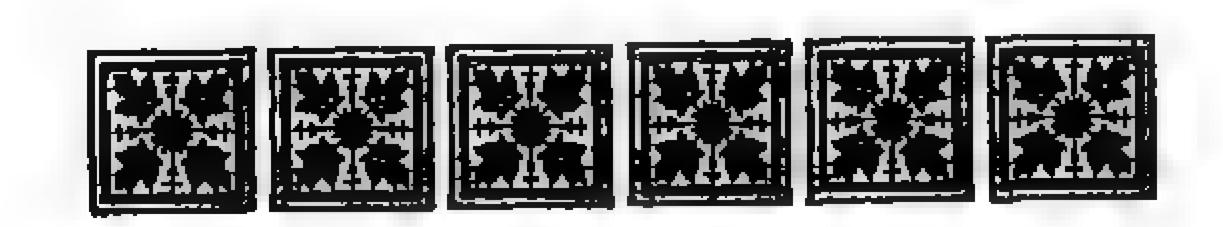
+ إنه من الطبيعي أن نرى في أنفسنا الضعيفة دوافع متعارضة. ولكن لا ينبغي أن نندفع وراء شهواتنا؛ بل علينا أن نقمعها بكل شجاعة ونردّها بتعقل – فهذا هو عمل الفضيلة.

وطوبى لِمَنْ لا ينقادون بسهولة للدوافع الطبيعية؛ بل يعرفون كيف يخضعونها بالعقل الواعي كما بلجام ضابط يتحكم في الحركات الغريزية، ويقي النفس من انحرافاتها الخطيرة.

+ الوداعة قرين التواضع. فكلاهما متلازمان: التواضع هو بمثابة الأم لوداعة القلب. فإذا أغلقتَ الباب أمام الكبرياء فالغضب لن يجد سبيلاً للدخول.

+ حينما ينتفي الغضب، تعرف الحياة الراحة والسلام، وهما ليسا شيئاً آخر سوى الوداعة التي منتهاها الغبطة الأبدية وميراث السماء، في يسوع المسيح الذي له المجد والقوة إلى دهر الدهور. آمين.

القديس غريغوريوس النيسي



• **الأرض الموعود بها هي يقينية الثبات والاستقرار لميراث دائم.**

مَنْ هم الودعاء؟

+ «طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض»:

تلك الأرض كما أظن هي التي قيل عنها في المزمور: «أنت ملجأي نصيبي في أرض الأحياء» (مز ١٤١: ٥ – حسب السبعينية). لأن «التطويب» هنا يشير إلى معنى يقينية الثبات والاستقرار لميراث دائم، حيث تستريح النفس بعد أن تكون قد جاهدت الجهاد الحسن في مقرها الخاص تماماً كما يستريح الجسد على الأرض ويقتات من طعامها، كَوْنَ الجسد مأخوذاً أصلاً من الأرض.

+ هذه هي راحة وحياة القديسين؛ فالودعاء هم الذين لا يقفون أمام مكايد العدو، ولا يقاومون الشر؛ بل يغلبون الشر بالخير (رو ١٢: ٢١). فدَعْ مَنْ هم ليسوا بودعاء يتعاركون ويتحاربون من أجل أمور أرضية زمنية؛ ولكن «طوبى للودعاء، فإنهم سيرثون الأرض»، تلك الأرض التي لن يمكن أن يُطردوا منها خارجاً.

القديس أغسطينوس

◆ ◆ ◆

«طوبى للجياع والعطاش إلى البر، لأنهم يُشْبَعون»

● البر بمعنى السخاء في العطاء.

+ «طوبى للجياع والعطاش إلى البر»: عن أي برٍّ يتكلم المخلِّص؟ هل يعني البر في مفهومه المحدد، والذي يعني الفضيلة المقابلة للبخل؟

من الواضح أن المعنى الأخير هو الذي يقصده الرب، لأنه وهو مزمع أن يتكلم عن سخاء الرحمة، أراد أيضاً أن يحدد لنا سمات الرحمة التي ينبغي أن نكون عليها. فهو لم يعلن الطوبى لِمَنْ يمارسون هذا النوع من البر، وهم على شيءٍ من حب التملُّك وسلب أموال الآخرين. تأمل في قوة ودقة الكلام عندما يتحدث عن هذا البر! إنه لم يطوِّب بمجرد مَنْ يطلبون البر؛ بل أولئك الذين «يجوعون ويعطشون» حتى يؤكد على الحرارة والغيرة اللتين ينبغي علينا أن نتَّصف بهما إذا كنا نسعى حقاً لاقتناء هذه الفضيلة.

ومن المعروف أن البخيل وهو يسعى لأن يقتني الثروة بأسرع ما يمكن، يحرم نفسه طواعية من المآكل والمشارب. والرب يريدنا أن نحوِّل هذه الرغبة المفرطة في اقتناء الثروة، إلى الرغبة في اقتناء هذه الفضيلة التي نعرف أنها على

النقيض من محبة القنية.

القديس يوحنا ذهبي الفم

* * *

● **الجوع إلى البر هو جوع إلى شخص المسيح نفسه.**

+ إذا تكلمت بأكثر جراءة، أقول إن الرب عندما يتكلم عن البر والتقوى إنما يعني ذاته المزمع أن يبذلها ويعطيها لنفوس سامعيه الجائعة، فهو «الذي صار لنا حكمة من الله، وبراً، وقداسة، وفداء» (١كو ١:٣٠)؛ بل وأيضاً خبزاً نازلاً من السماء، وماءً حيًّا.

+ داود عرف أن يعطش لهذا الماء عندما عبَّر عن اشتياق نفسه المبارك لله بهذه الكلمات: «عطشَتْ نفسي إلى الله القدير، إلى الإله الحي؛ متى أجيء وأتراءى قدام وجه إلهي» (مز ٤٢:٣). ويبدو لي أنه تعلّم من الرب بإلهام الروح هذه المعرفة العجيبة، وأُعْلَنَ له أن مثل هذه الرغبة لابد أن تُستجاب. لأنه يقول: «أما أنا فبالبر سأتراءى في حضرتك، وسأشبع من رؤية مجدك.» (مز ١٦:١٥ – حسب السبعينية)

+ هذا هو، في اعتقادي، أساس الحياة الفاضلة والصلاح المنزّه عن كل شرّ، الذي يغمر روح الذين ينشدون الخير الأعظم، الله نفسه، الكلمة والحياة الفاضلة ذاتها الذي «جلاله يغطي السموات»، حسبما يقول حبقوق (٣:٣).

إذاً، فبحق يُدعَوْن مطوبين أولئك الذين قيل عنهم إنهم يعطشون إلى بر الله. مَنْ ذاق الرب كما يقول المزمور (٨:٣٤)، أي مَنْ تقبَّل الرب في داخله فإنه يُغْمَر (يُشْبَع) بمَنْ إليه قد صار جائعاً ومتعطشاً، حسب الوعد: «أبي وأنا إليه نأتي وفيه نقيم مسكناً» (يو ١٤:٢٣)، حيث يسبقهما إليه الروح القدس.

+ وهكذا نرى بولس الرسول عندما ذاق ثمار الفردوس السرية تنعَّم بها، وفي نفس الوقت كان جوعاناً إليها على الدوام. فقد أقرَّ بحقيقة أنه فاز بما كان يتوق إليه: «المسيح يحيا فيَّ» (غل ٢:٢٠). ومع هذا فكإنسان جائع كان يحس بنفس الاشتياقات كما من قبل، إذ يقول: «ليس أني قد نلتُ أو صرتُ كاملاً، ولكني أسعى لعلي أُدرك» (في ٣:١٢). فإذا فهمنا الأساس الذي يقوم عليه هذا الجوع، وإذا رفضنا الشبع من الشر، وإذا جُعنا إلى بر الله حقيقة، فسنُشْبَع منه في المسيح يسوع ربنا الذي يدوم مجده إلى أباد الدهور.

القديس غريغوريوس النيسي

* * *

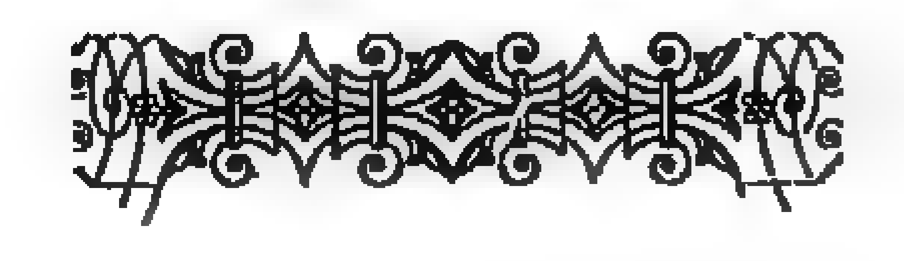
• الجوع إلى البر، هو السعي نحو التقوى.

+ «**طوبى لكم أيها الجياع الآن؛ لأنكم ستُشبعون**» (لو ٦:٢١): وإن كان في إنجيل متى يقول: «طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم سيُشبعون»، إلا أنه هنا في إنجيل لوقا يكتفي بالقول إن أولئك الجياع سيُشْبَعون. ونحن نقول إنه أمر عظيم وجليل أن نعطش ونجوع إلى البر: هذا

يعني بالتعبير الجاري أن نسعى سعياً حثيثاً نحو التقوى: لأن هذا هو معنى البر: الذي هو بمثابة الطعام والشراب. وإذا أردنا أن نعطي – بحسب الإمكان – معنىً آخر يتوافق مع الشروحات السابقة نقول أيضاً الآتي:

+ المخلِّص يعلن طوباوية أولئك الذين أحبوا المسكنة الاختيارية، لكي يُمكِّنهم من أن يسلكوا في طريق حياتهم الرسولية بكرامة وبلا ارتباك، لأن هذا يتطابق بوضوح مع عدم اقتناء الذهب أو الفضة في مناطقهم، ولا ثوبين؛ بل وأن يتحملوا أية شدة أو صعوبة تقابلهم في طريق حياتهم، وإنهم بالكاد سيحصلون على قوتهم الضروري (راجع متى ١٠). ولكن هذا عبء ثقيل لأولئك الذين يعانون الفقر والاضطهادات، لذا فإن مَنْ يعرف القلوب، لاق به جداً ألا يسمح لنا أن نكون ثابطي الهمة من أجل الأمور التي تنجم عن المسكنة (وهي الافتقار الاختياري): فهو يقول: إن أولئك الذين يجوعون إليه الآن من أجل حياتهم التَقَوية سيُشْبَعون: أي إنهم سينعمون بالبركات الروحية المحسوسة والملموسة المذخرة لهم.

القديس كيرلس الإسكندري



• البر هو خبز الحياة وينبوع الحياة للإنسان الداخلي.

«طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يُشْبَعون»:

أتريد أن تشبع؟ وبماذا تشبع؟ إذا رغب الجسد في الشبع، فبعد الهضم لابد ستعاني الجوع ثانية. لذا يقول الرب: «مَنْ يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً» (يو ٤:١٣). لأنه إذا عولج جرح ما بدواء مناسب وشُفي، فلا يعود صاحبه يعاني من الألم بعد؛ أما ما يعالج الجوع، أعني به الطعام، فهو لا يسد الرمق إلا إلى حين. فما أن ينتهي الشبع إلا ويعود الجوع. فدواء الشبع يتكرر تعاطيه يومياً. ومع ذلك فإن جرح الضعف البشري يظل بلا شفاء.

إذاً، هلموا بنا نجوع ونعطش إلى البر، حتى يمكننا أن نشبع بذلك البر الذي إليه نحن الآن نجوع ونعطش. لأننا حينما نشبع فإن هذا معناه أننا سنكون مع مَنْ نجوع إليه ونعطش. لندع إنساننا الداخلي يجوع ويعطش إلى طعامه وشرابه الخاصين. فالرب يقول: «أنا هو خبز الحياة الذي نزل من السماء». فهذا هو خبز الجائع، فاطلب أيضاً شراب العطشان؛ «لأن عندك ينبوع الحياة.» (مز٣٦:٩)

القديس أغسطينوس

• • •

«طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون»

● **الرحمة سمة في سائر تصرفات المؤمن.**

«طوبى للرحماء»:

+ يبدو لي هنا أن الرب لم يتكلم فقط عن أولئك الذين يُظهرون الرحمة بإعطاء الصدقة؛ بل أيضاً بالمِثْل أولئك الذين تبدو سمات الرحمة في سائر تصرفاتهم، لأن طريق إظهار الرحمة هو متعدد الجوانب. وهذه الوصية لا حدود لها.

فما هي المكافأة لهذه الفضيلة؟ «لأنهم سينالون الرحمة». وقد يبدو هنا أن الجزاء هو من نوع متكافئ، ولكنه في الحقيقة أعظم إلى حدٍّ بعيد - بما لا يُقارَن - من عمل الصلاح الذي يؤديه هؤلاء الرحماء. لأنهم وهم يُظهرون الرحمة كبشر، فسوف ينالون الرحمة من ربِّ الكل؛ وليست هناك أية مماثلة بين رحمة الإنسان ورحمة الله؛ كمثل اتساع الشُقَّة بين الشر والخير، هكذا شتّان ما بين رحمة البشر ورحمة الله.

القديس يوحنا ذهبي الفم

* * *

● **أنت ومَنْ تصنع معه الرحمة طالبان رحمة الله.**

+ **«طوبى للرحماء لأنهم سينالون الرحمة»:**

اعمل رحمة، فتُعمل معك؛ تعامل بها مع الآخرين فيتعامل معك الله بها. فقد تكون أنت في نفس الوقت في يُسرٍ وفي عُسرٍ: في يُسرٍ من جهة الأمور الزمنية، وفي عُسرٍ من جهة الأمور الأبدية. فالإنسان الذي يطلب منك أن تعمل الرحمة معه، هو متسوِّل وأنت أيضاً متسوِّل، كلاكما، على باب الله. يُقدِّمُ لك التوسل وأنت نفسك لك توسُّلك. وكما تُعامِل قارع بابك سيعاملك الله أنت قارع بابه.

أنت شبعان وجائع في آن واحد، فاشْبِعْ الجوعان من شبعِك حتى يُشْبَع جوعُك بالشِبَع الإلهي.

القديس أغسطينوس

* * *

● **صور متنوعة من الرحمة.**

+ إذا كان الكتاب المقدس يلقِّب الله بأنه «الرحيم»، وإذا كانت الطوبى الحقيقية هي الله نفسه، فمن الواضح بديهياً أن الإنسان الذي يصير رحيماً يصبح جديراً بالطوبى الإلهية، لأنه بلغ إلى ما يميز طبيعة الله: «الرب بارٌّ ورحيم، الله رؤوف بنا» (مز ١١٤:٥ – حسب الترجمة السبعينية). وكيف

لا يطوَّب إنسان استحق بفضل سيرته أن يلقَّب بما يتصف به الله في تفضُّله علينا؟

+ المعنى الذي يتبادر لأول وهلة إلى الذهن هو الآتي: هذا التطويب هو دعوة للإنسان للودِّ المتبادل وإلى الشفقة على مَنْ هم ناقصون بسبب عدم المساواة أو بسبب الفروقات القائمة بين البشر، أو بسبب اختلاف الحالة الاجتماعية أو البِنية الطبيعية أو الميول في المجالات المختلفة. وفي أغلب الأحيان تعرض علينا الحياة أوضاعاً متعارضة: التسلط والعبودية، الغِنى والفقر، الصحة والمرض، وبقية المفارقات الأخرى.

فلكي تصير الفرصة للذين هم في فاقة أن يصلوا إلى المساواة مع أولئك الذين لهم موارد وفيرة؛ لابد أن يكون هناك شفقة كواجب مُلزم.

+ إنه من المستحيل أن يأخذ الإنسان على عاتقه أن يخفف من بؤس القريب إذا لم يسبق الحنان، ويجعل النفس رقيقة من الداخل حتى يدفع بها إلى الرغبة في عمل الرحمة؛ لأن الشفقة هي الضد المقابل للقسوة. وإنسان قاسٍ فظُّ المشاعر هو في انعزالية حتى عن أهل بيته، أما الإنسان الشفوق الرحيم فهو مُشرِك للمعسرين فيما له، إنه يضم نفسه إليهم في موضوع تطلعاتهم ويحس بإحساساتهم. إنه يمكن تعريف الرحمة أو الحنان بأنها المشاركة الطوعية في ما يصيب الآخرين من بلايا.

الشفقة هي التألم مع الآخرين:

+ والرحمة هي صفة لرقة المشاعر الودودة مع مَنْ يُبتلون بالتجارب والضوائق المتنوعة. وكما أن القسوة والشراسة ينبعان من الكراهية، كذلك من المحبة يتولد الحنان والشفقة، وبدون المحبة لا يوجدان.

+ إذا أراد أحد أن يعرف السمة المميزة للشفقة، فسيجد أنها هي المودة الحارة الممتزجة بالألم حِيَال ضوائق وشدائد الآخرين. وإذ تُشارِك الآخرين أفراحهم تتفاعل مع كل الناس، سواء كانوا أعداءً أو أحباءً. ولكن قبول المشاركة في بؤس الآخرين هو بالأكثر الصفة المميزة لأولئك الذين يضطرمون بالمحبة الحقيقية.

+ إنه من المعروف يقيناً أنه من بين كل الفضائل التي تُمارَس في هذه الحياة، فإن أجلّها حُسناً المحبة. أما الشفقة (أو الرحمة) فهي فيض المحبة، ودليل وجودها الأكيد. فمَنْ يحفظ نفسه في هذه الحالة فهو ينال أعظم التطويب. لأنه بها يبلغ غاية الكمال.

+ ولكن لا ينظر أحد إلى هذه الفضيلة من وجهة نظر مادية بحتة، وإلا تكون ممارستها غير ممكنة لِمَنْ لم تتهيأ لهم الموارد المادية الضرورية التي تحقق رغبتهم في الإحسان. فلكي نكون أكثر إنصافاً نقول إنه يمكن اكتشافها في النية. فالإنسان الذي يريد أن يعمل الخير، فإنه إذا لم يتمكن أن يمنح إحساناً بسبب ضيق المعيشة، فليس هو بذلك أدنى منزلة في حياته الداخلية من ذاك الذي يمكنه أن يعبِّر عن عطفه بالأعمال الظاهرة.

«طوبى للرحماء، لأنهم سينالون الرحمة»:

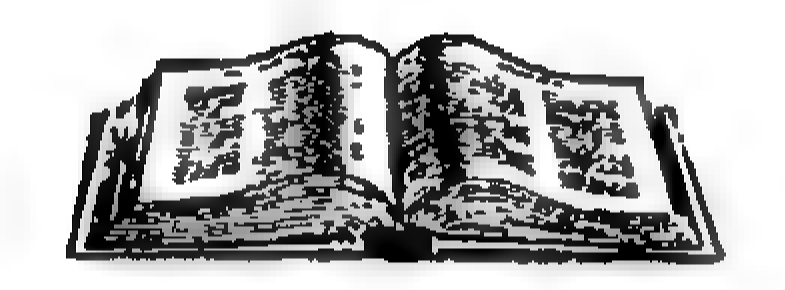
يمكننا أن نكتشف هنا معنى أكثر عمقاً. فالله الذي عمل الإنسان على صورته قد أودع في هذه الطبيعة التي جبلها كل أنواع بذور الأعمال الصالحة بحيث أنه لا شيء مما هو صالح يأتي من الخارج، والكل يتوقف على إرادتنا: فنحن نستخرج الخير من طبيعتنا كما من خزينة سرية داخلها. والمثل على هذا بصفة خاصة هو إنه من غير الممكن أن ينفع الإنسان الآخرين بشيء لا يستحوزه في نفسه. من أجل هذا قال الرب يوماً لمَنْ يستمعون إليه: «ها ملكوت الله داخلكم» (لو ١٧: ٢١)، وأيضاً: «كلُّ مَنْ يسأل يأخذ، ومَنْ يطلب يجد، ومَنْ يقرع يُفتح له» (مت ٦:٧-٨). وكون أننا نأخذ ما نبتغيه، ونجد ما نطلبه ونحقق اشتياقاتنا فإن هذا في مقدورنا كل مرة وددنا ذلك ويتوقف كلية على حرية إرادتنا.

+ كما أن المرآة تعكس بأمانة حالة الإنسان، فتُظهر الوجه فرحاً إذا كان هو في قرارة نفسه فرحاً، وكئيباً إذا كان المرء حزيناً – ولا أحدٌ يستطيع أن يتهم المرآة بأنها تعكس وجهاً مغموماً لوجه غير مُثقَّلٍ بالحزن – كذلك بالمثل عدالة الله ترد لنا ما نقدمه. فكأعمالنا كذلك تكون معاملة الله. فهو يقول: «تعالوا إليَّ يا مباركون» و«اذهبوا عني يا ملاعين.» (مت ٢٥: ٣٤و٤١)

+ ثم إن «الإنسان سيحصد ما يزرعه. لأن مَنْ يزرع لجسده فمن الجسد يحصد فساداً. ومَنْ يزرع للروح فمن الروح يحصد حياة أبدية.» (غل ٦: ٧و٨)

+ فلنتبصَّر يا أحبائي في كلمة الرب، الذي في كلمات قليلة جـداً، يعلّمنـا أموراً هكذا عظيمة المقدار عن حياة الدهر الآتي. فلنمارس الرحمـة حتـى ننـال بهذا الغبطة الدائمة في المسيح يسـوع ربنـا، الـذي لـه القـدرة والمجـد إلى آبـاد الدهر. آمـين.

القديس غريغوريوس النيسي



«طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله»

● **لا يكفي الامتناع عن الشر؛ بل نقاوة القلب، ليمكن رؤية الله.**

+ لاحظوا هنا أيضاً أن المكافأة روحية. فهو يدعو «أنقياءَ» مَنْ قد بلغوا إلى قمة الفضائل و لم يُبقوا في أنفسهم شيئاً من الشر؛ وكذلك مَنْ يضبطون أنفسهم في كل شيء ويتعففون عن الشهوات، لأنه ليس هناك شيء نحتاج إليه بشدة لكي نعاين الله بقدر هذه الفضيلة الأخيرة. حيث يقول القديس بولس الرسول أيضاً: «اتبعوا السلام مع الجميع، **والقداسة التي بدونها لن يرى أحدٌ الرب.**» (عب ١٢: ١٤)

+ فهو يتكلم هنا عن الرؤية النسبية، أي التي على قدر ما يحتمل الإنسان بسبب محدوديته البشرية. فكثيرون يمارسون عمل الرحمة، ولا يرتكبون السلب، ولا يشتهون مال الغير، ومع هذا يوجدون متلبِّسين بخطايا الفسق والنجاسة؛ فلكي يُظهر المسيح أن عمل الرحمة وحده لا يكفي، أضاف هذا التطويب. وهذا هو نفس المعنى تماماً الذي عناه بولس الرسول عندما كتب لأهل كورنثوس شاهداً للمقدونيين إنهم كانوا أسخياء ليس فقط في إعطاء

الصدقة، ولكن أيضاً في سائر الفضائل الأخرى، لأنه بعد أن تكلم عن علو همتهم التي أبدوها من جهة كرمهم المادي قال أيضاً: «بل أعطوا أنفسهم أولاً للرب ولنا بمشيئة الله.» (٢كو ٨:٥)

القديس يوحنا ذهبي الفم

* * *

- **كما أن بالعين السليمة نرى النور، هكذا بالقلب النقي نرى الله.**

«طوبى للأنقياء القلب؛ لأنهم سيعاينون الله»:

كم هو من الغباء بمكان أن يبحث البعض عن الله بهذه الأعين الخارجية، فهو يُرى بالقلب فقط! كما هو مكتوب في موضع ما (من الأسفار الإلهية): «وبإخلاص (أو وحدانية) القلب اطْلُبْه (أي اطلبْ الله)» (سفر الحكمة ١:١). فالقلب المتوحِّد (أي الذي لا يبتغي إلا الله وحده) هو قلب نقي. وكما أن نور هذه الحياة لا يُرى إلا بالأعين السليمة غير المريضة؛ كذلك الله لا يُرى إلا بنقاء القلب، وهو الأداة التي بها يُرى الله.

القديس أغسطينوس

* * *

● **الرب يطلب استئصال الشر من الداخل.**

+ كيف يصير القلب نقياً؟ هذه العظة على الجبل تكاد – في كل جزءٍ من أجزائها – أن تعلِّمنا هذا. فإذا تمعنت فيما ورد فيها من الوصايا الواحدة بعد الأخرى، فستكشف المهارة الأصيلة لفن الطهارة (تنقية القلب). فالرب يُفَرِّق بين نوعين من الخطايا: تلك التي تبدو في الأفعال الخارجية، وتلك التي تتولد في النفس من الداخل.

في شريعة العهد القديم كان الله يُلقي بالقصاص على الخطايا التي تتبدَّى في الأفعال، أما في هذا العهد الجديد، فهو يغزو الخطية في شكلها البدائي، أي داخل القلب، فهو يعلن رسمياً عن شريعة، لا تسعى بعد أن تتعاقب الأخطاء المرتكبة بالفعل؛ بل أن تستأصل الشر من أساسه وتُنهي عليه.

أيمكن أن يكون التحذير من حياة الخطية أفضل من اقتلاعها من الضمير؟ الخطية متعددة الصور والأشكال، فأمام كل وجه من وجوهها يُشهر الرب السلاح الماضي، وهو الوصية.

فمن المعروف أن الغضب في أغلب الأحيان هو أسرع انفعالاتنا حدوثاً. لذا فالرب يبدأ بمعالجة هذا الداء الشديد الخطورة، فيحضُّ على الوداعة: «قد سمعتم أنه قيل في الشريعة القديمة لا تقتل...» (مت ٥:٢١)، أما في العهد الجديد فهو يعلِّمنا أن نبعد من القلب كل غضب من جهة الآخرين.

ثم إن الرب بتحذيراته التالية يريد أن يستأصل منّا حب اللّذات الشهوانية، ويمحو من القلب كل انطباعات الانحرافات الخاطئة الحمقاء المؤدية إلى الفساد. وهكذا يلاحَظ أن الرب من خلال هذه النواهي يصحح كل العيوب واحداً فواحداً، واضعاً مقابل كل منها واحدة من شرائعه.

ثم إنه يتطلب منا ليس فقط ألا نردَّ على الإهانة؛ بل أيضاً أن نتقبَّلها. وكذلك يريد أن يحررنا من الميل إلى الشح عندما يأمرنا أن نعطي لِمَنْ يريد أن يسلبنا حتى ما لم يطلبه منا. ويبرئنا من الجُبن عندما يتطلب منا أن نقهر خوفنا من الموت.

وقُصارى القول؛ فإن محراث كلمة الله في كل وصايا الرب يقتلع من قاع قلوبنا جذور الخطايا الدفينة، وهكذا يمكننا أن ننهي على الأشواك وتكاثرها.

هذه هي النِعَم التي يغمر بها الرب طبيعتنا: وبينما هو يجازيها بالغبطة الأبدية (أو الطوبى)، فإنه في نفس الوقت يُعلِّمها ويُعِدُّها للفوز بهذا الوعد. ولكن مما لاشك فيه، فإنه لا يمكن الوصول بلا معاناة إلى هذه «الطوبى».

وإذا قيل: «طوبى للنقية قلوبهم»، فيمكن أن يُقال أيضاً: الويل لِمَنْ امتلأت نفوسهم بالأدناس! لأنهم لا يرون وجهاً آخر سوى وجه العدو (إبليس). إن وجود إنسان بار يعكس صورة الله؛ بينما الحياة البعيدة عن جادة الصواب هي اقتفاء لآثار العدو.

وبجانب صفات الله الذاتية، فهو يُسمَّى بكل التعبيرات الاصطلاحية التي تشير إلى كماله: النور، الحياة، عدم الفناء، وبقية الصفات الأخرى. والعكس

صحيح، فإن كل التعبيرات المضادة تنطبق على مخترع الشر: الظلمة، الموت، الفساد، وبقية الأسماء الأخرى الشبيهة.

نحن نعرف أي سمات تتميز بها حياة الإثم أو حياة البر، ونحن لنا الحرية أن نختار أحد الطريقين. فلنتجنب مرأى إبليس ولنتخلَّ عن سماته البغيضة، ولنلبس الصورة الإلهية مطهِّرين قلوبنا من كل العلل الرديئة، وهكذا نحصل على الفرح (الروحاني)، فتتألق فينا الصورة الإلهية من خلال نقاوتنا في المسيح يسوع ربنا الذي له المجد إلى دهر الدهور. آمين.

القديس غريغوريوس النيسي

* * *

● **نقاوة القلب، والإيمان والرجاء والمحبة.**

+ كل ما نعمله الآن، وكل ما نكمله في الزمن الحاضر، وكل ما نسعى إليه جاهدين أو نتحمس له بغيرة ممدوحة أو أية شهوة بريئة نتمناها، لن يكون مطلباً نتطلع إليه عندما نأتي إلى معاينة الله. فأية حاجة يسعى إليها مَنْ قد صار الله في معيَّته؟ ومَنْ يستطيع أن يسد عوزه أو جوعه وعطشه للبر سوى الله؟

إننا نتوق أن نرى الله؛ بل إننا نجدُّ ونَحْتَرُّ بالرغبة في أن نعاينه. مَنْ لا يود ذلك؟

ولكن انتبه إلى ما قيل: «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله». فزوِّد نفسك بما يُمكِنَك أن تعاينه به. ولكن كيف وأنت، على سبيل المثال، بعينين ضعيفتين تتوق أن تشاهد إشراق الشمس؟ إذاً، فاجعل عينك سليمة ليكون النور لها مبهجاً، أما إذا لم تكن سليمة فسيكون لها مؤذياً. لأنه ليس ميسوراً للقلب غير الطاهر أن يشاهد ما لا يمكن معاينته إلا بالقلب النقي. وإلا فأنت تُصَدُّ وترتد على أعقابك خاسراً ولن تراه. لأنه: «طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله».

لاحظ كم من المطوَّبين قد ذُكر، وأسباب تطويبهم، وأعمالهم، والتعويضات والاستحقاقات والمكافآت التي سيلاقونها! لكنه لم يقل عن أي منهم «إنهم سيعاينون الله»، فهو قال: «طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات»، و«طوبى للودعاء لأنهم سيرثون الأرض»، و«طوبى للحزانى لأنهم سيتعزّون»، و«طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم سيُشْبَعون»، و«طوبى للرحماء لأنهم سيُرْحمون». ولكن لم يقل ولا في واحدة من هذه: «إنهم سيعاينون الله».

ولكن عندما نأتي لأنقياء القلب، فإنه يعدهم برؤية الله. ولكن ليس بلا سبب اختص أنقياء القلب برؤية الله. فإن العينين اللتين بهما يُرى الله هي كائنة في القلب. وإذ يتحدث الرسول بولس عن هذه الأعين يقول: «مستنيرة عيون أذهانكم (وتُقرأ أيضاً "قلوبكم")» (أف ١:١٨). فهذه الأعين في الزمان الحاضر تستنير – بحسب ما يتلاءم مع ضعفها – **بالإيمان**؛ ولكن في

الزمان الآتي – فيما يتوافق مع قوتها – ستكون مستنيرة **بالعيان**: «أننا ونحن مستوطنون في الجسد فنحن متغرِّبون عن الرب. لأننا بالإيمان نسلك لا بالعيان» (٢كو ٥:٦و٧). فالآن ما دمنا في حالة الإيمان. فماذا يُقال عنا؟ «فإننا ننظر الآن في مرآة في لغز (أو في غموض)، لكن حينئذٍ وجهاً لوجه.» (١كو ١٣:١٢)

+ الكتاب المقدس يتكلم عن «وجه» الله، و«ذراع» الله، و«يَدَي» الله، و«قدميْ» الله، و«عرش» الله، و«موطئ قدميه»؛ ولكن لا تتصور في هذه كلها أعضاء جسد بشري. إذا أردت أن تكون هيكلاً للحق، دُس على وثن الباطل. فيد الله هي قوة الله؛ ووجه الله هو معرفة الله (الدالة والعلاقة الشخصية مع الله)؛ وقدما الله هما حضوره؛ وعرش الله – إذا كنتَ ذا وعي روحي بحق – فهو أنت نفسك.

ولكن هل تتجاسر وتنكر أن المسيح هو إله! إنك تقول: «كلا»، فهل تُسلِّم بهذا أيضاً أن المسيح هو «قوة» الله و«حكمة» الله (١كو ١:٢٤)؟ تقول: «نعم أعترف بهذا». فاسمع إذاً ما يقوله الكتاب: "نفس البار (أو الصدِّيق) هي عرش الحكمة" (سفر الحكمة). هذا حق لأنه أين يكون عرش الله إلا حيث يحلُّ الله؟ وأين يكون حلوله إلاَّ في هيكله؟ «لأن هيكل الله مقدَّس الذي أنتم هو.» (١كو ٣:١٧)

فانتبه إذاً كيف تستقبل الله: «الله روح وينبغي أن يُعْبَد بالروح والحق» (يو٤:٢٤). دعْ تابوت العهد يدخل إلى قلبك، إذا كنت واعياً به بحق حتى

يسقط داجون (١صم ٥:٣). فاصغ الآن في التوِّ، وتعلَّم أن تتوق إلى الله؛ واعرف كيف تعد الوسيلة التي بها ترى الله: «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله».

+ فإذا كان لنا توق إلى أن نرى الله، فبماذا نطهِّر أعيننا؟ ومَنْ ذا الذي لا يهتم ويكدُّ في طلب واسطة التطهير لتلك العين التي بها يمكنه أن يرى ذاك الذي يشتاق إليه بكل عاطفة حبه؟ يشير الوحي الإلهي إلى هذا بوضوح مُبين عندما يقول: «إذ طهَّر بالإيمان قلوبهم» (أع ١٥:٩)، فإيمان الله إذاً يطهِّر القلب، والقلب الطاهر يرى الله. ولكن لأن هذا الإيمان قد عرَّفه بعض الناس الذين يخدعون أنفسهم بأنه مجرد الإيمان النظري فحسب، كتب القديس يعقوب الرسول ضد هؤلاء مُحترًّا بروح المحبة والغيرة المقدسة قائلاً في رسالته: «أنت تؤمن أن الله واحد» وأنت تعتز بنفسك من أجل إيمانك هذا، لأنك تلاحظ كثيرين من الناس غير الأتقياء يعتقدون بآلهة عديدة وتفتخر أنك لا تؤمن إلا بإله واحد؛ «حسناً تفعل والشياطين يؤمنون ويقشعرون» (يع ٢:١٩). ولكن هل هم أيضاً يعاينون الله؟ إن مَنْ سيعاين الله هم أنقياء القلب بالرغم من أنهم «يؤمنون ويرتعدون».

+ فإيماننا، إذاً، يختلف عن إيمان الشياطين. لأن إيماننا ينقي القلب؛ أما إيمانهم فهو يقسِّي القلب لأنهم يفعلون الإثم. لذلك نجدهم يقولون للرب: «ما لنا ولك» (أي لا علاقة لك بنا). وإنك عندما تسمعهم يقولون هذا لا تظن أنهم لا يعرفونه، فقد قالوا له: «... أتيت لتُهلكنا. أنا أعرفك، مَنْ أنت:

قدوس الله» (لو ٤:٣٤). وهذا ما قاله بطرس فمُدح، بينما يقوله الشياطين فيُشجبون. ولماذا؟ لأنه بالرغم من أن الكلام هو هو نفسه، لكن القلب مختلف.

إذاً، لنميِّز إيماننا ولا نقنع بمجرد أن نؤمن. لأن مثل هذا الإيمان ليس هو الإيمان الذي يطهِّر القلب. فقد قيل: «مطهِّراً بالإيمان قلوبهم» (أع ١٥:٩)، ولكن بأي نوع من الإيمان سوى ذاك الذي يُعرِّفه بولس الرسول بأنه: «الإيمان العامل بالمحبة» (غل ٥:٦). هذا الإيمان يميز بيننا وبين إيمان الشياطين وأعمال الناس (الذين على شاكلتهم) التي تتصف بالشناعة والتسيُّب. إنه الإيمان كما يقول: «العامل بالمحبة»، والذي يترجى مواعيد الله. وليس أدقّ وأكمل من هذا التعريف.

والإيمان يتضمن هذه الثلاثة الأمور: الإيمان والرجاء والمحبة؛ لأن مَنْ فيه الإيمان العامل بالمحبة، فبالضرورة يكون عنده الرجاء في ما وعد به الله. فالرجاء يرافق الإيمان، لأن الرجاء ضروري ما دمنا لم نعاين بعد ما نؤمن به، لئلا بسبب عدم الرؤية والخوف من احتمال عدم المشاهدة نخفق. وحتى إذا كنا لا نرى نحزن؛ ولكن كوننا نرجو أننا سنعاين ما لا نراه الآن، فهذا يعزينا.

فالرجاء، إذاً، هو رفيق الإيمان. والمحبة أيضاً التي تجعلنا نتوق ونسعى جاهدين أن نُدرك، ونتّقد بالرغبة والتعطُّش والجوع، فهذه أيضاً لابد أن تواكب الاثنين؛ وهكذا سيوجد الثلاثة معاً: الإيمان والرجاء والمحبة.

إذاً، فهل يمكنك أن تُقصي الإيمان؟ عندئذٍ يتبدَّد من أمامك كل ما تؤمن وتصدق به؛ أو ترفع المحبة؟ فسيتبدد كل ما تعمله. لأن دائرة اختصاص الإيمان أن تصدِّق مواعيد الله، بينما وظيفة المحبة أن تعمل. لأنك إذا آمنتَ دون حبٍّ فأنت لن تكلِّف نفسك بالأعمال الصالحة؛ وحتى لو مارستها فأنت ستؤديها كعبد وليس كابن، خوفاً من العقاب وليس عن حب البر. لذلك نقول: **إن الإيمان الذي ينقي القلب، هو الإيمان العامل بالمحبة.**

القديس أغسطينوس



«طوبى لصانعي السَّلام، لأنهم أبناءَ اللهِ يُدْعَوْن»

● عمل المصالحة بين المتخاصمين يكتمل بأن نجعلهم واحداً.

+ «**طوبى لصانعي السلام**»: الرب هنا لا يود فقط أن يزيل الخصام والكراهية اللذين نحملهما في أنفسنا من جهة بعضنا البعض؛ بل هو بجانب هذا يتطلب منا شيئاً آخر وهو: أن نجعل هؤلاء المتنازعين (أو المتخاصمين) واحداً. أما المكافأة التي يسكبها علينا، فهي أيضاً روحية. فما هو نوعها يا تُرى؟

«لأنهم أبناء الله يُدعون». نعم لأن هذا هو عمل الابن الوحيد: أن يُوَحِّد المنقسمين ويُصالح المتباعدين. ولئلا نظن أن السلام مطوَّب في كل الأحوال أضاف قائلاً: «طوبى للمضطهَدين (وتعني أيضاً المطرودين) من أجل البر»: أي من أجل الفضيلة والمعونة المقدَّمة للآخرين، من أجل عمل الصلاح فالرب اعتاد أن يَعني بالبر: كل الأعمال الحكيمة التي تمارسها النفس.

القديس يوحنا ذهبي الفم

* * *

• **السلام المطلوب هو سلام الإنسان مع نفسه.**

+ «طوبى لصانعي السلام: لأنهم أبناء الله يدعون». إنه كمال السلام، حيث لا يوجد شيء يدعو للتعارض؛ وأبناء الله هم صانعو سلام حيث لا يوجد فيهم شيء يُقاوم الله، ويقيناً إن الأبناء ينبغي أن يحملوا شَبَه أبيهم. فهم صانعو سلام (أولاً في أنفسهم) عندما يسود الانسجام بين ميولهم وأنفسهم، فيخضعون الميول للعقل أي للذهن وللروح.

+ وبإخضاعهم شهواتهم الجسدية تماماً يصيرون ملكوتاً لله: حيث تسير كل الأمور بترتيب (ولياقة)، حيث يحكم ويسود الجانب الأسمى في الإنسان، بلا مقاومة، على بقية العناصر التي تشاركنا فيها الحيوانات (وهي الغرائز الجسدية) وكل عنصر سامٍ في الإنسان، أعني به الفكر والعقل، يخضع هو بنفسه لما هو أسمى منه أيضاً أي الحق ذاته الذي هو ابن الله الوحيد. لأن الإنسان لا يمكنه أن يسود على الأشياء الأقل منه إن لم يخضع هو نفسه لما هو أعلى منه. وهذا هو «السلام» الذي أُعطي للناس ذوي الإرادة الصالحة، (ترجمة حرفية لـ: «وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة»).

هذه هي حياة الإنسان الحكيم الكامل والمتقدم في النعمة. وعن مثل هذه المملكة التي يسودها السلام الكامل والوئام، يُطرح خارجاً رئيس هذا العالم الذي لا يسود إلا حيث المعاندة والفوضى.

أما عندما يقوم هذا السلام في الداخل ويرسخ، فـإن أيـة اضطهـادات بعـد ذلـك يثيرهـا مـن الخـارج ذلـك المنطـرح خارجـاً، فسـوف تكـون لمجـد الله بالضرورة؛ لأنه يصبح غير قادر أن يزعزع أي شيء في هذا البناء الكبـير؛ بـل حينما تخفق مكايده المُدبَّرة، يعلن على الملأ عِظَم القوة الـتي قـد بُـني بهـا هـذا البناء من الداخل. ولذا يُتبِع الرب قوله هكذا: «طوبى للمضَّطهدين مـن أجـل البر، لأن لهم ملكوت السموات».

القديس أغسطينوس

* * *

صُنـع السـلام:

إن مَنْ ينقذ الحياة البشرية من مثل هذا الداء الوبيل (أي الكراهيـة)، ومَـنْ باللطف والسلام يقارب بين المتباعدين ويقود النـاس إلى المحبـة والوفـاق، فإنـه يعمل بذلك عمل القوة الإلهية، بإبعـاده الشـر عـن الطبيعـة البشـرية وبإحلالـه الخير مكانه.

من أجل هذا دُعِيَ صانعُ السلام ابناً لله، لأنه يتمثل حقاً بالله الـذي يمنـح نِعَمه للإنسان.

إذاً «**طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يدعون**»، هـي لمَـنْ يقتـدون بمحبة الله للبشر؛ والذين لهـم حيـاة تتّسـم بالسـمة المميزة للعمـل الإلهـي. إن موزع ورب النعم كفيل أن يبيد ويلاشي كل مـا هـو غريـب عـن هـذا الخـير

الذي يمنحه. وهاك هي الأعمال التي تفرضها عليك شريعته أيضاً: اطرح الكراهية! أوقف العراك! اقصِ عنك الحسد! قاوم النزاع، أَبِدْ النفاق، أطفئ في داخلك الحقد الذي يحطِّم قلبك ببطء؛ وأدخِلْ بدلاً من كل هذه الرزايا ما يضادُّها من فضائل.

ثمار السلام:

في الواقع كما أن بدء انقشاع الظلام هو تباشير انبلاج النور؛ كذلك كل واحدٍ من هذه العيوب يخلي مكاناً لواحدة من ثمار الروح: محبة، فرح، سلام، لطف، طول أناة، وكل النعم العديدة التي قدَّم الرسول قائمة بها في (غل ٥:٢٢و٢٣). فكيف إذاً لا يكون مطوَّباً ذاك الذي ينشر هذه الهبات الإلهية بالروح القدس الذي فيه؛ هذا الذي يتشبه بصلاح الله ومن خلال نعمه المسبغة عليه يدرك مدى جوده الإلهي؟

ثم يبدو لي أن هذه الطوبى لا تتعلق فقط بإسداء الخير للآخرين ونشر السلام بينهم، ولكنها تنطبق بالأولى وبصفة خاصة على مَنْ يعيد إلى السلام والوفاق، ذلك الصراع القائم فيه بين الجسد والروح، هذه الحرب الطبيعية القائمة في الإنسان الواحد نفسه، عندما لا يكون لناموس الجسد الذي يُقاوم ناموس الروح، قوةٌ ذاتية بل حينما يخضع لسلطة عليا (التي هي قوة الروح القدس)، ويدخل في خدمة الوصايا الإلهية.

ولكن ينبغي أن نُنبه بصفة خاصة أن كلمة الله تدعونا إلى الاعتقاد بوجود طريقين للحياة عند أولئك الذين قوَّموا سلوكهم: فحينما ينهدم حائط الشر

الذي يقسم النفس من الداخل، حينئذ تتحد وجهتا الحياة في كلٍّ منسجم كطريق واحدٍ للخلاص، للإنسان. وهكذا بما أننا نؤمن أن العنصر الإلهي بسيط بلا امتزاج ولا تركيب، كذلك الإنسان بالوصول إلى هذا السلام بعد خروجه من انقسام ميوله، يأتي إلى الغبطة الحقيقية، ويصبح هو نفسه بسيطاً بلا تركيب ذا كيانٍ واحدٍ، حتى إن خارجه يصير كداخله، وداخله كخارجه. وهذا ما يجعل هذه الطوبى تصير – بحق – ذات فعالية، ومثل هؤلاء الناس الذين تصالحوا مع نفوسهم، يُدعَوْن بحق أبناء الله ويطوَّبون حسب وعد ربنا يسوع المسيح؛ الذي له المجد إلى دهر الدهور! آمين.

القديس غريغوريوس النيسي



«طوبى للمضطهدين[1] من أجل البر...
طوبى لكم إذا عيَّروكم واضطهدوكم...
افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات...»

• المستحقون لهذا التطويب هم الذين يُفترى عليهم كَذِباً بسبب تمسُّكهم بالفضيلة حُبًّا في المسيح.

+ «طوبى للمضطهدين من أجل البر»: أي من أجل عمل الفضيلة، من أجل إسداء المعونة للآخرين ومن أجل التقوى. الرب يعني بالبر كل عمل الحكمة (راجع يع ٣:١٣–١٨) (التي من فوق) الذي تمارسه النفس.

+ «طوبى لكم إذا عيَّروكم واضطهدوكم وقالوا عليكم كل شر كاذبين من أجلي. افرحوا وتهللوا» (مت ٥:١١و١٢)؛ وكأنه يقول لهم: ولو إنهم دعوكم سحرة ودجالين وخطرين (على الأمن أو الأخلاق) أو أشخاص ذوي صفات شريرة أخرى، فـ «طوبى لكم»: وماذا يكون أكثر غرابة من هذه الوصايا؟ فالأمور التي يتحاشاها ويخشاها كل الناس، يعلن الرب أنها هي بعينها التي ينبغي أن نتوق إليها ونودَّها، أعني بها: المسكنة، الحزن (من أجل الحرمان من الأمور الروحية)، الاضطهاد، السمعة السيئة (أو الإشاعة

---

(١) الترجمة الحرفية من الأصل اليوناني.

الباطلة). وهو يعلن ذلك ويؤكده لا لاثنين أو لعشرة أو لعشرين أو لمئة ولا لألف؛ بل لكل العالم. وإذ سمعت الجموع هذه الأمور الجد خطيرة والمنافية لكل ما اعتاده الناس «بُهِتتْ» من مثل هذه القوة التي كان يتكلم بها (مت ٧:٢٨و٢٩).

ولكن لئلا تظن أن مجرد التكلم بالشر على بعض من الناس هو كفيل وحده أن يجعلهم مستحقين للتطويب، لذا سبق الرب فوضع حدَّين قَيْدَ هذه «الطوبى»: أن تكون من أجل الرب، وأن تكون الأمور المُقالة هي محض افتراء كاذب؛ فبدون هذين الشرطين يكون ذوو السمعة الشريرة بعيدين عن هذا التطويب وبائسي الحظ.

ثم انظر المكافأة أيضاً: «لأن أجركم عظيم في السموات»، ولكن ولو أنك لا تسمع عن ملكوت السموات معطاة في كل واحدة من التطويبات لا تثبط عزيمتك. فمع أن الرب يعطي أسماء متباينة للأجر المزمع أن يكون إلا أنه يأتي بالجميع إلى ملكوته. وهكذا عندما يقول: «طوبى للحزانى فإنهم يتعزون»، أو «للرحماء فإنهم سيُرحمون»، و«أنقياء القلب لأنهم سيُعاينون الله»، وإن «صانعي السلام سيُدعون أبناء الله»؛ لا شيء آخر يشير إليه بكل هذه الأقوال سوى الملكوت. ومَنْ ينعم بالواحد سيبلغ الأخرى أكيداً. فلا تظن أن هذا الأجر (الملكوت) هو للمساكين بالروح فقط؛ بل هو أيضاً للذين يعطشون للبر، وللودعاء، ولكل الباقين بلا استثناء.

القديس يوحنا ذهبي الفم

• المسيح يسبق ويُخبر تلاميذه وخدامه بما سيجري عليهم من اضطهاد من أجله، ولكن مكافأة احتمالهم ملكوت السموات.

+ قد سبق الرب وتكلم عن الاضطهاد (المزمع أن يجري على التلاميذ كما على المسيحيين بصفة عامة)، حتى قبل أن يبدأ الرسل كرازتهم. فالإنجيل يستبق دائماً الأحداث، لأنه كان من المتوقع لِمَنْ كان عليهم أن ينادوا برسالة الإنجيل، ويجعلوا اليهود أن يتخلوا عن طريق عبادتهم الرسمية، وأن يتعلموا طريق الحياة الإنجيلية الفاضلة، وأن يفوزوا بكثيرين من عبدة الأوثان ليأتوا بهم إلى معرفة الحق، أن يصطدموا بكثيرين ممَّن لا تقوى لهم ولا حياة طاهرة. فإن مثل هؤلاء هم الذين في عدائهم للتقوى يثيرون الحروب والاضطهادات ضد مَنْ يكرزون بيسوع (مخلِّص العالم من الشر والخطية). فلكي يقيهم الرب من القلق المفرط حينما يأتي الوقت الذي تصيبهم فيه فعلاً مثل هذه الأحداث من جهة أو من أخرى، يسبق فيخطرهم، من أجل منفعتهم، حتى إن عنف هذه الأمور الشديدة الوطأة يكون مصدر مكافأة حسنة وامتياز عالي القدر لهم. فهو يقول لهم: إنهم سيعيرونكم كمضلِّلين يُغوُون الناس، إنهم سيفصلونكم عنهم؛ بل ومن صداقتهم ومجتمعهم، ولكن لا تَدَعوا شيئاً من هذه الأمور يزعجكم. لأنه أي ضرر يلحق العقل الرزين من جهة اللسان غير المنضبط؟

واحتمال هذه الأمور بصبرٍ لن يذهب عبثاً ولـن يكـون بغـير جـدوى؛ بـل سيكون عربون غبطة أبدية. إنه يوجِّه الكلام هنا لِمَنْ يعرفون كيـف يتحملـون ذلك بتقوى. ويبيِّن لهم من أجل منفعتهم، أنه لا شيء مستغرب يحـدث لهـم، مهما قابلوا من مثل هذه الأمور. بل إنهم في ذلك سيكونون علـى مثـال مَـنْ سبقوهم، أولئك الذين حملوا لبني إسرائيل الأقوال العلوية التي أتتهـم مـن قِبَـل الله، والذين عُذِّبوا وقُطِّعوا إرباً بالمناشـير ومـاتوا قتـلاً بالسيف (راجع عب ١١:٣٥-٣٨)، وتحملوا كل الأحكام المخزية التي وقعت عليهم ظلماً. فلهـذا أراد الـرب أن يُفهِمَهـم أنهـم سيصيرون شـركاء أولئـك الذيـن مـاثلوهم في أعمالهم؛ وأنهم لن يخفقوا في أن يفوزوا بأكاليل الأنبيـاء بعـد أن سـاروا علـى نفس الدرب.

القديس كيرلس الكبير
عمود الدين

* * *

● **من الخارج تعييرات، ومن الداخل فرح لا يُنطق به.**

+ يقول الرب: «طوبى لكم إذا عـيروكم وطردوكـم وقـالوا عليكـم كـل كلمـة شريرة مـن أجلـي كـاذبين. افرحـوا وتهللـوا، لأن أجركـم عظيـم في السموات». ليت كل مَنْ يسعى وراء المسرات العالمية والخيرات الزمنيـة تحت

الاسم المسيحي يعلم يقيناً أن سعادتنا الحقيقية هي باطنية (سعادة الروح)؛ كما قيل عن نفس الكنيسة بفم النبي: «كل مجد ابنة الملك من الداخل» (مز ١٣:٤٥). لأنه من الخارج قد وُعِدَ بتعييرات واضطهادات وإهانات؛ إلا أن هذه الأمور لها أجر عظيم في السموات يُحسُّه قلب أولئك الذين يتحملون، أولئك الذين يمكنهم أن يقولوا (بحق): «إننا نفتخر في الضيقات عالمين أن الضيق ينشئ احتمالاً، والاحتمال اختباراً، والاختبار رجاءً، والرجاء لا يُخْزِي، لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطى لنا.» (رو ٥:٣-٥ ترجمة حرفية من النص)

فمجرد الصمود لمثل هذه الأمور في حد ذاته لا يجدي شيئاً، ولكن تحملها هي نفسها من أجل اسم المسيح ليس فقط بعزم ثابت؛ بل أيضاً بابتهاج. لأن كثيرين من المنحرفين عن الإيمان إذ يَخدعون النفوس تحت ستار المسيحية يتحملون بجَلَدٍ أموراً كثيرة مثل هذه، غير أنهم مستَبْعدون من المكافأة التي من هذا القبيل، فلم يَقُل فقط: «طوبى لِمَنْ يُضطهدون»؛ بل أضاف: «من أجل البر»، «لأن البار بالإيمان يحيا» (حب٤:٢، رو١٧:١). فلا يَعِد إذاً محدثو الشقاقات أنفسهم بأي شيء من هذا الأجر، فعلى نفس القياس حيث لا محبة فلا يمكن أن يكون هناك برٌّ، لأن «المحبة لا تصنع شراً بالقريب» (رو ١٠:١٣). فلو كانوا هم على شيء منها ما كانوا يمزِّقون إرباً جسد المسيح الواحد الذي هو الكنيسة (كو ٢٤:١).

+ ثم إنه يقول: «افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات»: أعتقد أن المقصود بهذا التعبير «في السموات» هو عالم الروح، حيث يقيم البر الأبدي في النفس الروحانية، مقابل عالم المادة والنفس العاصية التي عندما تخطئ يُقال لها: «أنت تراب وإلى تراب تعودين».

عن هذه «السموات» يقول الرسول: «لأن رعويتنا نحن هي في السموات» (في ٣: ٢٠). لذا نجد أن الذين يفرحون بالخيرات الروحية يشعرون بهذا الجزاء منذ الآن (جزئياً)؛ ولكن حينذاك سيكون كاملاً من كل وجه؛ عندما يلبس هذا العالم الفاني عدم الفناء. فهو يقول: «لأنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء الذين كانوا قبلكم». وهنا يستخدم كلمة «اضطهاد» بمفهومها العام مثل ثلب أي إنسان وتشويه سمعته. وهنا أيضاً يشدد عزيمتهم بإعطائهم مثالاً: فمَنْ يتحدثون عن الأمور الحقيقية هم معرَّضون دائماً لأن يعانوا الاضطهاد: إلا أن الأنبياء منذ القديم لم يَثنِ عزمهم في هذا الأمر الخوف من الاضطهاد ولم يمنعهم من أن ينادوا بالحق.

القديس أغسطينوس

أسقف هيبو بشمال أفريقيا

• • •

«أنتم ملح الأرض»

(مت ٥: ١٣)

- الملح لحفظ ما قد انصلح من الفساد.
- الملح لاذع في تعنيف الخطاة وتوبيخ خطاياهم.
- إذا فسد المعلّمون، يداسون من الناس.

+ «أنتم ملح الأرض»: يلمِّح الرب بهذا إلى أهميتهم القصوى للآخرين، وكأنه يقول لهم: «إن قيمتكم الاعتبارية ليست في حياتكم الخاصة منعزلين عن الناس. فها أنا مرسلكم لا إلى مدينة أو إلى عشرة مدن أو عشرين أو إلى أمة بأسرها كما أرسلتُ الأنبياء قديماً؛ بل إلى اليابسة والبحر وكل العالم الذي آل إلى الفساد».

فبقوله: «أنتم ملح الأرض»، يشير بهذا إلى أن الطبيعة البشرية كلها تفقد مذاقها الجيد وتفسد بسبب خطايانا. لأجل هذا تراه يتطلب منهم مثل تلك الفضائل التي تقدم ذكرها كضرورة قصوى لهم، ونافعة أيضاً لعامة الناس لكونهم صاروا قادة روحيين لهم ومثلاً أعلى يُحتذى.

فالوديع والمسالم والرحوم والبار لا يُقْصِر العمل الصالح على نفسه فقط؛ بل يعمل كذلك ما وسعه الجهد على أن تفيض هذه الينابيع الصالحة لمنفعة الآخرين. ثم أيضاً مَنْ هو نقي القلب، وصانع سلام، أو مضطهَد (أو مُطارَد)

من أجل الحق؛ هو أيضاً يضع حياته من أجل الصالح العام. وكأن الرب يقول لهم (لتلاميذه): لا تظنوا أنكم لأجل جهاد هيِّن خرجتم، أو عن أمور بسيطة صرتم مسئولين؛ بل لقد أضحيتم «ملح الأرض».

وماذا يعني بهذا؟ هل سيصلحون ما فسد؟ كلاَّ؛ لأنه لا يمكن إصلاح ما قد تلف برشِّ شيء من الملح عليه. فهذا لم يفعلوه. بل من قد سبقوا وتجددوا بالمسيح، وأُوكِلوا إلى رعايتهم، بعد أن تحرروا من الرائحة الرديئة (الطبيعة القديمة الفاسدة)، هؤلاء كان عليهم أن يصونوهم ويبقوا على استمراريتهم في جدَّة الحياة التي قبلوها من الرب. فتحرير البشر من فساد آثامهم وردُّهم إلى الصلاح كان من عمل المسيح؛ ولكن عدم رجوعهم إليها (أي آثامهم) فكان من مهمة واجتهاد البشر أنفسهم (أي من مهمة الرسل).

أترى كيف يشير الرب تدريجياً إلى سمو مكانتهم حتى عن الأنبياء؟ في دعوته لهم ليكونوا مُعَلِّمين، ليس لفلسطين وحدها بل لكل العالم؛ وليس معلمين بسطاء بل ذوي مهابة وعلى أعلى مستوى أيضاً. فهذا أمر عجيب أنه ليس بالمداهنة والملاطفة؛ بل بقوةٍ أثَّروا فيهم كملح، حتى إنهم صاروا محبوبين ومقبولين لدى الجميع.

وكأن الرب يقول لهم: «لا تندهشوا إذا ما خصصتكم بحديثي دون الآخرين ودفعتكم إلى أعظم المخاطر. فانظروا كم من المدن العديدة والقبائل والشعوب أنا مزمعٌ أن أرسلكم وأقيمكم عليها رعاة. حيث لا أريد أن تكونوا أنتم أنفسكم حكماء؛ بل أيضاً أن تجعلوا الآخرين كذلك. فمثل

أولئك الأشخاص الذين استؤمنوا على خلاص الآخرين هم في حاجة شديدة أن يكونوا على قدرٍ كبيرٍ من الفطنة، وينبغي كذلك أن تكون حياتهم زاخرة بالتقوى حتى يمكنهم أن ينفعوا الآخرين أيضاً (بمثالهم الحي). فما لم تَضْحوا هكذا فلن تكْفُوا حتى لأنفسكم.

لا تضيقوا ذرعاً بكلامي وإن كان يبدو من الصعوبة بمكان. فبينما هو سهل للآخرين الذين فقدوا مذاقهم أن ينصلحوا بواسطتكم، أما أنتم فإذا ما وصلتم إلى هذه الحالة فسوف تُفسِدون مع أنفسكم الآخرين أيضاً. فبمقدار جسامة الأمور التي استؤمنتم عليها، فإنكم بقدر ما تحتاجون إلى اجتهاد أشد».

فلهذا يقول الرب: «ولكن إن فسد الملح فبماذا يُملَّح. لا يصلح بعد لشيء إلا لأن يُطرح خارجاً ويُداس من الناس»، لأن عامة الناس ولو أنهم قد يسقطون مراراً كثيرة، إلا أنهم يمكنهم بسهولة نوال المغفرة. أما المعلّم فإذا ما حدث له هذا، فإنه يُحرَم من كل عفوٍ ويقابَل بأشد عقاب على كل جريرة ارتكبها.

ولئلا يجبنوا ويحجموا عن الانطلاق للكرازة من قوله لهم: «إذا ما عيّروكم وطاردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة»، يصارحهم القول: «ما لم تستعدوا أن تصمدوا أمام كل هذه فقد صار اختياركم عبثاً». فليس من السمعة السيئة ينبغي أن تخافوا؛ بل من أن تكونوا ذوي مظاهر كاذبة تؤدي بكم إلى أن تفسدوا ملوحتكم، وعندئذٍ تُداسون بالأقدام.

أما إذا ما احتملتم كل ما يأتي عليكم بوعي روحي يقظ، وقيل عليكم حينذاك كلام شرير فافرحوا، لأن هذه هي منفعة الملح: أن يكوي الفساد ويجعله لاذعاً. من هذا يأتي بالطبع تعنيف الناس لكم، ولكن لا يقدر أحد أن يضرّكم بأي حال؛ بل يشهد على ثباتكم. ولكن إذا ما تخليتم بعامل الخوف عن رزانتكم اللائقة بكم، فعليكم أن تدفعوا الثمن باهظاً إذ تكونوا سيِّئي السمعة ومحتقرين من الجميع. فهذا هو معنى أن «يُداس من الناس».

القديس يوحنا ذهبي الفم

* * *

- **الرسل ملح الأرض لأنهم حفظوا بتعليمهم الإنجيلي كل مَنْ سمعهم بلا فساد لحياة الخلود.**

+ «أنتم ملح الأرض، فإذا فسد الملح لا يصلح أن يملَّح به». الملح يبث عدم الفساد في المواد التي تُرَش به، فهو خليق بأن يؤثِّر في كل شيء يصل إليه. وحيث أن الرسل هم مبشرون بالأمور السماوية وكزرّاع من عالم الأبدية فإنهم ينشرون بذار الخلود ببثّهم كلمة الإنجيل في كل مكان. لذا استحقوا أن يُدْعَوا ملح الأرض، حافظين بفضل تعليمهم الإنجيلي الجماعات التي بشَّروها لحياة الخلود كما بنوع من التمليح السماوي.

والمعروف أن طبيعة الملح دائماً هي هي لا يمكن أبداً أن تتبدل، ولكن بما أن الإنسان خاضع للتغيير، ولا يمكن أن يكون جديراً بالتطويب إلا إذا ثابر حتى النهاية في كل أعمال الله؛ لذا مَنْ سمَّاهم ملح الأرض دعاهم أن يلبثوا في نعمة القوة التي سلَّمها لهم، خوفاً من أن يمتسخوا فلا يكونوا نافعين لشيء (إلا لأن يُطرحوا خارجاً ويُداسوا من الناس).

القديس هيلاريون أسقف بواتييه

(٣١٥ - ٣٦٧م)

* * *

- **الملح يفقد ملوحته إذا أهمل مهمته في الإصلاح واهتم بالأمور الأرضية. وإذ ينحدر إلى أسفل يُداس من الناس.**
- **ليس الاضطهاد من أجل البر دوس من الناس؛ بل رفعة ومجد.**

+ «أنتم ملح الأرض»: مبيناً بذلك أن تلك الأعضاء التي تبلغ إلى فقدان الطعم (القيمة)، إما بسبب السعي الكدود وراء وفرة الخيرات الأرضية، أو من جراء الفزع من الفاقة؛ إنما تفقد بذلك الأمور الأبدية التي لا يمكن أن تُعْطَى أو أن تُؤخَذ بواسطة الناس.

ولكن إذا ما فَقَد الملح صفته المميزة (ملوحته) فبماذا يُملَّح هو؟ أي إذا كنتم أنتم الذين بواسطتكم تُحفظ الأمم إلى حدٍّ ما (من الفساد)، بعامل

الخوف من الاضطهادات الوقتيـة تفقـدون ملكـوت السـموات، فمـاذا يكـون حال الناس الذين يُبعَدون عن طريق ضلالهم بواسطتكم، لأن الله قد اختاركم ليزيل بكم آثام الآخرين؟ ومن ثمَّ فالملح الذي بلا طعـم (ملوحـة) «لا يصلـح لشيء، إلا لأن يُطرح خارجاً ويُداس من الناس». فليس إذاً الـذي يُـداس مـن الناس هو مَنْ يُقاسي الاضطهادات؛ بل الذي يصـير بـلا ملوحـة. لأنـه واحـدٌ فقـط الـذي يمكـن أن يُـداس مـن النـاس: ذاك الـذي هـو أسـفل (المتعلـق بالأرضيات: الذي يشتهي أو يخاف الأمور الزمنيـة)؛ ولكنـه ليـس أسـفل ذاك الذي مهما عـانى في الجسـد على الأرض مـن أمـور كثـيرة إلا أن قلبـه يظـل راسخاً في السماء.

القديس أغسطينوس



«أنتم نور العالم»

(مت ٥: ١٤-١٦)

- «أنتم نور العالم»: مسئولية تدعونا أن ندقق في جهادنا.
- حتى الذين يشون بكم، سينعمون بهذا النور.
- الهدف النهائي هو أن «يتمجد الآب الذي في السموات».

+ **«أنتم نور العالم»**: الرب هنا يأتي بهم إلى مثال أعلى، فهو يدعوهم هنا أيضاً ليكونوا «نوراً للعالم»، وليس لأمة واحدة ولا لعديد من الدول، ولكن للمسكونة بأسرها.

و«نور» العقل (أي استنارته)، هو أسمى بكثير من أشعة الشمس المنظورة. كما شبههم سابقاً بـ «الملح» الروحي. أما الآن فيدعوهم «نوراً» ليكشف لنا عن مدى عظمة وكمال التخلُّق بهذه المبادئ والنفع الجزيل المتأتِّي من هذا التعليم السامي الضابط للنفس (في طريق الخلاص) والحافظ لها من التردِّي في سبيل الهلاك والموضح الرؤية أمام البشر آتياً بهم إلى الحياة الفُضلى.

«لا يمكن أن تُخفى مدينة موضوعة على جبل ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت مكيال»:

بهذا الكلام هو يقودهم أيضاً إلى التدقيق في الحياة، معلِّماً إياهم أن يكونوا شديدي الحرص في سعيهم كمَنْ وُضِعوا على مرأى من كل الناس. وكأبطال

يتصارعون لأخذ الجعالة في وسط الميدان أمام العالم وكأنه يقول لهم: «لا تنظروا إلى كوننا الآن جالسين هنا في بقعة ضئيلة من أركان الأرض، لأنكم ستكونون هكذا ظاهرين للعيان، لكل الملأ، كمدينة مُقامة على قمة تلٍّ عالٍ، وكسراج في بيت على منارة ينير لكل ساكنيه».

أين هم الآن الذين يصرُّون على عدم الإيمان بسلطان المسيح؟ ليتهم يصغون لهذه الأمور ويمجِّدون قدرته، ويندهشون لهذه الرؤية المسبقة لما هو مزمع أن يكون. فهؤلاء الذين كانوا غير معروفين حتى في موطنهم الخاص سيضحون معروفين في البر والبحر، وسيبلغ صيتهم إلى أقاصي المسكونة، ليس كمجرد شهرة؛ بل بسبب أعمال الخير التي كانوا سيجترحونها. فليس مجرد الاسم هو الذي أذاع صيتهم في كل مكان؛ بل الدليل العملي الذي ظهر من أعمالهم التي كانت واضحة للجميع، وكأن لهم أجنحة تطير بهم أسرع من شعاع الشمس، جعلتهم يجوبون في كل المسكونة ينشرون نور التقوى.

ويبدو لي في قول الرب لهم: «لا يمكن أن تُخفى مدينة مُقامة على جبل»، أنه يشير لهم بهذا إلى قوة الكرازة التي سينادون بها وقواته التي سيعلنها بواسطتهم. فكما أن تلك المدينة لا يمكن أن تُخفى، كذلك من المُحال أن تخفي ما ينادون به في طي الكتمان. ولأنه قد سبق وتكلم عن الاضطهادات والوشايات والمكايد والحروب المزمعة أن تلاقيهم، فحتى لا يظنوا أن هذه الأمور بمقدورها أن تحول دون كرازتهم، ولكي يبعث فيهم روح الشجاعة، نجده يقول: إن هذه (أي حياتهم ومناداتهم بالإنجيل) لا يمكن أن تُخفى بل

ستنير كل العالم، ولهذا ستبلغ شهرتهم الآفاق وسيُذاع صيتهم في كل الأقطار.

بهذا يعلن لهم الرب عن قوته هو التي ستُستعلن للعالم بواسطتهم:

«ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت مكيال؛ بل على منارة ليضيء لكل مَنْ في البيت. فليضئ نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات»:

وكأنه يقول لهم: «من جانبي حقاً قد أشعلت النور، أما دوام إضرامه فمرجعه إلى اجتهادكم، لا من أجل أنفسكم وحدكم؛ بل أيضاً من أجل أولئك الذين يمكنهم أن ينتفعوا بهذا الضوء الذي يهتدون به إلى الحق. لأن الوشايات لن يمكنها أبداً أن تحجب ضياءكم إذا ما برحتم تحيون بالاستقامة، وكما يليق بمَنْ قد وُضع عليهم أن يَهدُوا كل العالم (إلى معرفة الحق)، فقدِّموا حياة جديرة بنعمته؛ حتى كما بُشِّرَ بها في كل مكان، يظل هذا النور نفسه مصاحباً لها على الدوام.

ثم بعد ذلك يضع أمامهم نوعاً آخر من الربح. فبجانب خلاص البشر الذي هو جدير بأن يجعلهم يسعون بكل ما وَسِعَهم الجهد، فهكذا يقول لهم: فليس فقط أنكم تُصلحون من شأن العالم إذا ما عِشتم بالاستقامة؛ بل أيضاً ستعطون فرصة لأن يتمجَّد الله بكم، أما إذا فعلتم ما هو على النقيض من هذا فستكونون سبباً في هلاك البشر وتجعلون اسم الله يُجدَّف عليه بسببكم.

ورُبَّ متسائل: كيف أن الله يمكن أن يتمجَّد بنا حتى ولو يتقاول الناس علينا شراً؟

ولكن ليس كل الناس؛ بل حتى الذين يفعلون هذا بدافع الحسد سوف يُعجبون بكم ويمتدحونكم في قرارة أنفسهم.

فماذا إذاً؟ هل الرب يأمرنا أن نحيا للتفاخر وللمجد الباطل؟ حاشا، فهو لم يقل: «اجتهدوا أن تُروا أعمالكم الصالحة»، ولم يقل: «أَظهِروها»، ولكن قال: «ليضئ نوركم» أي لتنمو فضيلتكم وتتوهج نارها، وينتشر نورها الفائق الوصف. فعندما تتسامى الفضيلة (قوة الحياة المسيحية) لا يمكن أن تظل مخفية حتى ولو حاول الخصم أن يخفت نورها ربوات المرات.

وهكذا إذ قدَّم الرب لهم حياة غير ملومة (بلا عيب) لا يجد فيها العدو فرصة للتقوُّل بالشر عليهم؛ فحتى إذا وُجد آلاف المتكلمين بالسوء، فلن يستطيع إنسان أن يلقي عليكم أي ظل (أي أن يحاول بأي حال أن يطمس نوركم).

+ وحسناً قال: «**نوركم**»: ليس شيء يرفع من شأن الإنسان مثل الفضيلة حتى ولو أراد المرء بكل حيلة أن يخفيها. وكأن صاحبها ملتحف بأشعة الشمس، وهكذا يلمع بنور أكثر بهاءً منها مُشِعًّا على الأرض؛ بل ومرتقياً إلى السماء ذاتها.

القديس يوحنا ذهبي الفم

* * *

- **المكيال هو راحة الجسد والخوف من المعاناة بسبب الكرازة.**
- **هدف الأعمال الصالحة ليس أن يُمتدح صانعوهـا؛ بل أن يمجَّد اسم الله الذي وهبها.**

+ «**أنتم نور العالم**»: يعني نفس الأمر عندما قال سابقاً: «**أنتم ملح الأرض**». وفي الحالة الأولى لا يعني بطبيعة الحال الأرض التي نطأها بأقدامنا الجسدية؛ بل البشر الذين يقطنون على الأرض، وبالأخص الخطاة التائبين الذين من أجل حفظهم وعدم تسرب الفساد إليهم أرسل لهم الرب الملح الرسولي. وبـ «العالم» هنا لا يعني الكون المادي، من أرض وسماء؛ بل البشر الذين يعيشون في العالم، والذين من أجل أن يستنيزوا بعث الرب إليهم الرسل المختارين.

«**لا يمكن أن تُخفى مدينة مُقامة على تلٍّ عالٍ**»:

أي مدينة مؤسسة على البر الفائق الذي هو أيضاً مُعنى بالجبل نفسه الذي من فوقه يتحدث الرب (لتلاميذه): «ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت مكيال»: أي معنى نأخذ به هنا؟ هل يُفهم من التعبير «تحت مكيال» بمجرد إخفاء السراج وكأن الرب يقول: ما مِن أحد يوقد سراجاً ويخبئه؟ أو أن المكيال يعني أيضاً شيئاً ما؟ فقد يكون وضع السراج تحت المكيال هو هذا: أن نضع راحة الجسد فوق المناداة بالحق؛ وبالتالي لا يمكن لأحد أن ينادي بالحق طالما هو خائف من معاناة أي ضيق في الأمور المادية والزمنية؟... فكل مَنْ

يحجب ويخفي نور المعرفة الصالحة بالتنعمات الزمنية فقد وضع السراج تحت المكيال. أما «مَنْ يوقد سراجه ويضعه على منارة»، فهو ذاك الذي يُخضِع جسده لخدمة الرب، ولذا تكون عنده المناداة بالحق هي الأعلى شأناً وخدمة الجسد أدنى اعتباراً؛ بل حتى خدمة الجسد نفسها تصير وسيلة لإشراق نور التعليم بأكثر جلاء، حيث أنه يُلقِّن لأولئك الذين يستلمونه عن طريق أعضاء الجسد مثل الفم واللسان وبقية أعضاء الجسد التي تساهم في الأعمال الصالحة.

فالرسول يضع سراجه على منارة عندما يقول: «هكذا أجاهد لا كأني أُضارب الهواء؛ بل أقمع جسدي وأستعبده حتى بعد ما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضاً» (١كو ٩: ٢٦و٢٧). أما عندما يقول الرب: «**ليضيء لكل مَنْ في البيت**» يبدو لي أنه يعني بـ «البيت»: المسكونة نفسها، حيث يقيم الناس (المنتفعون بالنور) إذ يقول: «أنتم نور العالم»، أو يمكن أن يُفهم بـ «البيت»، إذا أردتم، الكنيسة، وهذا أيضاً ليس خارجاً عن مضمون الكلام.

+ يقول الرب: «**فليضيء نوركم هكذا قدام الناس، لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجِّدوا أباكم الذي في السموات**»:

لو أنه قال فقط: «ليضيء نوركم قدام الناس، لكي يروا أعمالكم الحسنة» لكان يبدو أنه يضع مديح الناس كغاية... ولكنه أضاف: «**ويمجدوا أباكم الذي في السموات**»... لأنه من اللائق أن يُقدَّم الحمد والإكرام والتمجيد لا

للإنسان؛ بل لله (الذي هو مصدر كل عمل صالح)، كما أرانا الرب في حالة المفلوج الذي قدموه إليه، إذ حالما رأى الجموع أنه قد شُفي تعجبوا ومجَّدوا ا لله الذي أعطى الناس سلطاناً مثل هذا (مت ٩). والرسول المتمثل بالرب يقول: «غير أنهم كانوا يسمعون أن الذي كان يضطهدنا قبلاً يبشر الآن بالإيمان الذي كان قبلاً يتلفه، فكانوا يمجِّدون الله فيَّ.» (غل ١: ٢٣و٢٤)

وبعد أن نبَّه الرب مستمعيه أنهم ينبغي أن يعدُّوا أنفسهم لتحمُّل كل شيء في سبيل الحق والبر، وأنهم لا ينبغي أن يخفوا المواهب الصالحة التي كانوا مزمعين أن ينالوها؛ بل عليهم أن يعرفوا تماماً أن يعلِّموها بنفس السهولة التي تلقّنوها بها، هادفين في أعمال الخير التي يؤدونها لا أن يُمتَدحوا هم أنفسهم؛ بل أن يُعطَى المجد لله من الذين يرون هذه الأعمال. إن الرب يبدأ الآن بأن يخبرهم ويُعلِّمهم ما الذي يجب أن يفعلوه ويعلِّموا به؛ وكأنهم كانوا يسألونه: ها نحن الآن مستعدون أن نتحمل كل شيء من أجل اسمك، وألاَّ نخفي نور تعليمك؛ ولكن ما هو، على وجه التحديد، الذي تمنعنا أن نخفيه، والذي من أجله توصينا أن نتحمل كل شيء؟ هل أنت مزمع أن تأتينا بأمور أخرى مناقضة لتلك التي كُتِبَت في الناموس؟ فيقول لهم: «كلا، لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأُكمِّل».

القديس أغسطينوس

* * *

- جسد المسيح ونحن أعضاؤه، يكوِّن المدينة القائمة على الجبل.
- خشبة الصليب هي المنارة التي من فوقها أضاء المسيح بنوره الأبدي على الكنيسة، والكنيسة على العالم.

«أنتم نور العالم»:

من طبيعة النور أن يشع بضيائه أينما كان، فإذا ما حلَّ وانتشر في منزل، ففي الحال يتبدد الظلام بحيث يسود الضوء تماماً. كذلك العالم القابع بعيداً عن معرفة الله تخيم عليه ظلمات الجهل. وبواسطة الرسل أشرق عليهم نور الحق وأنارت لهم معرفة الله، بالرغم من ضآلة شخصياتهم المتواضعة جداً، ولكن أينما حلُّوا حملوا معهم النور القاهر للظلمات.

«لا يمكن أن تُخفى مدينة قائمة على جبل، ولا يوقد مصباح ليوضع تحت مكيال»:

يمكن أن يُشبَّه الجسد الذي اتخذه الرب بالمدينة، حيث أن المدينة تحوي داخلها عدداً كبيراً من السكان المختلفي الطباع والأجناس، كذلك طبيعة الجسد الذي اتخذه الرب تشمل بنوع ما كل الجنس البشري، وهكذا باتحادنا فيه نكوِّن ما يشبه المدينة، وباتحادنا بجسده نصبح أعضاء مقيمين فيها. إذاً فلن يمكن أن نكون مخفيين، حيث أن هذه المدينة مُقامة على قمة جبل الله (صخر الدهور)، وأعماله العجيبة المبهرة ستصير واضحة ومرئية للجميع.

+ أما قوله: **«لا يوقَد سراج ليوضع تحت مكيال؛ بـل علـى منـارة...»**، فإن النور الحقيقي هو المسيح نفسه الذي كـان لا يمكـن أن يظـل نـوره مخفيـاً تحت غطاء المجمع اليهودي (في أوساط محدودة ومخفية)؛ بل كان لابد أن يُعلَّق علـى خشـبة الآلام، منـارة الصليـب ليضـيء بنـوره الأبـدي علـى الكنيسـة، والكنيسة بدورها تنير على العالم كله.

القديس هيلاريون أسقف بواتييه



«ما جئت لأنقض بل لأكمِّل»

«لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمِّل»
«فإني أقول لكم إنكم إن لم يزد برُّكم على الكتبة والفريسيين،
لن تدخلوا ملكوت السموات»
(مت ٥: ١٧و٢٠)

«ما جئت لأنقض بل لأكمِّل»:

+ رُبَّ سائل يقول: كيف نذلل على أن الرب لم ينقض الناموس فعلاً؟ وما البرهان على أنه بالأحرى أكمل كلاً من الناموس والأنبياء؟

+ لقد أكمل الرب الأنبياء بقدر ما أتم من أعمال أيدت كل ما قيل عنه (بالأنبياء)، حيث اعتاد الإنجيلي أن يقول في كل ما يجري (بواسطة الرب من أعمال أو أقوال): «لكي يتم ما قيل بالأنبياء». وذلك عندما وُلِدَ (مت ١: ٢٢و٢٣)؛ وعندما هتف له الأطفال بالأنشودة العجيبة عندما جلس على الأتان (مت ٢١: ٥-١٦)؛ وفي مناسبات كثيرة قد حقق هذا التكميل لتلك الأمور (التي سبق التنبؤ بها عنه)، والتي لم تكن لتتم كلها لو لم يأتِ في الجسد.

+ أما الناموس فقد أكمله بطرق متعددة: أولها: أنه لم يتعدَّ أية فريضة في الناموس؛ بل قد أكمله كله. اسمع ماذا يقول المسيح ليوحنا المعمدان: «لأنه

هكذا يليق بنا أن نُكمِّل كل بر» (مت ٣:١٥)؛ ولليهود قال أيضاً: «مَنْ منكم يبكّتني على خطية» (يو ٨:٤٦)؛ ولتلاميذه أيضاً يقول: «رئيس هذا العالم يأتي، ولكن ليس له فيَّ شيء» (يو ١٤:٣٠)؛ والنبي منذ القديم أيضاً قال عنه: «إنه لم يعمل خطية.» (إش ٥٣:٩)

+ فهذا أحد المعاني الذي يشرح كيف أنه أكمل الناموس.

+ وهناك أيضاً معنى آخر: ذلك أنه أتمَّ الناموس فينا، وهذا هو العجب، في أنه ليس هو نفسه فقط الذي أكمله؛ بل إنه منح لنا هذا بالمثل، هذا الأمر الذي يعلن عنه بولس الرسول قائلاً: «لأن غاية الناموس هي المسيح للبرِّ لكل مَنْ يؤمن» (رو ١٠:٤). وقال أيضاً: «إنه قد دان الخطية في الجسد حتى يتم فينا برُّ الناموس نحن الذين لا نسلك بحسب الجسد» (رو ٨:٣و٤ - ترجمة حرفية بحسب النص)؛ ويقول أيضاً: «أفنبطل الناموس بالإيمان؟ حاشا! بل نُثبِّت الناموس» (رو ٣:٣١). لأن الناموس كان يهدف إلى هذا: أن يجعل الإنسان باراً، ولما لم تكن له القدرة على ذلك، جاءنا الرب بالبر عن طريق الإيمان، وهكذا أقام ما كان يرمي إليه الناموس، والذي لم يمكن لناموس الحرف أن يعمله، هذا أكمله بالإيمان. وبهذا الاعتبار يقول: «ما جئتُ لأنقض الناموس».

+ ولكن إذا سأل واحد ما بأكثر إمعان، فسيجد معنىً آخر في هذا السياق لقول الرب: «ما جئت لأنقض بل لأكمِّل». فما فحواه؟ وما هو

المعنى الذي يتضمنه دستور الشريعة العتيدة (أي المسيحية) الذي كان مزمعاً أن يسلمه لتلاميذه؟

+ لأن أقواله لم تكن نقضاً لسابقتها؛ بل امتداداً بها إلى حد الكمال. فمثلاً وصية «لا تقتل» لم تُنْقَض بقوله: «لا تغضبْ»؛ بل بالحري أُكملت، إذ وُضعت في صيغة أكثر أمناً. وهكذا الوضع في كل الوصايا الأخرى.

+ لذلك ترون أنه كما سبق فرمى بذار التعليم دون ما ريب، حتى إذا ما جاء الوقت الذي فيه يقارن بين الوصايا القديمة والجديدة، ويتعرض للشبهة أكثر في وضعه إياها مقابل بعضها، سبق أيضاً فوضع النتيجة النهائية (للوصية القديمة بعد تعديلها أي تكميلها بالجديدة). فالرب في الواقع قد تقدَّم ونشر تلك التعاليم بطريقة خفية.

+ فمثلاً عندما قال: «طوبى للمساكين» كانت هي نفسها (ولكن بصورة أخرى) عندما طلب منّا ألا نغضب؛ و«طوبى للنقية قلوبهم» هي مثل ألا ينظر المرء «إلى امرأة ليشتهيها»؛ ووصية ألا «نضع كنوزنا في الأرض» تتوافق مع: «طوبى للرحماء»؛ وكذلك إعطاؤه الطوبى «للحزانى» و«للمضطهَدين» و«للمعيَّرين»، يتفق مع «الدخول من الباب الضيق»؛ و«الجوع» و«العطش» من أجل البر ليس شيئاً آخر سوى ما قاله (الرب) بعد ذلك: «كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوه أنتم أيضاً بهم.» (مت ٧:١٢)

وعندما أعلن الرب «طوبى لصانعي السلام» كان أيضاً تقريباً يعني نفس الشيء عندما أوصى أن «يترك (المصلّي) قربانه»، ويبادر بالمصالحة مع مَنْ تكدر منه، وأن نسعى أن نكون «على وفاق مع خصمنا».

+ وإذا كان هو هناك (في بدء العظة) قد بدأ بوضع الثواب لِمَنْ يعملون الصلاح؛ فإنه هنا يشير إلى عقاب مَنْ لا يبالون ويحجمون عن السلوك (السوي). فكما قال في ذلك الموضع «الودعاء سيرثون الأرض»، كذلك هنا قال: «مَنْ قال لأخيه يا أحمق يكون مستوجباً نار جهنم». وهناك قال: «أنقياء القلب سيعاينون الله»، وهنا يُعتبر مَنْ ينظر بغير عفة أنه زانٍ بالفعل. هناك قد دعا صانعي السلام «أبناء الله»؛ هنا ينبهنا من جهة أخرى قائلاً: «لئلا يسلّمك الخصم إلى الحاكم».

+ وهكذا أيضاً بينما في الكلام السابق نجده يطوّب النائحين والمضطهَدين؛ نراه في القول التالي يؤكد على نفس الموضوع عندما يهدد بالهلاك أولئك الذين لا يسلكون في ذلك الطريق (الضيق)؛ بل «يسيرون في الطريق الواسع»، حيث يلاقون هناك نهايتهم.

وعندما يقول الرب: «لا تقدرون أن تخدموا الله والمال»، يبدو أنه يؤكد على نفس المعنى في قوله السابق: «طوبى للرحماء»، و«طوبى للعطاش من أجل البر».

«فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل»:

+ وهنا كأنه يقول هكذا: لا يمكن أن يبقى شيء ما (من الناموس) غير مكمَّل؛ بل وأصغر شيء فيه لابد أن يتم. وهذا ما وفّاه هو نفسه وأكمله بكل دِقة. وهنا أيضاً يشير بطريقة خفية إلى أن هيئة العالم كله أيضاً ستتغير، ولكنه يقول هذا ليس كمجرد تقرير حقيقة؛ بل لِيُنهض همة سامعيه وينبِّههم إلى أنه ليس بدون باعث قوي هو مقدمٌ على افتتاح تشريع نظام آخر (عهد جديد) ما دام حتى نظام الكون نفسه سيتغير، والبشرية مدعوة إلى موطنٍ آخر لتمارس فيه حياة أسمى وأكمل.

القديس يوحنا ذهبي الفم

❖ ❖ ❖

«لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمِّل»:

+ الأقوال الإلهية دائماً تتضمن معاني جليلة القدر، ولها سلطان وقدرة ذاتية نافذة المفعول. فالناموس قد وُضِعَ لأجل الممارسات العملية (ليعدَّنا) للإيمان الشامل بالاستعلانات التي ستتم في المسيح (غل ٣:٢٣)، الذي تعليمه وآلامه يترسمان تدبيراً إلهياً عالياً، ويحققان المشيئة الفائقة العمق التي للآب (أف ١:٥). فالناموس قد تكلَّم، في سرٍّ، في ثنايا أقوال روحية، عن ميلاد مخلِّصنا يسوع المسيح، وتجسده، وآلامه، وقيامته؛ وما تحدد منذ الأزل قد تضامن الأنبياء والرسل على ترديد إعلانه بأنه قد تمَّ في زماننا هذا (المسيَّاني). وهكذا

بعد أن صام الرب أربعين يوماً تقدَّم الشيطان مضطرباً مما ارتاب فيه بشدة وتجاسر على تجربة يسوع، فزعاً من عظمة سر التدبير الإلهي الذي كان يراه فيه. أما «يسوع» (ومعناه «الله يُخلِّص» أو «الله صار خلاصاً»)، فهو اسم مخلِّصنا الذي دُعي به عندما جاء في الجسد.

+ إذاً، فتجسده وآلامه قد صارا تتميماً لمشيئة الله، وخلاصاً للعالم. وهذا أمر يعلو على المنطق البشري أنَّ الإله يولد من الإله، والابن يستمد وجوده من جوهر الآب ويظل كائناً في جوهر الآب. يتجسد، ويخضع للموت بحس بشريته، وأخيراً بعد ثلاثة أيام يعود من الموت إلى الحياة، ويرجع إلى السماء بالجسد الهيولي الذي اتخذه، جاعلاً إياه مشاركاً في أبدية الروح وطبيعته الإلهية (٢بط ١:٤).

+ ولكن لا يظن أحد أن شيئاً من أعماله كان يغاير ما يتضمنه الناموس، أعلن الرب أنه ما جاء ليبطل الناموس؛ بل ليكمِّله، فالسماء (أي الأجرام السماوية) والأرض هما أعظم العناصر التي نتيقن من وجودهما، هاتان لابد أن تفنيا وتزولا، ولكن أصغر وصايا الناموس لا يمكن أن تبطل لأن فيها وبها يكمل كل الناموس والأنبياء (مت ٥:١٧و١٨). فحتى في وقت الآلام، وفي اللحظة التي كان عتيداً أن يُسلِّم فيها الروح، وهو عالم بعظمة السر الذي هو فيه، شرب خلاً، ثم أعلن أن كل شيء قد أُكمل (يو ١٩:٢٨-٣٠).

+ فكل ما أنبأ به الأنبياء من أقوال قد تحقق وتثبت فعلاً بالأعمال. وهكذا أثبت الرب أنه لا ينبغي أن نتعدى أية وصية مهما صغرت، وإلا نُعَدُّ مذنبين في حق الله.

القديس هيلاريون أسقف بواتييه

□ □ □

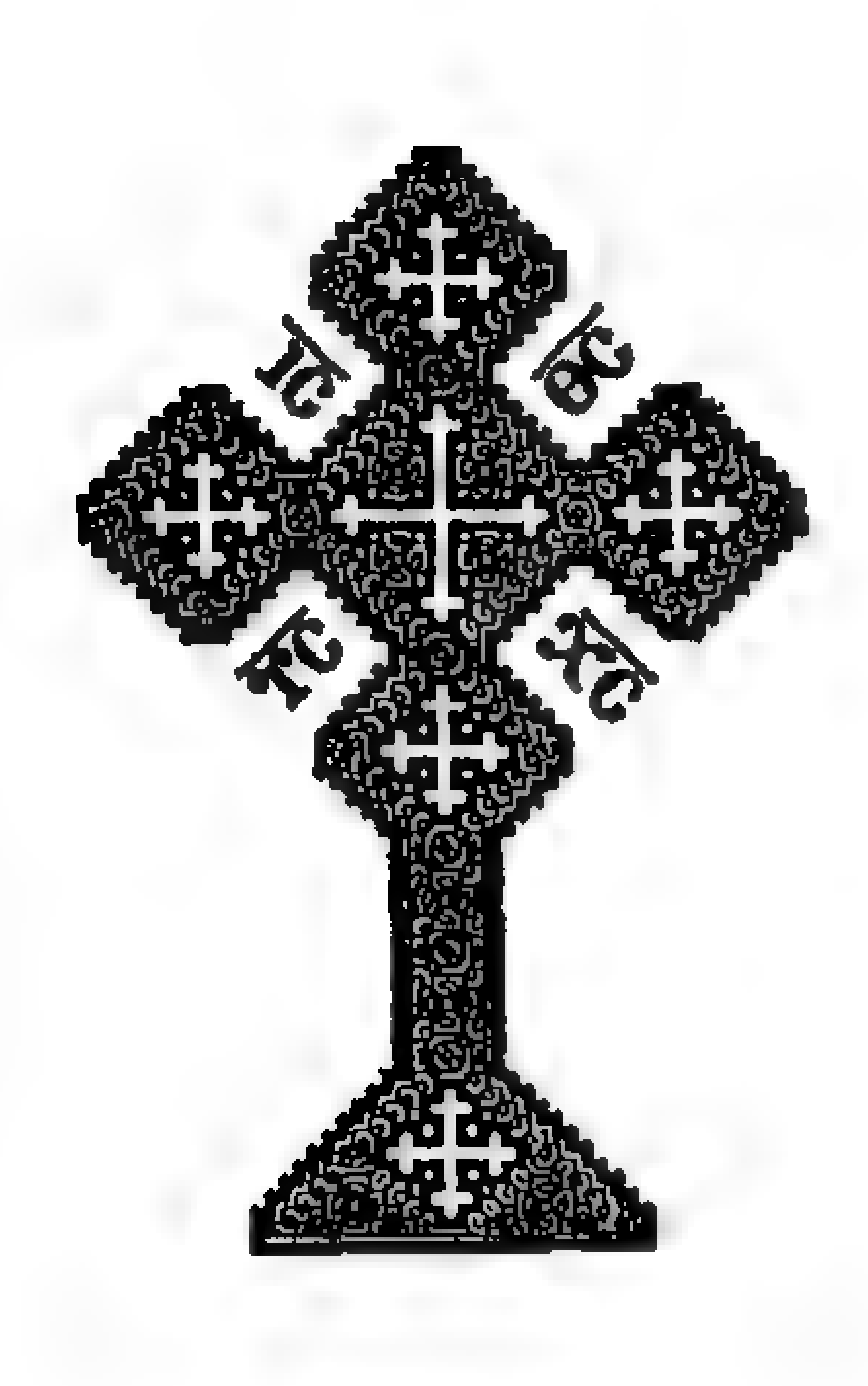
«فإني أقول لكم: إن لم يَزِدْ برُّكم على الكتبة والفريسيين، لن تدخلوا ملكوت السموات»:

+ أي ما لم تتمموا، ليس وصايا الناموس الصغرى التي وُضعت للإنسان كبداية؛ بل وأيضاً هذه التي أضَفْتُها أنا الذي أتيتُ لا لأهدم الناموس؛ بل لأُكمِّله، فلن تدخلوا ملكوت السموات...

+ برُّ الفريسيين هو: «ألا يقتلوا»؛ أما برُّ الذين خُصِّصوا للدخول إلى ملكوت الله فهو: ألا يغضبوا باطلاً. فالوصية الصغرى هنا للإنسان هي «ألا يقتل»، ومَنْ ينقض هذا فسيُدعى الأصغر في ملكوت السموات؛ ولكن مَنْ يتمم وصية «لا تقتل» فليس من الضروري أن يكون عظيماً ومستحقاً لملكوت السموات، إلا أنه قد ارتقى درجة ما في طريق البر، وسوف يسير في طريق الكمال إن هو استطاع ألا يغضب على أخيه باطلاً (أي بدون علّة تستوجب ذلك أو مِن أجل أمور مادية باطلة)، وإذا فعل هذا فسوف يبتعد كثيراً عن علّة القتل.

+ وبناء على هذا، فإن مَنْ يُعلّمنا ألا نغضب لا يمكن أن ينقض ناموس «لا تقتل»، بل بالحري يكمّله. لذلك نحن نحفظ براءتنا: من الخارج إن لم نقتل، ومن الداخل في القلب إن كنا لا نغضب.

القديس أغسطينوس



برُّ الحياة الجديدة

(مت ٥: ٢٠-٢٦)

- الشرائع تترقى من حسن إلى أحسن.
- وشريعة العهد الجديد ستخلي مكانها لشريعة الدهر الآتي (ملكوت السموات).

«فإني أقول لكم: إن لم يَزِدْ برُّكم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات.» (مت٥: ٢٠)

الرب يعني بالبر هنا صلاحية الحياة بصفة عامة كما كان يتحدث عن أيوب قائلاً: «وكان بلا لوم وباراً» (أي ١: ١ حسب السبعينية). بهذا المعنى نفسه يدعو الرسول بولس ذاك الإنسان الذي لا يحتاج إلى ناموس «باراً» في قوله: «إن الناموس لم يوضع للبار» (١تي ١: ٩). وفي مواضع كثيرة أيضاً نجد أن هذه التسمية يُقصد بها الحياة الفاضلة بصفة عامة.

ولكن تأمل معي مدى ازدياد النعمة؛ كيف أنه يريد لتلاميذه الحديثين أن يكونوا أفضل من كبار المعلمين في العهد القديم. لأنه عَنِيَ هنا بالكتبة والفريسيين لا أُناساً غير ملتزمين؛ بل أُناساً مدققين في ممارسة الفضيلة وعمل الخير. لأنهم لو لم يكونوا فاعلي خير لما نَسَبَ لهم «البر»؛ ولا قارن بين ما هو باطل وما هو حقيقي.

ثم لاحظ هنا أيضاً كيف أنه يمتدح الشريعة القديمة، بعمل مقارنة بينها وبين الجديدة؛ لأن المقابلة بين الأزيد والأنقص (في قوله: إن لم يَزِدْ برُّكم...) لا تكون إلا في نفس النوعية الواحدة. فهو، كما ترى، لا يجد عيباً في الشرع القديم، ولكن يريده أكثر دِقَّة وتدقيقاً؛ ولو أنها كانت فاسدة لما طلب منها المزيد، ولما أرادها أكثر كمالاً؛ بل لكان قد نبذها...

ثم أن كَوْن الناموس القديم أنقص من الناموس الحديث، فهذا لا يعيبه؛ لأنه على نفس هذا القياس سيكون هذا الشرع الحديث نفسه، فهو أيضاً أنقص مما هو آتٍ، لأنه حتى معرفتنا هذه بمبادئ العهد الجديد إذا قورنت بالأمور الآتية، فهي إلى حدٍّ ما جزئية وناقصة، وستبطل عندما تأتي تلك الأخرى. فكما يقول الرسول: «ولكن متى جاء الكامل فحينئذٍ يُبْطَل ما هو بعض (أي الجزئي)» (١كو ١٣: ١٠)، تماماً كما حدث للشرع القديم عندما حلَّ مكانه الحديث، فنحن لا نُنقص من شأن الحديث رغم أن الشرع الحديث هو أيضاً سيُخلي مكانه عندما نفوز بالملكوت لأنه يقول: «حينئذٍ سيبطل ما هو بعض»...

إن الثواب المُعدّ لمَنْ يسلك بحسب الناموس الجديد، هو أعظم بما لا يُقاس، والقوة المعطاة من الروح القدس هي أكثر فيضاً، بقدر ما أن النعم التي سننالها هي أيضاً أسمى قدراً من تلك التي كانت في الناموس القديم. فهي ليست بعد أرضاً تفيض لبناً وعسلاً، أو عمراً هنيئاً مديداً، أو كثرة بنين، وقمحاً وخمراً وقطعان غنم وماشية؛ بل هي ملكوت السموات وخيرات سماوية، وبنوّة

وأُخُوَّة مع الابن الوحيد، وشركة في الميراث، والمجد، والمُلْك معه في تلك النِعم التي لا تُحصى.

أما من جهة نوالنا فيضان النعمة بصورة أقوى في العهد الجديد، فاستمع إلى الرسول بولس فيما يقول: «إذاً لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع، السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح (القدس)؛ لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت.» (رو ٨: ١و٢)

القديس يوحنا ذهبي الفم

* * *

- **الله لا يحتمل أن ترتفع إليه صلاة، ليس بها روح المسالمة للجميع.**

«فإني أقول لكم إن لم يَزِدْ برُّكم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات.» (مت ٥: ٢٠)

إن الرب بإعلانه أن الدخول إلى السماء سيعطَى للرسل بشرط أن يزيد برُّهم عن الفريسيين، إنما يقدِّم بذلك بجلاء مبدأ الارتقاء فوق أعمال الناموس ارتقاءً لا يلغي الناموس؛ بل يُعتبر تفوقاً عليه بمعنى الاستزادة والتحسين.

فهو فيما يلي سيعرض منهج الارتقاء بأحكام الناموس عن طريق التفوق وليس عن طريق الإلغاء.

+ إن الناموس قد نهى عن القتل وبحكم صارم كان يعاقب جريمة قتل إنسان، وأما بحسب الأناجيل فأي شعور رديء يتحرك داخلنا ضد الآخرين، إنما يُجازَى بنفس العقوبة. وبحسب وصية الإيمان فأي غضب يستسلم له الإنسان بدون وجه حق لا تكون عقوبته أقل من عقوبة القتل بحسب أعمال الناموس.

«ومَنْ قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع»:

«رقا» شتيمة تعني "يا فارغ". فالذي يشتم أحداً مملوءاً من الروح القدس ويتهمه بأنه فارغ، يصير بذلك مستوجباً لمجمع القديسين، لأن الإهانة التي صدرت منه ضد الروح القدس يجب أن يُعاقب عليها بدينونة القديسين له.

«ومَنْ قال يا أحمق يكون مستوجباً لنار جهنم»:

إنه إثم عظيم أن نهين إنساناً قد دعاه الله مِلْحاً ونقول له على سبيل الإهانة إنه قد فقد الحس، ونعتدي على العقل الذي يملّح الأشياء الجاهلة بأن نعتبره عقلاً أحمق على سبيل الإهانة.

فهذه الأمور هي التي تجعل النار الأبدية تضطرم.

وهكذا نرى أن الأمور التي لم يُعاقب عليها الناموس القديم، لأنها لم تصل إلى مستوى الفعل، يدينها الإيمان الذي في الناموس الجديد، أي الإنجيل، حتى ولو لم يصل بها الإنسان إلا إلى الخطأ بالكلام فقط.

+ وهكذا قد ربط الرب البشر بعضهم ببعض بالمحبة المتبادلة؛ وهو لا يحتمل أن ترتفع نحوه صلاة ليس بها روح المسالمة للجميع. بل يريد ممَّن يقدم

قربانه على المذبح ويتذكر أن بينه وبين الآخرين خصومة، أن يتصالح أولاً معهم بالسلام البشري قبل أن يعود إلى السلام الإلهي، وذلك حتى يمكنه أن يرتقي من محبة البشر إلى محبة الله.

القديس هيلاريون أسقف بواتييه

* * *

• **كلمة الله هي خصمنا، إن أخطأنا إليها.**

«كُنْ مراضياً لخصمك سريعاً ما دمت معه في الطريق...» (ع ٢٥):

مَنْ هو هذا الخصم؟ لو كان هو الشيطان، فنحن قد أُنقذنا منه بالفعل؛ وما أبهظ الثمن الذي دُفع لأجلنا حتى نُفتدى من الشيطان! يقول عنه الرسول: «الذي أنقذنا من سلطان الظلمة، ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته» (كو ١٣:١). وإن كنا قد افتُدينا من الشيطان وجحدناه، فكيف يقول الرب: «ابذل الجهد وأنت معه في الطريق لتتخلص منه» (لو ٥٨:١٢). وذلك حتى لا يجعلنا أسرى له كخطاة مرة أخرى؟

ولكن هذا ليس هو الخصم الذي يحذرنا منه الرب. فإذا قارنّا قول الرب في إنجيل لوقا: «ابذل الجهد... لتتخلص منه» مع قوله في إنجيل متى: «كُنْ مراضياً لخصمك سريعاً...»، فسنفهم بسهولة مَنْ هو هذا العدو أو الخصم... إنك لن تتمكن من أن «تتخلص منه» إلا إذا صرت «مراضياً له». هل تريد أن تتخلص منه؟ كُنْ موافقاً له...

لنسعَ إذاً أن نعرف مَنْ هو هذا «الخصم» الذي علينا أن نرضيه حتى لا يسلمنا إلى الحاكم... لنبحث عنه ونرضيه. إنها كلمة الله (الوصية) التي – إذا أخطأنا إليها – تصبح هي خصماً لنا.

... وفي أية خطيةٍ كانت عندما يفعل الإنسان ما تمليه عليه إرادته الخاصة، تقول له الكلمة لا تفعل هذا أو ذاك. فهي تظل خصماً لإرادتك حتى تكمل خلاصك. فيا لها من «خصم» فاضل ونافع! فهي لا تسعى لما يرضينا؛ بل لما يؤول إلى منفعتنا. إنها «خصمنا» طالما نحن خصوم لأنفسنا. فطالما أنت عدو لنفسك، فكلمة الله هي عدوك؛ فكن ودوداً لنفسك لتصبح على وفاق معها...

«ما دمت معه في الطريق»:

«الطريق» هو هذه الحياة؛ فإذا ما كنّا على وفاق مع «خصمنا»، وكنّا على وفاق معه حتى نهاية الطريق، فلن نخشى «القاضي» أو «الشرطي» أو «السجن»... سنوننا تأتي لتمضي فهي تعبر بنا سريعاً، فهي لا تأتي لتظل معنا؛ بل في عبورها من خلالنا تُبلي قوانا وتضعفنا شيئاً فشيئاً. هذا هو «الطريق» الذي نعبر فيه. فماذا يا تُرى سنعمل مع ذاك «الخصم»، أي مع كلمة الله؟ لنكن على وفاق معها لأننا لا نعرف متى سينتهي الطريق. ففي نهاية المسيرة هناك ينتظرنا «القاضي» و«الشرطي» و«السجن». ولكن إذا ما بقيت على ولائك «لخصمك»، وعلى وفاق تام معه؛ فبدلاً من «قاضٍ» ستجد أباً، وبدلاً من «شرطي» قاسٍ ستجد ملاكاً يحملك إلى حضن إبراهيم؛

وبدلاً من «سجن» ستجد فردوساً. فسرعان ما يمكنك أن تغيِّر كل ما «في الطريق» ما دمت «مراضياً لخصمك».

القديس أغسطينوس



طهارة السيرة ونقاء السريرة

(مت ٥: ٢٧-٣٢)

● **المسيح يحذّر من الفعل الإرادي بقصد الشهوة، وليس من الفعل الغريزي في حد ذاته.**

الرب يبدأ (ناموس العهد الجديد) بالتنبيه على أكثر الانفعالات سيادة على جنسنا البشري، أعني: الغضب وشهوة الجسد (لأنهما أشد تأثيراً على حياتنا الداخلية وأكثر ارتباطاً بصميم حياتنا الطبيعية)؛ فهو كمشرِّع وصاحب سلطة عليا قد هذّبهما ورتبهما بغاية الدقة. فليس الزاني فقط هو الذي ينبغي أن يُعاقَب؛ ولكن كما كان موقف الرب تجاه القاتل، هكذا يفعل هنا أيضاً، فهو يحكم بالقصاص حتى على مجرد النظرة غير العفيفة، ليعلّمنا عمّا ينبغي أن نتفوق فيه على الكتبة المدققين في حفظ الناموس. وبناءً على ذلك يقول:
«مَنْ ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه»:
أي مَنْ يجعل همَّه الشاغل هو السعي وراء رؤية الأشكال الجميلة والتطلّع إلى أصحاب الملامح الحسنة ملذِّذاً نفسه بالتفرُّس في حُسن الوجوه.
لأنه قد جاء ليحرر من كل الأعمال الشريرة، ليس فقط الجسد؛ بل أيضاً النفس، وقبل الجسد. ولأننا نتقبل نعمة الروح القدس في القلب، لذا وجب

أن ينقيه أولاً. ورُبَّ سائل يقول: «وكيف يكون في الإمكان التحرر من الشهوة»؟ أُجيب: إذا عقدنا النية على ذلك أولاً، أمكن لهذه أن تنطفئ جذوتها وتظل غير فعَّالة.

ثم أن الرب هنا لم يُحرِّم الشهوة بصفة عامة؛ بل تلك الشهوة التي تنشأ في البشر من الرؤية الحسية المقصودة والمنحصرة، لأن الشغوف بالتطلُّع إلى الوجوه الحسنة هو المسئول الأول بصفة خاصة عن إشعال أتون هذا الهوى الحسِّي الجامح، وبهذا فهو يكبِّل ذاته فيجد نفسه منساقاً إلى الفعل.

وهكذا نرى لماذا لم يقل الرب: «مَنْ يشتهي...»؛ بل: «مَنْ نظر ليشتهي»، أي أن الرب يحذِّر من الفعل الإرادي (النظر)، وليس من الحركة الغريزية (الشهوة).

وفي حالة **الغضب** وضع حدًّا معيناً فقال: «دون وجه حق» أو «باطلاً». ولكن هنا ليس الأمر كذلك؛ بل قد استبعد الشهوة مرة واحدة بلا تخصيص. ولكن يقيناً أن كلاهما قد غُرِسا في طبيعتنا أساساً؛ وكلاهما قد وُضِعا فينا لمنفعتنا، فكلا الغضب والشهوة، أحدهما لتعنيف الشر واستئصاله، ولتقويم مَنْ يسلكون باعوجاج؛ والأخرى لإنجاب البنين، ولكي يمتد النسل بالتعاقب.

فلماذا، إذاً، لم يخصص هنا أيضاً؟ لو انتبهنا هنا لرأينا تمييزاً شديداً في مضمون الكلام، فهو لم يقل: «مَنْ يشتهي» لأنه من الممكن للإنسان أن يشتهي حتى ولو قطن أعالي الجبال؛ ولكنه يقول: «مَنْ ينظر ليشتهي»؛ أي مَنْ يستجلب الشهوة لنفسه، والذي دون أن يضطره شيء يسمح للوحش

الضاري أن يهاجم أفكاره الساكنة الهادئة. فهذا لا يتأتى بتاتاً من الطبيعة؛ بل من التساهل مع النفس. وهذا ما يصححه الكتاب المقدس منذ البداية قائلاً: «لا تتفرَّس في حُسن الآخرين» (يشوع بن سيراخ ٩:٨)؛ وحتى لا يقول أحد: «وماذا لو تفرَّستُ (في حُسن الآخرين) دون أن أقع أسيراً»؟ فإن الرب يحذِّر من النظرة ويدينها خشية أن نرتكن على هذه الطمأنينة وقتاً ما فنقع في فخاخ الخطية.

ورُبَّ آخر يقول: «وماذا لو نظرتُ واشتهيتُ، ولكن لم أبلغ إلى حدٍّ فعل الشر»؟ ومع هذا فأنت تُعَدُّ من الفاسقين، لأن المشرِّع الإلهي هو الذي نطق بهذا، فلا جدال في هذا الحكم. لأنك في النظر مرة ومرتين وثلاثاً قد تكون لك القوة في أن تتحكم في نفسك؛ ولكن إذا اعتدتَ هذا وداومت، فإنك تزيد من اشتعال الأتون ولابد أنك ستقع أسيراً رغماً عنك، فأنت لستَ من طبيعة تفوق بقية البشر.

وكما أننا إذا ما رأينا طفلاً ممسكاً بسكين، وحتى لو كان لا يؤذي بها أحداً، ولكننا مع هذا ننتهره ونحرمه من أن يمسكها بتاتاً؛ كذلك الله بالمثل يُحرِّم علينا مجرد النظرة غير المتعففة، حتى ولو لم تكن هنا خطية بالفعل، حتى يُجنِّبك خطر الوقوع الذي قد تتعرض له في أي وقت كان. لأن مَنْ اشتعل بأتون الشهوة مرة، فحتى إذا غابت عنه الوجوه التي تفرَّس فيها واشتهاها، فلن يكف عن أن يكوِّن لنفسه في خياله صوراً عنها لأمور معيبة، وغالباً ما

يندفع منها إلى الانزلاق في الفعل. لذا يريد الرب أن يجنّبنا حتى هذا الانطباع الداخلي المتولّد في القلب.

لأنه، في الحقيقة، جسيمٌ هو الصراع الذي ينشأ من النظر والاشتهاء دون امتلاك الشيء المولَع به. واللذّة التي نجتنيها من الرؤية لا توازي الضرر الذي نعانيه والذي ينجم عن امتداد أثر هذه الشهوة الرديئة العابرة؛ التي من شأنها أن تقوّي خصمنا وتعطي مجالاً أكثر للعدو؛ فلا نعود قادرين على صدّه، لأننا أدخلناه بأنفسنا إلى أعماقنا وتركنا له باب الذهن مفتوحاً على مصراعيه.

+ من أجل ذلك يقول الرب: «لا تزنِ بعينيك وحينئذ فلن تزني بذهنك» (مضمون الوصية). فالمرء يمكنه أن ينظر إلى الوجوه العفيفة دون أن يتأذّى. لأن الرب في الواقع لم يُحرِّم الرؤية بصفة عامة؛ بل الرؤية المصحوبة بالشهوة؛ وإلا كان يقول: «مَنْ نظر إلى امرأة» دون ما شرط، ولكنه لم يقل هذا بل: «مَنْ نظر... ليشتهي»، أي: مَنْ ينظر ليلذّذ بصره. لأنه ليس أبداً من أجل هذه الغاية قد عمل الله لك العينين؛ بل من أجل أن تشاهد بهما الكائنات الحية البديعة فتمجد الخالق عليها.

القديس يوحنا ذهبي الفم



• **وصية دينونة الأعضاء تهدف إلى رفعنا إلى درجة أعلى من الطهارة والإيمان.**

«فإن كانت عينك اليمنى تُعثرك فاقلعها وألقها عنك...»:

هنا خطوة نحو درجة أعلى من الطهارة، وإحراز تقدُّم في الإيمان. فنحن مطالَبون في الواقع أن نتخلص ليس فقط من عيوبنا الشخصية؛ بل أيضاً من تلك التي تلحقنا من الخارج. ثم أنه ليست أعضاؤنا هي المسئولة عن الخطايا التي تعود بالضرر على أجسادنا: فالعين اليمنى يمكن أن تخطئ كالعين اليسرى على حدٍّ سواء. وقطعاً القدم ليس لها ضمير واعٍ في انحرافها نحو الملذات الحسية التي قد تعرِّضها للخطورة دون أن يكون للإنسان دخلٌ في ذلك، ومسئولية العقاب لا يمكن أن تنوط بها. ولكن لأن كل الأعضاء متآزرة فيما بينها، فنحن كلنا جسد واحد، ومُلزَمون بأن نطرح عنّا؛ بل نجتثّ، حتى الارتباطات الوثيقة بأعز الأشخاص، إذا كانت أُلفتنا معهم تضطرنا أن نشاركهم في ارتكاب ذنب ما. فإذا ما رأينا فيهم خطورة مثل هذه، فمن الأفضل أن نتخلص من الأعضاء حتى النافعة والضرورية مثل العينين أو الرجلين، ومن أن نرتبط بعاطفة مؤذية لا تورِّث المتمسِّكين بها إلا نار جهنم. ولكن بتر الأعضاء لا ينفع شيئاً إلا إذا أمكن بتر العاطفة من القلب أولاً، لأنه إذا ما قبِلت الإرادة الإغراء، تحوَّل الميل للشهوات الحسيَّة المحرَّمة إلى فعل، وحينئذ يكون عبثاً أن نعاقب الجسد وحده بقلع العين أو قطع اليد.

القديس هيلاريون أسقف بواتييه

- الطلاق مكروه من الله في كلا العهدين القديم والجديد.
- لماذا أوصى موسى في العهد القديم بإعطاء كتاب طلاق؟
- حكمة شريعة تحريم الطلاق، وتحريم الزواج بعد الطلاق.

«وقيل مَنْ طلّق امراته فليُعطها كتاب طلاق»:

هذا هو برُّ الفريسيين الأصغر، والذي لا يتعارض مع ما يقوله الرب: «وأما أنا فأقول لكم إن مَنْ طلّق امرأته إلا لعلّة الزنى يجعلها تزني، ومَنْ يتزوج مطلّقة فإنه يزني»، لأن مَنْ أوصى أن يُعطَى كتاب طلاق، لم يوصِ بأن الزوجة ينبغي أن تُطلّق؛ ولكنه يقول: «مَنْ يُطلّق... فليعطها كتاب طلاق»، حتى إنه بمجرد التفكير في إعطاء كتابة مثل هذه فمن شأنه أن يخفف من حِدّة غضب ذلك الذي يريد أن يتخلّص من زوجته (أو «يغدر بها» حسب تعبير ملاخي النبي). ولذلك فإن المشرِّع القديم وهو يلجأ إلى إبطاء الطلاق، فإنه يلمِّح لقساة القلوب إلى أنه لا يرغب بقدر المستطاع في الانفصال(١).

وحسب قول الرب نفسه عندما سُئل في مناسبة أخرى عن هذا الأمر،

---

(١) شريعة الزواج الأولى في العهد القديم سلّمت بالطلاق من أجل علّة واحدة، وهي خيانة عهد الزواج الرسمي (تك٢:٢٤، مت١٩:٣-٨). وكانت هناك أسباب أخرى تجيز الانفصال، ولكن ليس الطلاق.

=

أجاب: «إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أَذِن لكم أن تطلقوا نساءكم» (مت ١٩: ٨)؛ لأنه مهما كان الإنسان الذي يريد أن يتخلص من زوجته قاسي القلب، ولكنه عندما يتفكر في أن موضوع إعطائها شهادة طلاق سيسهل لها الزواج من آخر دون تحمُّله هو لأية تبعة، حينئذ ربما سيسكن غضبه ويستريح بالهُ. فلكي يؤكد الرب على هذا المبدأ بأن الطلاق لا ينبغي أن يجري بلا تروٍّ، سمح باستثناءٍ واحد، وهو حالة الفسق. ولكنه يوصي بأن

= وقد سمح موسى بالطلاق تحت ظروف أخرى (تث ٢٤: ١)، ولكن هذا السماح كان مبغوضاً لدى الله لأنه «**يكره الطلاق**» (ملا ٢: ١٩). ولكن موسى أجاز هذا بسبب قساوة قلوب الشعب (مت ١٩: ٣-٨). وبين السُّنن المشروعة والسُّنن المسموح بها فارق هام.

وفي العصر الذي أُلقيت فيه العظة على الجبل كان الاستهتار بعهد الأمانة الزوجية قد بلغ أقصاه، وصار الطلاق شائعاً لأتفه الأسباب. وانتهز الربِّيون سماح موسى في تث ٢٤: ١، واستخرجوا على أساسه تعليلات تافهة حتى قال الربِّي «عقيبة»: [إذا رأى رجل امرأة أكثر حُسناً من زوجته، فليطلِّق زوجته؛ لأنه قيل في الشريعة: «إن لم تجد نعمة في عينيه...»]؛ ويوسيفوس المؤرخ الشهير طلّق زوجته لأنه لم يعجبه أسلوبها في الحياة.

وقد بيَّن الرب كيف أن هذا السلوك كان يُعمل ضد الشريعة نفسها، لأنه سمح للمُطلَّقة أن تكون زانية؛ لأنه تصرَّف معها كما لو كانت هكذا فعلاً (للمتعة الجسدية ليس إلا)، ثم في الوقت نفسه عرَّضها لتجربة الوقوع في ارتكاب العلاقات الجسدية المحرَّمة، إذ بينما أن زوجها الشرعي على قيد الحياة، تتزوج بآخر فتكون زانية فعلاً (انظر: رو ٧: ١-٣). وبناءً على نفس هذا المبدأ فمن يتزوجها يُعدُّ زانياً. ويكون المتسبب في كل هذه النتائج الوخيمة هو الزوج الأصلي الشرعي (انظر: مت ٥: ٣٠، مز ٥٠: ١٨، ١كو ١٠: ١٠و١١).

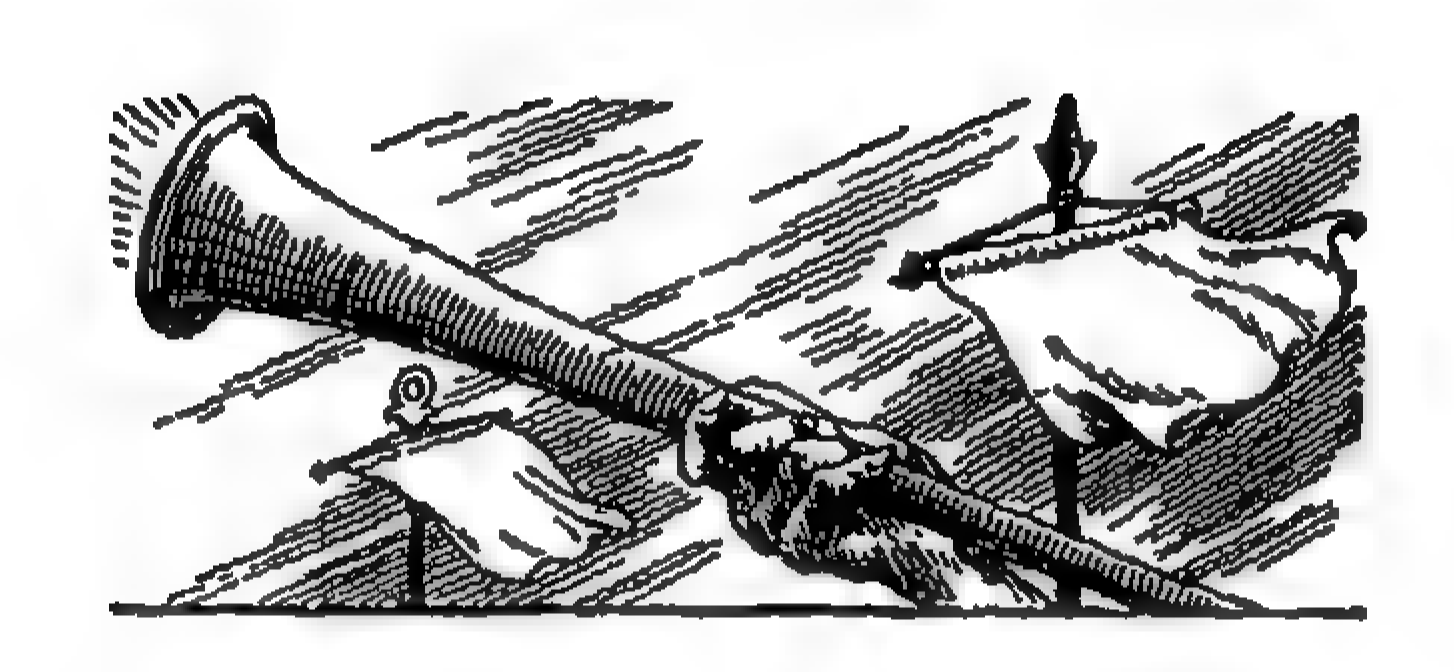
أية مضايقات أخــرى تنشأ يجب أن تُحتَمل بجلدٍ حفظاً للأمانـة الزوجيـة، وصيانة للعفة المسيحية؛ ثم أنـه يعتـبر ذاك الـذي يتزوج بمَـنْ قـد طُلِّقـت مـن زوجها زانياً.

وبولس الرسول عندما يتحدث عن هذه الأمور يبين الحد الـذي ينبغـي أن يُتّبع في هذا الشأن، فهو يقول أن المرأة مرتبطة (بالناموس) ما دام رجلها حيًّا، ولكن إن مات الرجل فلها أن تتزوج (إن شاءت) بـآخر (رو ٧: ٢و٣). لأنـه هو نفسه قد تمسَّك بهذا المبدأ وعلـى أساسـه يقـدِّم لا نصيحتـه هـو، كمـا في بعض عظاته الأخــرى؛ بـل أمـراً مُوصَـى بـه مـن الـرب، فهـو يقـول: «وأمـا المتزوِّجون فأوصيهم، لا أنا، بل الرب، أن لا تفارق المرأة رجلها. وإن فارقتـه فلتلبث غـير متزوجـة أو لتصـالح رجلهـا، ولا يـترك الرجـل امرأتـه.» (١كـو ٧: ١٠و١١)

وأعتقد أنه بناءً على نفس هذا المبدأ، إذا تـرك الرجـل امرأتـه فليلبـث غـير متزوج، أو ليتصالح مع امرأته. لأنه قد يحدث أن يتخلَّـى الرجـل عـن زوجتـه بسبب العلَّة التي جعلها الرب استثناءً. ولكن إذا كانت المرأة لا يُسـمح لهـا أن تتزوج ما دام الرجل الـذي فارقتـه حيًّـا، وهـو لا ينبغـي أن يتخـذ أخـرى مـا دامت الزوجة التي أخلـى سبيلها حيَّة؛ فكـم تكـون خطـورة ومسـئولية مَـنْ يرتكب أعمال الفسق التي لا تليق مع أحد الطرفين أيًّـا كـان. ولكـن طوبـى بالحقيقة لأولئك الأزواج الذين بعد إنجاب البنين، أو بسبب زهدهم في النسـل الأرضي، قد نذروا أن يعقدوا النية برضا تـام مـن جـانب الطرفـين أن يقمعـوا

أنفسهم، كلاًّ نحو الآخر، من جهة علاقتهم الجسدية، وبالتالي فلن يكون هناك ما يخالف أمر الرب الذي يمنع التخلّي عن المرأة (لأنه لن يتخلّى عنها ذاك الذي يحيا معها ليس جسدياً؛ بل روحياً)، وبهذا سيراعي أيضاً المبدأ الذي ينادي به الرسول: «أيها الإخوة الوقت منذ الآن مقصَّر، لكي يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم.» (١كو ٧:٢٩)

القديس أغسطينوس



«ليكن كلامكم نعم نعم لا لا»

(مت ٥:٣٣-٣٧)

- لماذا نهى المسيح عن القَسَم، ولم يذكر صراحة النهي عن السرقة؟
- الخليقة كلها وحتى رأسك مِلْكٌ لله، فبأي حق تُقسم بها؟

«أيضاً سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنثْ؛ بل أوفِ للرب أقسامك. وأما أنا فأقول لكم: لا تحلفوا البتة»:

ولكن لماذا لم يتكلم الرب هنا عن «السرقة»؛ بل تجاوز هذه الوصية وأتى مباشرة إلى الكلام عن نكث القَسَم واليمين الكاذب؟

ذلك لأن مَنْ يسرق سيحلف كذباً إذا ما حانت له الفرصة، أما مَنْ لا يحلف البتة ولا يتكلم بالزور فبالتالي لن يقبل السرقة؛ وبهذا يكون الرب قد أبطل كل خطية من هذا القبيل، لأن الشهادة الزور هي نابعة من السرقة.

+ ولكن ما معنى: **«أوفِ للرب أقسامك»**، أي: «كُنْ صادقاً في قَسَمِكَ»، **«وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة»**.

فهو لكي يُبعدهم عن القَسَم بالله، يقول لهم: **«ولا بالسماء لأنها كرسي الله، ولا بالأرض لأنها موطئ قدميه؛ ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم.»** (إش ٦٦:١، مز ٤٧:٢)

ما زال المسيح يرجع لكتابات الأنبياء، مؤكِّداً على أنه لم يأتِ بما يتعارض مع القدماء، وذلك لأنهم اعتادوا أن يحلفوا بهذه الأشياء، والرب يشير أيضاً إلى هذه العادة قبيل نهاية الإنجيل (انظر مت ٢٣:١٦... إلخ).

+ ولكن تأمل مليًّا على أي أساس يُقيِّم الرب العناصر المادية لا بالنظر إلى طبيعتها في حدِّ ذاتها، ولكن من جهة علاقتها بالله، الذي تنازل إليها وأعطاها كرامة خدمته وإعلان مجده: «السموات تحدِّث بمجد الله والفَلَكُ يخبر بعمل يديه»؛ ولأن طغيان عبادة الأوثان قد تفاقم. ولكي يبين الرب أنه لا ينبغي أن تعطَى العناصر المادية كرامة لذاتها، أكَّد على وجوب عدم القَسَم بها، وحتى يؤول المجد لله وحده. فهو لم يقل: «لأن السماء بهية وجليلة القدر»، ولا «لأن الأرض نافعة»؛ بل «لأن السماء هي كرسي الله» و«الأرض هي موطئ لقدميه». فمن كل جهة هو يحثهم على الانحياز نحو الله.

+ ثم في قوله: **«ولا تحلف برأسك، لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء»:**

هنا لا يقلل من شأن الإنسان عندما يبعده عن القَسَم برأسه، لأنه هو نفسه قد كرَّم الإنسان بلبسه طبيعته عندما تجسَّد؛ بل لإرجاع المجد لله،

ولكي يلمِّح لك أنك لست صاحب سلطان مطلق حتى على نفسك، وبالتالي لا حق لك في القسم برأسك (التي لا تمتلكها). لأنه إذا كان لا يمكن لإنسان أن يتنازل عن ابنه لآخر، فبالأكثر لا يمكن أن يُسلِّم الله عمله الخاص لك. ولو إنها رأسك أنت ولكنها ملك لآخر (هو الله)؛ وإن كانت ليست لك وليس لك مطلقاً السيادة عليها، فأنت لن تقدر أن تفعل بها ولا أقل شيء. فهو لم يقل: «فأنت لا تقدر أن تُنمِّي شعرة واحدة»؛ بل «ولا حتى أن تبدِّل الصفة».

ورُبَّ قائلٍ: «ولكن ما العمل إذا ما ألزمني إنسان ما بالقسم ولجأ إلى القَسْر»؟ اجعل مخافة الله أقوى من كل ضغط، لأنك لو تعلَّلْتَ بمثل هذه الاعتذارات، فأنت لن تحفظ شيئاً من الأمور الأخرى الموصى بها.

نعم، فأولاً من نحو الزوجة (وعدم استباحة الطلاق) ستقول: «وما العمل إذا كانت نَكِدَة العيش ومسرفة»؟ ثم من جهة العين اليمنى (الإنسان الذي تأتي من جهته العثرة) ستقول: «وما العمل (وكيف أتخلى عنه) إذا ما كنت أحبه وأجدُني شديد الولع به»؟ وعن النظرة غير المتعففة ستقول: «وما العمل إذا ما كنت لا أستطيع أن أتحكم في نفسي وأكُفُّ عن النظرات الشريرة»؟ وعن «الغضب على الأخ» ستقول: «وما العمل إذا ما كنت حادَّ الطبع وغير قادر عل ضبط لساني»؟ وعلى وجه العموم ستصير أقوال الرب بهذه الكيفية مدوسةً تحت الأقدام. مع أنه من جهة القوانين البشرية، فمن المؤكد أن أحداً لا يجرؤ بأي حال من الأحوال على التعلل بهذه الإدعاءات، ولا أن نقول:

«وما العمل إذا ما كانت الحالة كذا أو كذا»؟ بل شئنا أو لم نشأ سنقبل كل ما هو مقرَّر.

ومع هذا فأنت لن تقبل أبداً مُكْرَهاً (على تنفيد الوصايا). لأن مَنْ أصغى لتلك التطويبات السابقة وأعدَّ نفسه ليكون على مثال ما أوصى به الرب لن يكابد مثل هذا القسر من أي جهة، لأنه سيكون منضبطاً بتوقير ومراعاة كل أمر.

القديس يوحنا ذهبي الفم

* * *

● مَنْ هم في بساطة الإيمان ليسوا في حاجة إلى القَسَم.

+ قد سبق الناموس وحكم بالقصاص على اليمين الحانث حتى ينضبط دهاء الإنسان بتوقير القَسَم، وفي نفس الوقت يعي الشعب البدائي غير المنضبط أنهم أمام الله الذي يردِّدون ذِكر اسمه في ظروف أحوالهم اليومية وتعهداتهم. أما الإيمان المسيحي فيُحرِّم عادة القَسَم، ليوطِّد في الحق كل أعمال حياتنا، موصياً بالصدق في الكلام وفي السماع، فلا يعود هناك مكان للإنحراف نحو المخادعة. بل «نعم» هي «نعم»، و«لا» هي «لا»؛ لأنه مَنْ يعرج بين الحق والباطل يعطي فرصة للكذب، وكل ما زاد عن الصراحة وقول الصدق إنما

يأتي كلُّه من الشرير. فما هو كائن حقاً لـه خاصيـة الوجـود؛ ومـا هـو ليـس بكائن فبطبيعة الحال ليس له وجود.

وبناءً على هذا فمَنْ يحيون في بساطة الإيمان ليسوا هم في حاجة إلى التقيُّـد بالقسم، لأن وضوح الشيء أو عدم وضوحه هو ثابت لديهم دائمـاً، وبفضـل هذا صارت كل أعمالهم وأقوالهم قائمة في الحق.

«ولا تحلف بالسماء لأنها عرش الله...»:

إنه لا يسمح لنا ليس فقط أن نتخلى عن الحَلْف بـا لله، لأن كـل حـقٍّ لله ينبغي أن يُراعى ببساطة قولنا وحُسـن سـيرتنا؛ بـل إنـه يدين اعتقـاد القدمـاء الباطل ومجونهم. لأن اليهود في الواقع كانوا قد اعتادوا التردِّي في الحلف بهذه الأسماء الكبيرة (في نظرهـم): بالسـماء والأرض وبأورشـليم، والواحـد يحلـف برأسه وهم يشهدون بتكريمها عن طريق القَسَم بها المخالف لله. وأيـة منفعـة تُجنى من الحَلْف بالسماء، عرش الله، أو بالأرض موطئ قدميه، أو بأورشـليم المدينة التي لم تلبث طويلاً حتى تهدمت بسبب غطرسـة وآثـام سـكانها، الـتي كانت قد تأسست بصفة خاصـة لتكـون صـورة مثاليـة للكنيسـة، أي جسـد المسيح (قارن كو١:١٨و٢٤) التي هي مدينة الملك العظيم؟ وكيف يسـوغ أن يحلف المرء برأسه؟ وهل يمكن لهذا الذي يحلف أن يغيِّر شعرة واحدة من شعره عندما تفيض الطبيعة التي أبدعها الله على الجميع معطية لكل شيء لونه؟

وهكذا يشير الرب إلى أن تلك التعهدات التي كانوا يُقسمون بها كانت مفعمة بعدم التقوى إذ أنهم كانوا يقدِّمون التوقير والعبادة للمخلوقات، بينما كانوا يجهلون أو يتغافلون عن عبادة الخالق.

القديس هيلاريون أسقف بواتييه

* * *

- **ليس شيء بين خلائق الله عديم الأهمية حتى يظن أحد أن يحلف به باطلاً.**

+ **رُبَّ سائل يقول: لماذا بعد أن قال الرب: «لا تحلفوا البتة»، أضاف: «ولا بالسماء لأنها كرسي الله...»، إلى أن قال: «ولا برأسك»:**

أرى أنه كان لهذا السبب: وهو أن اليهود كانوا يظنون أنهم غير مرتبطين بالقسم لو إنهم حلفوا بهذه الأشياء، ولأنهم قد سمعوا أنه قيل: «أوفِ للرب قَسَمك»، فلم يعتبروه يميناً إلزامياً يوقعهم تحت طائلة تعدِّي وصية الرب (إذا أخلُّوا بالوعد)، إن هم حلفوا بالسماء أو بالأرض أو بأورشليم أو برأسهم؛ وهذا حدث لا بسبب عيب في الوصية نفسها بل لأنهم لم يفهموها جيداً.

لأن الرب يعلِّم أنه ليس شيء بين خلائق الله عديم الأهمية حتى يظن أي إنسان أن يحلف به باطلاً؛ لأن الأشياء المخلوقة من أعلاها إلى أدناها، بدءاً من عرش الله إلى الشعرة البيضاء أو السوداء في الرأس هي محكومة بالعناية الإلهية. وكما يقول: «لا بالسماء لأنها كرسي الله؛ ولا بالأرض لأنها موطئ

قدميه»، عندما تحلف بالسماء أو بـالأرض، لا تتصـور أن قسـمك لا يجعلـك مديناً لله (أي يعفيك من وفـاء تعهـدك)؛ لأنـك في الواقـع فيمـا أنـت تحلـف بالبَرِيَّة، أنت تعترف بالباري الذي «السماء كرسيه والأرض موطئ قدميه».

«ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم»:

إنه بهذا التعبير المجازي يشير إلى نفسه هو. ولكنه لا يصرِّح بهـذا علانيـة، وإنما يعنيه أكيداً. ولأنه هو الرب بكل يقين فمَنْ يحلـف بأورشـليم فقـد صـار ملتزماً بقسمه كمَنْ حلف بالرب.

«ولا تحلف برأسك»:

وماذا يمكن أن يخص الإنسان أكثر من رأسه؟ ولكن كيف تكـون مِلْكنـا، حيث أننا لا نملك القدرة على جعل شعرة واحـدة بيضـاء أو سـوداء؟ كذلـك كل مَنْ أراد أن يحلف حتى برأسه هو، فهـو ملـتزم بقسـمه لله، الـذي يحفـظ بقدرته الفائقة قوام سائر الأشياء، ويملأ بحضوره كل مكان.

القديس أغسطينوس

✦ ✦ ✦

تعليـق:

التلاعب بالقَسَم وإضمـار الحنـث وراء الكـلام هـو امتهـان لحُرمـة الديـن. وقـد اختلف شيوخ اليهود قديماً في هذه المسألة: فمنهم من صادَق على إلـزام المؤمنـين: «بأن يوفوا للرب أقسامهم»، ولكنهم قالوا بشرعية القسـم: إذا مـا ذُكِـر فيـه اسـم الرب. وهكذا ينهي فيلو (الفيلسوف والمتصـوف اليهـودي) عـن الحَلـف بـــ «العلّـة

الأولى (الله)»، وينصح إذا كان لابد من القَسَم «فليستشهد المرء: بالأرض أو الشمس أو السموات». وقال بعضهم: «كما أن السماء والأرض ستزولان، كذلك القسم بهما سيزول». وهذا كان الفارق الذي جعله الفريسيون بين الأقسام الهامة والأقسام الأقل أهمية؛ وقريب لهذا أيضاً: «التفرقة التي يضعها البعض بين الخطايا "المميتة"، وتلك "البسيطة أو العرضية"». ولكن بساطة الحق ووضوحه لا تعرف هذه التفاوتات: «مَنْ يرتكب الخطية فهو من إبليس»، والرب يؤيد هذا ويشدد عليه: فهو يعلم أن القَسَم «بالسماء» هو في الواقع قسم «با لله»، لأن السماء هي عرشه ولا وجود للسماء إلا لتعبِّر عن وجوده. القَسَم بالسماء يعني رجاء الإنسان في السماء، والرب يُعلِّم أيضاً: أن الحَلف بالأرض هو في حقيقته قسم با لله. لأنها موطئ قدميه: بمعنى أنها: تحت ناظريه، خاضعة لناموس عنايته (انظر مز ٢٤:١). و«موطئ قدميه»، تعني أيضاً: المكان الذي تُلْتمس رحمته.

القسم بالأرض يعني وضع الإنسان رجاءه في الرحمة. القسم بالأرض هو اعتماد الإنسان على رحمة الله. والقسم بأورشليم، يقول الرب، إنه أيضاً قَسَم «بالله»، لأن ما جعل أورشليم مكاناً هاماً يستشهد به اليهود هو حُرمتها الدينية واعتبارها هيكلاً لله ومكاناً لحلوله. لقد كانت في نظرهم مدينة الملك العظيم (انظر مز ٤٦:٤؛ ٤٨:٢). والحالف هنا يضع اعتماده وثقته في مملكة المسيا التي لابدَّ أن تأتي وتسود. أما الحلف «بالرأس» أو «بحياة الرأس» كما يصفها الرِّبيون (الحاخامات)، فهي أيضاً حلف «بالله»، لأنه ليس للإنسان إلا القليل جداً من السلطان على رأسه، حتى إنه لا يقدر أن يغيِّر لون شعرة واحدة. ما يخص الله في رأس الإنسان هو أكثر بما لا يُقاس مما يخص الإنسان. فالله في الحقيقة هو الحياة و«رافع الرأس» (مز ٣:٣). والمبدأ الهام في كل هذا: هو أن البشر ينبغي أن يراعوا الله في كل أمر؛ وإن الخليقة

لا يمكن أن تنفصل عن بارئها. ولذا فكل مَنْ يستشهد على نفسه بأية خليقة هو في الحقيقة يُشهد الله نفسه. ولذا فكل قَسَم باطل (حتى ولو كان بالخليقة)، هو إلحاد (كُفر بالله)، كما يقول أحد الكُتّاب: "والشاهد اللئيم الذي يلثم ظفره بدلاً من لثم الكتاب المقدس الذي يستشهد به، ظاناً أنه يبرر نفسه من شهادته الباطلة ومن جريمة الشهادة الزور فإنه بهذا يخدع نفسه".

الحق يتضح كاملاً في سلامة النية: لذا يتطلبه الرب في الكلام أيضاً:

١. ليكن إما نعم أو لا، بكل بساطة ووضوح؛ إما إثبات خالص أو نفيٌ قاطع. وإذا كان الأمر أكثر خطورة وهيبة فليكن ذلك بالتأكيد. والتأكيد عند العبرانيين هو بتكرار اللفظ مرتين. كما عندما كان يؤكد الرب كلامه بقوله: «الحق الحق أقول لكم...».

٢. ولكن «نعم» ينبغي أن تكون «نعم» دون أن يكون هناك أية مُوارَبة أو أي نوع من الخداع. بل حتى هوميروس (شاعر اليونان المشهور) يقول: "مَنْ لا يتوافق كلامه مع أفكاره الشخصية تمجُّه نفسي كما تمجُّ الوقوف على عتبة جهنم" (٢: ٩:٣١٢).

٣. الحق مرتبط كل الارتباط بسلامة النية. وكلمة الرجل الحق هي وثيقته. الرجل الأمين يحب الحق لنفسه. وإذا طلبت أكثر من كلمة (شهادة) من قبل هذا الإنسان فهذه إهانة لكرامته. إن احترامه يتقلص (في نظر الجميع) إذا أضاف أي شيء فوق ما أعلنه بوضوح (كشهادة أو تقرير بيان). إنه ينسب للإنسان الشرير ما هو دخيل على بساطته. ذاك الذي يتأتى من ميل طبيعة الإنسان إلى الشر. إن الأقسام دخلت في حياة الإنسان بسبب نزوعه إلى الخداع، وقد ساعد ذيوعها تفشّي الباطل في حياة البشر. ثم حتمت بعد ذلك بالاستخفاف بالأمور المقدسة. مَنْ اعتاد

الحلف لابد أن يعتاد الحنث؛ ومَنْ يحلف سيكذب. ومن يكذب سيسرق. وكل هذا يأتي من الشرير أبي الكذب. فإبليس هو أبو الكذّابين والحانثين في كل مكان وكل زمان.



عدم مقاومة الشر – سخاء العطاء

(مت ٥: ٣٨-٤٢)

- الحكمة الإلهية السامية من الشريعتين القديمة والحديثة، كلٌّ في زمانها.
- إن قصد الله هو أن ينتقل بالجنس البشري إلى المستوى العالي دائماً.

«سمعتم أنه قيل عينٌ بعينٍ وسنٌّ بسنٍّ، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر؛ بل من لطمك على خدِّك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضاً»:

إذا ما أتى أحدٌ باللائمة على الشريعة القديمة لأنها تفرض مقابلة المثل بالمثل، فإنه يبدو لي أنه ليس على وعيٍ كافٍ بحكمة المشرِّع؛ بل وجاهل تماماً بما يتناسب مع كل مجال والغاية المتأتِّية من الترفُّق الإلهي. لأنه لو تفطَّن في مَنْ هم أولئك السامعون لهذه الأقوال ومدى استعداداتهم الطبيعية، وما هو الزمن الذي فيه أخذوا دستور هذه الشريعة، لسلَّم بحكمة مُعطي الناموس، ورأى أنه هو واحد وحيد الذي وضع بنود الشريعتين القديمة والحديثة وأعطى لكلٍّ منهما قيمتها الفائقة في وقتها المناسب. نعم إنه لو كان من البداية قد أتى بهذه الوصايا السامية العظيمة المقدار (وصايا العهد الجديد)، لما قَبِل الناس هذه

ولا تلك؛ ولكن لأنــه وضـع كـلاً منهمـا على حِدة في زمنـه المناسـب، لـذا بكليهما أصلح من شأن العالم كله.

ثم إنه أعطى هذه الوصية (عينٌ بعين وسنٌّ بســنٍّ) لا لكـي ننتقـم لأنفسنا ونقلع عيون الآخرين؛ بل لكي نُقمِع أنفسنا، لأن الخوف مـن المعانـاة المتوقعـة قد يكون رادعاً لنا لكبح جماحنا وكفٌّ ميولنا عن الجنوح إلى الفعـل. وهكـذا إذ أوصى الرب قديماً بمعاقبة العمل بمثله، فإنه كان يرمي من وراء ذلك بطريقة خفية إلى وضع الأساس لضبط النفس. ولكن، بلا شك، البادئون بالتعدّي هم المستحقون عقاباً أشد. وهذا بطبيعة الحال ما يتطلبه منطق العدالة؛ ولكـن لأن الرب كان مزمعاً أن يمزج الرحمة بالعدالـة، لذلـك يحكـم علـى مرتكبي أكثر الخطايا جسامةً بعقاب أقل مما يستحقون حتى يعلّمنا فيما نحن نتأ لم أن نكـون ذوي رأفة بالآخرين.

وإذ يذكر الرب الناموس القديم، ويعرض له بالكامل يشير أيضـاً إلى أنـه: ليس الأخ هو الذي يفعل تلك الأفعال الذميمة؛ بل إنها من الشرير، من أجـل ذلك يضيف أيضاً:

«**أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرير**» (بحسب النص):

فهو لم يقل: «لا تقاوموا الأخ»؛ بل «الشرير»، دالاً بهذا علـى أن النـاس يجسرون على ارتكاب مثل هذا العمـل بدافـع منـه؛ وبهـذا يزيـل ويزيـح جُـلَّ غضبنا ضد المعتدي بتحويل الملامة إلى هذا الآخر (أي الشرير).

ورُبَّ قائل: «فماذا إذاً؟ أينبغي ألا نقاوم الشرير»؟ في الواقع، بلى، ولكن ليس بمقابلة المثل بالمثل، وإنما كما أوصى الرب ببذل النفس وتحمُّل الآلام جَوراً؛ لأنك بهذا أنت تسود عليه. فالنار لا تُطفَأ بمثلها؛ بل بالماء.

ولكي يُريك أنه حتى بحسب الناموس القديم أن المتألم ظلماً هو الغالب؛ فهو الفائز بالكرامة، تأمل جيداً في واقع الحال فسترى عِظَم أفضليته، فبينما أن البادئ بالتعدِّي قد أتلف عينيّ اثنين، عين قريبه وعين نفسه (وبذلك سيصير ممقوتاً ومُلاماً من الجميع)، نجد أن الآخر الذي قد تأذَّى أولاً حتى بعد أن أخذ ثأره لا يُعتبر أنه قد فعل شيئاً شنيعاً؛ بل سيجد الكثيرين يتعاطفون معه لكونه بريئاً من هذا الجرم. وبالرغم من أن البلية متكافئة في كلا الجانبين، إلا أن الحكم عليها ليس كذلك، سواء عند الله أو عند الناس، وبالتالي لن تكون نهاية البلوى واحدة عند الاثنين.

+ وحيث أن الرب قال في البداية: «مَنْ يغضب على أخيه بلا وجه حق يكون مستوجباً لنار جهنم»؛ نجده هنا يتطلب ضبطاً للنفس أكثر موصياً مَنْ يتحمَّل السوء ليس فقط أن يهدِّئ روعه؛ بل أن يكون بدوره على أُهبة الاستعداد إلى أقصى حد أن يقدِّم لضاربه الخد الآخر.

والرب بقوله هذا لا يُقنِّن لمثل هذه اللطمة فقط، ولكنه يعلِّمنا الاحتمال كذلك في كل ما يقابلنا من مِحن أخرى. فهو كما يقول سابقاً: «مَنْ قال لأخيه يا أحمق يكون مستوجباً لنار جهنم». وهو لا يعني هذه الكلمة فقط؛ بل أيضاً كل شتيمة؛ كذلك هنا أيضاً فيما هو يشرِّع للعهد الجديد لا يعني

فقط أن نتحمَّل ببسالة عندما نُلطَم؛ بل أن نظل ساكني الجأش في كل ما يأتي علينا من ألم. لأن الرب في كلتا الوصيتين أفرد أقصى ما يمكن أن يحدث من إهانة، وهو هنا يضع ما يبدو أكثر أنواع الضرب مهانةً – أي الضرب على الخد – الذي يدل على أشد العتوِّ (من جهة المعتدي).

والرب عندما يوصي بهذا إنما يراعي كلا الاثنين: الضارب والمضروب؛ فذاك الذي يُهان لا يظن أنه يعاني شيئاً يُذكر، إذ قد أعدَّ ذاته لضبط النفس (لا منشغلاً بما يأتي من ضربات في الطريق بقدر ما هو يسعى لنوال الجعالة)؛ وذاك الذي يبادر بالإساءة لن يكرر ما يفعله حتى ولو كان أشد شراسةً من الوحش المفترس، إلا أنه سيلوم نفسه بشدة من كل قلبه من أجل ما قدَّمت يداه. لأنه لا شيء يروِّع فاعلي السوء مثل احتمال المُساء إليه بلطف لما يأتي عليه من أذى منهم. وهذا ليس فقط يكبح جماحهم من الاندفاع قُدُماً إلى سوء فعلهم؛ بل يدفعهم أيضاً إلى التوبة عما اقترفت أيديهم ويجعلهم ينذهلون من مثل ذلك الاحتمال الذي جعلهم يعودون إلى صوابهم. بل ويجعلهم أيضاً بالأكثر من أخصائنا الأقربين خاضعين لنا تماماً وليس فقط بمجرد أصدقاء، بعد أن كانوا مبغضين وأعداء، بينما أن انتقام الإنسان لنفسه لا يؤدي إلا إلى النقيض من ذلك: فهو مشين لكلا الاثنين ويؤدِّي بهما دائماً إلى حالة أردأ ويُشعِل هياجهم بشدة؛ وغالباً ما تكون النهاية هي الموت (الروحي والجسدي معاً) متقدمين من سيء إلى أسوأ. من أجل ذلك لا ينهاك الرب فقط عن الغضب إذا ما لُطِمتَ؛ بل ويوصيك أن تُلبِّي رغبة ضاربك حتى لا تبدو أنك

احتملت اللطمة الأولى رغماً عنك. وبهذا تُخجله وتضرب (العداوة التي فيه) ضربةً قاضية، وهذا يكون له أثرٌ أشد مما إذا كنت تضربه بيدك؛ ومهما كانت شراسته فسيمكنك أن تحوِّله إلى إنسان على قدرٍ من دماثة الأخلاق.

القديس يوحنا ذهبي الفم

* * *

- **الناموس القديم كان يستخدم التخويف لردع الشعب غير المتمسك بالإيمان.**
- **بينما الناموس الجديد يقدم العزاء للمظلومين، ورب القوات السماوية قدَّم القدوة في ذلك.**

«سمعتم أنه قيل: عينٌ بعينٍ وسنٌّ بسنٍ...»:

+ الرب يروم أن يبين لنا هنا أن رجاء إيمان الذي يضع نُصب عينيه الحياة الأبدية ينبغي أن يُختَبر في واقع هذه الحياة الحاضرة، لأن الإنسان الذي يصبر على احتمال المظالم راضياً يحمل في نفسه الشهادة على حقيقة الحياة الآتية.

الناموس كان يستخدم التخويف لكي ينضبط الشعب غير المتمسك بالإيمان في مخافة الله؛ فمعاقبة العمل بمثله كان من شأنه أن يكبح جماح الميل إلى التعدِّي (هذا كان في العهد القديم).

أما الإيمان فلا يحتمل أن الواحد يأخذ على خاطره من الظلم الواقع عليه لدرجة أن يطالب بالانتقام أو أن ينتقم لنفسه، ذلك لأنه يوجد في قضاء الله

عزاء أعظم للمظلومين وشدة أعظم لعقاب المتعدِّين الظالمين. ولذلك تأمرنا الأناجيل ليس فقط أن نمتنع عن الإثم؛ بل أيضاً أن نتناسى الظلم الواقع علينا، فلا ننتقم منه، وهكذا أُمِرنا أنه حينما نتلقى لطمة نقدم الخد الآخر. وإذا ما سُخِّرنا بحمل شيء ما ميلاً واحداً علينا أن نحمله ميلين، وذلك حتى حينما يزداد تألُّمنا من ذلك، نتسامى فوق رغبة الانتقام. فإن رب القوات السمائية نفسه ازداد مجداً لما قدَّم خدَّيه للاطميه وظهره للسياط.

الرب يُلزمنا أيضاً ليس فقط ألاَّ نلجأ إلى المحاكمات البشرية؛ بل أن نتحاشاها مرحِّبين بالخسارات، حتى إذا ما قاضانا أحدٌ واغتصب ثوبنا نسلم له أيضاً رداءنا (العباءة وهي أثمن من الثوب). وهكذا إذ نزدري بأمتعة هذا الدهر واضعين رجاءنا في الخيرات العتيدة، نعلن بطلان محبة المال التي هي عبادة أوثان وتفاهة الطمع المجدب الذي يلحق بها.

بل وفضلاً عن هذا يأمرنا الرب أن نعطي الجميع ما يطلبونه منا وألاَّ نرد وجهنا ولا قلبنا عن ترجيات مَنْ يريدون أن يقترضوا منا شيئاً، حتى بسخائنا يمكننا أن نُشبع مَنْ هم في حاجة، فنرد عنهم العطش حينما نعطيهم أن يشربوا، والجوع حينما نمنحهم الغذاء، والعُري بما نخلع عليهم من ثياب، وبهذا نكون جديرين بالخيرات التي نستمدها نحن من الله، لأن ممارسة السخاء تؤدي حتماً إلى الفوز بالاقتناء.

ثم إن الرب يبين لنا ضرورة أن نكون أسخياء النفس في مسئولية التوزيع من النِعم التي نلناها، فيكون عطاء الخير المجاني مجانياً، وألاَّ نرفض أن نعطي مَنْ يريدون أن يقترضوا منا، لأن ذلك إنما نُقرِضه لله نفسه.

القديس هيلاريون أسقف بواتييه

* * *

- **دستور العطاء وقانون الإقراض في العهد الجديد.**
- **وفي كلتا الحالتين: العطاء والإقراض، سيكون الجزاء لِمَنْ نفَّذ وصايا الله.**

«مَنْ سألك فأعطه. ومَنْ أراد أن يقترض منك فلا ترُدَّه»:

+ يقول الرب هنا: «كلُّ مَنْ سألك»، وليس «كل شيء سألك»: لذلك عليك أن تُعطي ما يمكن أن يتمشَّى مع الأمانة والبر. لأنه ما العمل إذا ما طلب منك سائلٌ نقوداً يسعى أن يضايق بها إنساناً بريئاً؟ وقُصارى القول: ماذا تعمل إذا ما سألك شيئاً مخالفاً للعفة؟ وحتى لا أسوق لك أمثلة لا تُحصى، أقول إن ما ينبغي أن يُعطَى، هو ما لا يضرُّ بك ولا أيضاً بالطرف الآخر، بقدر ما هو معروف أو مُقدَّر لدى العُرف البشري. وفي حالة رفضك - بحقٍّ - شيئاً يطلبه صاحبك، عليك أن تُعْلِمه السبب الذي يبرر تصرُّفك هذا، حتى لا ترسله فارغاً.

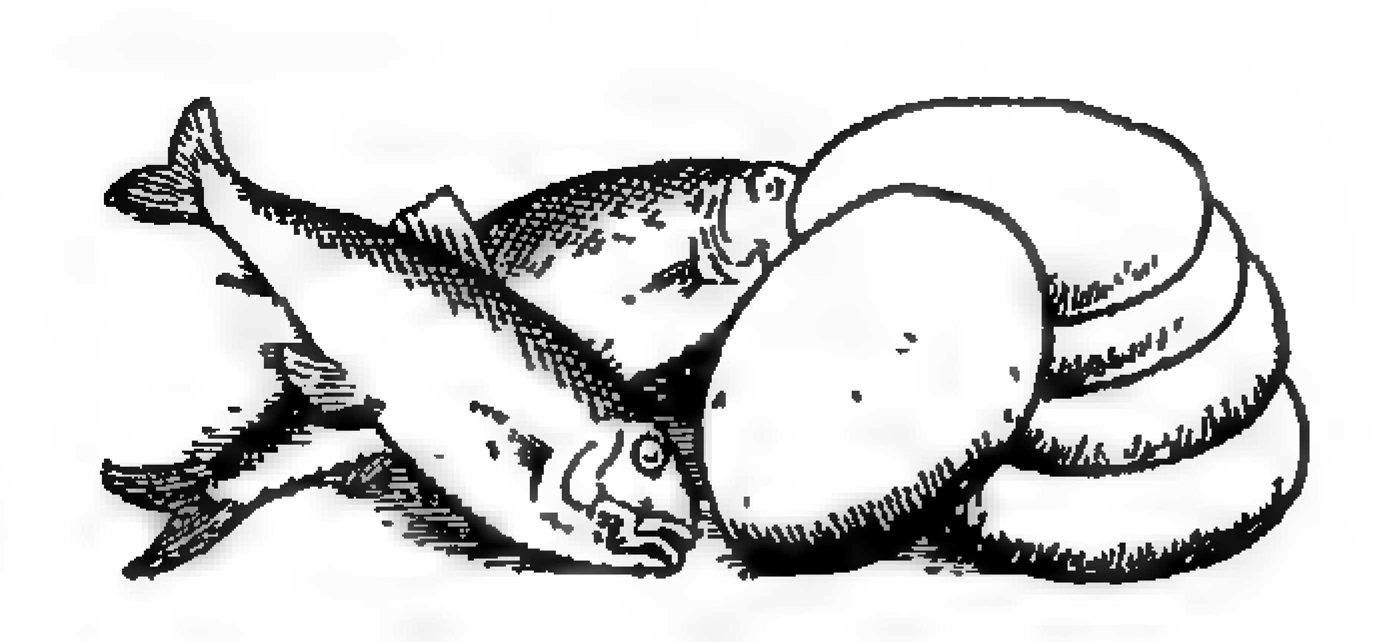
+ وهكذا ستُعطي كل مَنْ يسألك، بالرغم من أنك لن تُعطي دائماً ما يسأله؛ بل ستُعطي شيئاً أفضل عندما تُعيد السائل إلى صوابه بعد أن كان يطلب أموراً غير لائقة.

إذاً فالمراد بقول الرب: «ومَنْ أراد أن يقترض منك فلا تردُّه»، هو أن يكون المرء مستعداً ذهنياً ألاّ يصد سائله عندما يسأله شيئاً نافعاً؛ لأن الله يحب المُعطي بسرور (٢كو ٩:٧)، والمُعطي عن طيب خاطر؛ حتى ولو لم يسترد العِوض من المستعير فلابد أن يسترده من الله أضعافاً. هذا وإن كنا لا نفهم جيداً معنى المُقترض إلا بمفهوم مَنْ يأخذ ليوفي، إلا أننا ينبغي أن نعي أن قول الرب من جهة عمل الإحسان يشمل هذين المعنيين: إما أن نعتبر ما نعطيه هو هدية كجزء من ممارستنا لعمل الخير، أو نُعير مَنْ يأخذ منا بقصد أن يسدد بعد ذلك. وغالباً ما يحدث أن الذين يضعون نُصب عيونهم المجازاة الإلهية، ويكونون مستعدين أن يعطوا ما يعطونه على سبيل التقدمة المجانية، يكونون من جهة أخرى متباطئين في عطاء الشيء الذي يُطلَب منهم على سبيل الدَّيْن، ظانين أنهم سوف لا يأخذون شيئاً من الله عوضاً عن ذلك طالما أنهم سيستردون الشيء المُعطَى أو ما يعوِّضه من المستدين.

فبحقٍّ، يستحثنا الأمر الإلهي من جهة هذا الأسلوب في عمل الخير قائلاً: «ومَنْ أراد أن يقترض منك فلا ترده»، أي لا تمنع إرادة الخير فيك عمَّن يسألك إياه، لا خوفاً من أن مالك سيصير بلا نفع، أو لأن الله سوف لا

يعوِّضك إياه، طالما ستحصل عليه من المقترِض؛ ولكن إذا ما فعلت هذا طاعةً لأمر الله فثق تماماً أنه لن يكون بلا ثمرة عند ذاك الذي سنَّ هذه الوصايا.

القديس أغسطينوس



قمة الكمال المسيحي

(مت ٥:٤٣-٤٨)

- «كونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل.» (مت ٥:٤٨)
- «فكونوا متمثلين بالله كأولاد أحباء.» (أف ٥:١)
- «كونوا متمثلين بي كما أنا أيضاً بالمسيح.» (١كو ١١:١)

● درجات السمو الإلهي في التعامل مع الآخرين.

«سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوَّك. وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحْسِنوا إلى مبغضيكم. وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم. لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات... فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل»:

تأمل في كيف أن الرب يضع على قمة الأعمال الصالحة التي ينبغي أن نمارسها أسمى الفضائل قاطبة. فمن أجل هذا هو يعلِّمنا ليس فقط أن نحتمل اللطمة (على الوجه)؛ بل أن نقدِّم الخدَّ الأيمن كذلك، وليس فقط أن نفرِّط في الثوب (المغتصَب) بل أن نضيف إليه الرداء أيضاً (وهو أثمن قيمة)؛ بل وأن

نسير ميلين مع مَنْ أجبرنا أن نذهب معه ميلاً، لكي نحصل بكل يُسرٍ على ما هو أعلى بكثير من كل هذه.

ورُبَّ قائل: «فما هو إذاً الشيء الذي يفوق كل هذه الأمور؟» هو ألا تحسب مَنْ يفعل بك شيئاً من كل هذه الأفعال عدواً لك، وليس هذا فحسب بل وأكثر من ذلك أيضاً، فهو لم يقل: «لا تُبغض»؛ بل: «أحببْ». ولم يقل: «لا تسيء»؛ بل: «أحْسِنْ». وحتى في هذه لو دقّق أحد النظر جيداً سيجد أنه مطلوبٌ منه ما هو أكثر من هذه الوصايا سُموًّا، لأن الرب لم يطلب فقط أن نحب؛ بل وأن نصلي أيضاً من أجل مَنْ يسيء إلينا.

أترى إذاً كم مرحلة صَعِدَ بنا الرب حتى وضعنا على قمة الفضيلة؟ نعم! تمعَّنْ جيِّداً حاسباً منذ البداية: الدرجة الأولى: ألاَّ تتعدى على أحد؛ الثانية: إذا تعدَّى عليك آخر ألاَّ تطالب أكثر من مقابلة المِثْل بالمِثْل؛ الثالثة: أن نصبر إزاء مَنْ أساء إلينا ولا ننتقم لأنفسنا مما عانينا منه؛ الرابعة: أن نَرضى بالتألم ظلماً؛ الخامسة: إذا أراد أحدٌ أن يغتصب منّا شيئاً أن نعطيه أكثر مما يطلب؛ السادسة: ألاَّ نبغض مَنْ فعل معنا هكذا؛ السابعة: بل علينا أن نحبه؛ الثامنة: وأن نعمل الخير معه؛ التاسعة: وأن نتوسل إلى الله من أجله.

أترى إذاً مدى سمو الوصية الضابطة للنفس (في طريق الخلاص والحياة الأبدية)؟ وحيث ستكون المجازاة أيضاً مجيدة كما سنرى. فبما أن الأمر الموصى به عظيم ويحتاج إلى نفس حارة وغيرة عارمة، لذا يضع لها الرب كذلك مثل هذا الثواب الذي لا مثيل له في كل ما سبق. فهو لم ينوِّه هنا عن

ميراث أرض للودعاء، ولا عن عزاء ورحمة للباكين والرحماء، ولا عن ملكوت السموات؛ بل عمَّا هو أكثر روعة من الكل؛ عن صيرورتنا متشبهين بالله بالقدر الذي أُعطي للبشر أن يبلغوه. فهو يقول: «لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات».

القديس يوحنا ذهبي الفم

* * *

● **طريق البنوّة لله فعل الرحمة والمحبة.**

«لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات»:

ينبغي أن نفهم هذا على أساس القياس، ونفس المعنى الذي عناه القديس يوحنا الرسول أيضاً عندما قال: «أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله»، لأنه واحدٌ وحيدٌ ذاك الذي هو ابن بالطبيعة، الذي لا يعرف شيئاً من الخطية المميتة. أما نحن فبنوالِنا السلطان (كنعمة) نصير أبناءً، بقدر ما نمارس من الأمور التي أوصانا بها هو. لذلك دَعَت التعاليم الرسولية (الإنجيل) هذه (الحظوة) التي بها دُعينا للميراث الأبدي لنكون شركاء مع المسيح: نعمة التبني.

فنحن قد صرنا أبناءً عن طريق الولادة الجديدة الروحية، وقد اتخذنا الله لنكون من رعايا ملكوته ولكن لا كغرباء؛ بل كمخلوقين (ثانية) وموجودين بواسطته: فالرب قد أسدى لنا نعمتين: أُولاهما: أنه بكلية قدرته قد أتى بنـ

إلى الوجود حيث كنّا عدماً من قبل؛ ثانيهما: تبنّيه لنا حتى إذا صرنا بنين يمكننا أن نتمتع دائماً معه بالحياة الأبدية كشركاء ميراث. لذلك لم يقل (الرب): افعلوا هذه الأمور لأنكم بنون؛ بل افعلوا هذه الأمور لتصيروا بنين.

ولكن حينما يدعونا لهذا بواسطة ابنه الوحيد نفسه، فهو يدعونا لمشابهته (لنكون على صورته) الخاصة. فهو كما قيل: يُشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويُمطر على الأبرار والظالمين. ويمكنك أن تفهم الكلام هنا بأحد معنيين:

+ إما تكون الشمس المعنيَّة هنا ليست هي المنظورة بعيني الجسد؛ بل الحكمة التي قيل عنها: «هي ضياء النور الأبدي» (حكمة ٢٦:٧)، والتي قيل عنها أيضاً: «شمس البر قد أشرقت علينا»، وأيضاً: «ولكم أيها المتّقُون اسمي تُشرق شمس البر.» (ملا ٤ :٢)

كما يمكننا أن نفهم المطر أيضاً على أنه هو الارتواء بتعليم الحق، لأن المسيح قد ظهر للصالحين وللطالحين، وقد بُشِّرَ به الأخيار والأشرار.

+ أما المعنى الآخر – ولك أن تتخير ما أردت – فهو الشمس المنظورة أمام أعين لا البشر فقط؛ بل كل الكائنات الحيَّة، والمطر هو الذي ينمي الثمار الطبيعية التي أُعطيت لقوت الجسد، وأظن أن هذا هو المعنى المقصود على الأرجح؛ لأنه من ناحية أخرى نجد أن الشمس الروحية لا تُشرق إلاّ على الصالحين والقديسين، وهذا ما عناه سفر حكمة سليمان عندما يقول على لسان الأشرار: «والشمس لم تُشرق علينا». وكذلك المطر الروحاني لا يُمطر

إلا على الأبرار؛ فالأشرار هم المعنيُّون بالكَرْم الذي قيل عنه: «وسأُوصي سُحُبي ألاّ تمطر عليه مطراً» (إش ٥:٦)، ولكن سيَّان إذا كنتم تأخذون بالمعنى الأول أو الثاني فمصدر كليهما هو تفاضل خيرية الله الذي علينا أن نتمثل به إذا كانت تحدونا الرغبة أن نصير أبناء الله.

لأنه مَنْ يمكنه أن لا يحس بمدى الخير العميم النافع لهذه الحياة الذي يجلبه لنا النور المنظور (الشمس)، والمطر المحسوس؟ وهذه النعمة نراها تفيض مشاعاً على كلٍّ من الأبرار والأئمة. وهو لم يقل: «يُشرق الشمس على الأشرار والصالحين»، ولكنه قال: «يُشرق شمسه» أي التي عملها هو نفسه وثبَّتها، ولم يستَعِنْ بشيء آخر في خلقتها كما كُتب في سفر التكوين عن خلقة كل الكواكب (تك ١٦:١). والرب بحق يمكن أن يقول: إن كل الأشياء التي خلقها من العدم هي مِلْكُه، فكم نُلام نحن إذا لم نُعطِ بسخاء شديد حسب وصيته، حتى لأعدائنا، هذه الأشياء التي لم نوجدها نحن؛ بل تقبلناها كنِعَم منه.

ولكن مَنْ هو المستعد أن يتحمل الإساءات من الضعفاء طالما أن هذا نافع لخلاصهم، وأن يُفَضِّل معاناة الظلم من الآخر، من أن يردَّ عليه بالمقابل، ويعطي كل مَنْ يسأله أي شيء، حتى ولو كان ما يسأله متاعه الخاص، ومما يمكن أن يُعْطَى، أو نصيحة طيبة، أو إبداء استعداد لعمل المحبة، وعدم صدٍّ مَنْ يريد أن يقترض، وأن يحب أعداءه، ويُحسن إلى مبغضيه، ويصلي من أجل الذين يضطهدونه، أقول: مَنْ يمكنه أن يفعل كل هذه الأمور، إلا الذي امتلأ

وكمل في الرحمة؟ (كما قيل: «كونوا كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل»). عن هذا الطريق نتفادى البؤس، بمعونة القائل: «أريد رحمة لا ذبيحة» (هو ٦:٦)، فطوبى إذاً للرحماء لأنهم يُرحمون.

القديس أغسطينوس

* * *

● يريد الرب أن نتمثل بالكمال الإلهي.

«سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوك...»:

لقد حصر الرب كل وصايا العهد الجديد في التمثل بكمال اللطف الإلهي. فالناموس كان يتطلب محبة القريب، ولكنه ترك الحرية لبغضة العدو؛ أما الإيمان (المسيحي) فقد أُلزَم بمحبة الأعداء (مت ٥:٤٤)، وبالمحبة الإلهية الشاملة المنسكبة في القلب قهر حركات ميول العنف التي في روح الإنسان، ليس فقط بكَفِّه عن الغضب والانتقام لنفسه؛ بل وبمنحه السلام في القلب إلى الدرجة التي يمكننا أن نحب حتى من آذانا أو أُلْحَقَ الضرر بنا. لأن كوننا نحب مَنْ يحبنا (فقط) فهذا لا يليق إلا بالوثنيين، ومقابلة الودِّ بالودِّ هي عند عامة الناس (حتى من غير المؤمنين)، أما الرب فيدعونا لميراث المجد الإلهي، ومن جهة أخرى إلى التمثُّل بمَنْ – بمجيء مسيحه – أشرق وأمطر (روحياً) على الصالحين والطالحين بإعطاء نعمة العماد (الاستنارة)، والروح القدس (الماء

الحي). وهكذا يُبْدِعُنا (من جديد) على صورة الحياة الكاملـة، بربطنـا بخيريتـه هذه العامة نحو الجميع حتى نتشبه بالآب السماوي الذي هو كامل.

القديس هيلاريون أسقف بواتييه



عمل البرِّ في الخفاء

(مت ٦: ١-١٨)

● **الساعي إلى المجد البشري ينال جزاءه من الناس؛ أما المترجِّي الله فينال من الله ثوابه بعد المثابرة الطويلة.**

+ «**احترزوا من أن تصنعوا برّكم**(١) **قدّام الناس...**»:

الرب هنا يود أن يبعدنا من انشغال البال بالأشياء التي نقدِّمها (إن كانت صدقة أو صلاة أو صوماً)؛ بل أن يكون جُلُّ اهتمامنا هو التمسك برجاء الحياة الآتية، فلا نراعي استحسان الناس أو نتلمس مديحهم باستعراض سخائنا، أو التباهي بتديُّننا والافتخار بارتياد الأماكن العامة للصلاة؛ بل أن نتحفظ على ثمرة العمل الصالح في داخل وعي إيماننا، لأن الساعي إلى المجد البشري لا ينال جزاءه إلا من الناس، أما المترجي الله لينال منه ثمرة سعيه فثوابه يأتي بعد المثابرة الطويلة (في العمل الصالح – دون النظر إلى الجزاء الزمني).

---

(١) هكذا قُرئت في معظم النسخ الأصلية اليونانية، والمقصود بالبر هنا أركان العبادة الثلاثة: الصدقة والصوم والصلاة التي سيتكلم عنها الرب تفصيلاً في هذا الجزء من العظة على الجبل.

أما عن اليد اليسرى التي ينبغي ألاّ تعرف ما تصنعه اليمنى: فهذا القـول لا ينبغي أن يُفهم حرفياً لأن طبيعة أعضاء الجسد ليس لها ذهن واعٍ في أداء وظيفتها؛ بل المقصود بهذا: أن أعمال (برّنا) ينبغي أن تؤدّى من أجل أن يعرفها الله، وأن نتخلى فيما نعمل عن معرفتنا الذاتية بهذا العمل، حيث المعرفة الذاتية مُكنّى عنها في هذه الوصية بأحد أعضائنا (اليد اليسرى).

القديس هيلاريون أسقف بواتييه

* * *

- **دخول المخدع وغلق الباب رمز لوجوب أن تكون الصلاة غير منظورة من الناس.**
- **عدم ترديد الكلام باطلاً، لا يغني عن اللجاجة في الصلاة.**

«وأما أنت فمتى صليت فادخل مخدعك واغلق بابك وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء...»:

فماذا إذاً؟ ألا ينبغي أن نصلي في الكنيسة (حيث أنها مجتمع عام)؟ إنه محتّم علينا أن نفعل ذلك بكل يقين، ولكن بمثل هذه الروح، ففي كل مكان الله يطلب النية الصالحة في كل ما يُؤدّى من عمل. لأنه حتى ولو أنك دخلت إلى مخدعك وأغلقتَ الباب، ولكن عملت ذلك تباهياً (بنية التفاخر)، فغَلْقُ الأبواب لن ينفعك شيئاً.

إنه لجدير بالملاحظة ما يقوله الرب في هذه المناسبة في وصفه الدقيق (للمرائين): «لكي يظهروا للناس». لذلك حتى ولو أغلقتَ الأبواب، فما يبتغيه الرب منك هو أكثر من هذا: إنه يبتغي غلق أبواب الذهن. لأنه إذا كان في كل شيء آخر جيدٌ للإنسان أن يكون متحرراً من المجد الباطل، فبالأخص جداً في الصلاة، ولكن إذا كنّا حتى بدون هذا نتوه ونسرح بأفكارنا، فمتى سنكون واعين بالأمور التي نردِّدها في الصلاة؟ وهل ينبغي أن ندخل (للصلاة) محمَّلين بهذا المرض أيضاً (المجد الباطل)؟ وإذا كنّا نحن الذين نصلي ونتوسل لا ننتبه إلى ما نقوله فكيف نأمل أن ينتبه الله إلينا؟

+ أطلب الله من الأعماق لأنه قيل: «من الأعماق صرختُ إليك يا رب» (مز ١٣٠:١). من عمق أعماق القلب ردِّد صلاتك سرًّا. ألا ترى أنه حتى في قصور الملوك تختفي كل ضوضاء ويسود الصمت الرهيب من كل جانب؟ فافعل أنت كذلك، باعتبارك داخلاً لا إلى بلاط ملكي على الأرض؛ بل إلى ما هو أعظم مهابة بكثير، أي إلى المثول أمام الحضرة الإلهية، فاغْدِ نفسك بأشد ما يمكن من اللياقة. نعم، لأنك ستشترك مع خورس ملائكة ورؤساء ملائكة، وستكون مسبِّحاً مع السارافيم، وكل هذه الطغمات، فبكل هيبة ووقار يرتلون، وبأشجى الأنغام السرية وكل أناشيدهم المقدسة يمجِّدون الله المالك على الكل. فعندما تصلي اختلط بهؤلاء واقْتَدِ بنظام صلواتهم السرية. لأنك لست للناس تصلي بل لله، الذي هو حاضر في كل مكان، والذي

يسمع الصلاة حتى قبل أن يُنْطق بها، والذي يعلم خفايا الفكر، إذا صليت هكذا، فعظيم هو أجرك الذي تناله.

«فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية»:

لم يقل: «سيعطيك مجاناً»، ولكن: «يجازيك»؛ وكأن الرب جعل نفسه مديناً لك، وحتى في هذا قد شرَّفك بكرامة عظيمة. لأنه إذ هو غير منظور يريد أن صلاتك أيضاً تكون كذلك.

«وحينما تصلون لا ترددوا كلاماً باطلاً كالأمم»:

«الترديد الباطل»، هو كأن تطلب من الله أموراً غير لائقة: مُلكاً (أرضياً)، مجداً (عالمياً)، نُصرة على خصوم، مزيداً من الثروة، وبالإجمال كل ما لا يجب أن يقلق بالنا على الإطلاق؛ "لأنه" كما يؤكد: **«يعلم ما تحتاج إليه»** (مت ٦:٨). ثم إنه يبدو لي أن الرب بهذا القول يوصينا بأننا لا ينبغي أن نطيل صلواتنا؛ أعني لا الإطالة الزمنية، ولكن من حيث الإسهاب في تعدد الأمور المطلوبة، لأن المثابرة في الصلوات هي مطلوبة منّا، ووصيته (على فم الرسول) تقول: «مواظبين على الصلاة.» (رو ١٢:١٢)

وهو نفسه أيضاً بإعطائه لنا مَثَلَ الأرملة التي تغلبت على القاضي القاسي العديم الشفقة بمداومة توسلها (لو١٨:١)، ومَثَلَ ذلك الصديق الذي ذهب في ساعة متأخرة من الليل لإيقاظ صاحبه النائم في فراشه، والذي أعطاه طلبه لا بسبب الصداقة ولكن بسبب لجاجته؛ إنما يريد بهذا أن يفرض علينا وجوب المداومة على الابتهال له عن أنفسنا أو عن غيرنا.

إنه لا يريد منا أن ننشيء صلاة محشوة بربوة من العبارات ونتقدم إليه لمجرد أن نرددها أمامه. لأن هذا هو ما ألمح إليه عندما قال: «لأنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يُستجاب لهم»، ثم يقول أيضاً: «لأنه يعلم ما تحتاجون إليه». ولكن رُبَّ قائلٍ: «إذا كان الرب يعرف ما نحتاج إليه، فلماذا ينبغي علينا أن نصلي»؟

إننا نصلي لا لكي نُعْلِمُه بشيء، ولكن لنحمله على الاستجابة لنا (بشدة لحاجتنا)؛ ولكي باستمرارية توسلنا إليه تكون لنا علاقة صميمية معه؛ ثم أيضاً بتذكُّرنا آثامنا أمامه، نعرف ضعفاتنا فنتضع، وبالتالي نعرف احتياجنا الدائم له.

القديس يوحنا ذهبي الفم

* * *

- **دَهن الرأس يشير إلى البهجة؛ وغسل الوجه إلى الطهارة (نقاوة القلب).**

«وأما أنت فمتى صُمتَ، فادهن رأسك واغسل وجهك، لئلا تظهر للناس صائماً؛ بل لأبيك الذي في الخفاء...»:

واضح من هذه الوصايا أن كل مسعانا ينبغي أن يهدف إلى الفرح الداخلي، لئلا بتطلُّعنا إلى ثوابٍ من الخارج نتمثل بأهل العالم، فنفقد الوعد

بالغبطة التي هي أشد ثباتاً ودواماً بما لا يُقاس بقدر ما هي تختص بحياتنا الداخلية، حيث اختارنا الله لتصير مشابهين صورة ابنه (رو ٨:٢٩).

+ ماذا يعني بقوله: «**وأما أنت فمتى صُمتَ، فادهن رأسك، واغسل وجهك...**»؟

ينبغي أن نفهم هذه الوصية من جهة دهن الرأس وغسل الوجه، بأنها توجِّه نظرنا أيضاً إلى إنساننا الداخلي، فدهن الرأس (بالأطياب) يشير إلى البهجة؛ وأما غسل الوجه فيُقصد به: الطهارة (نقاء القلب). فالإنسان الذي يدهن رأسه هو الذي يتهلل في الذهن وفي السريرة... ولا يبلغ إلى هذا إلا مَنْ لا يطلب بهجته من الخارج، حيث يسلك طريقاً جسدانياً مسروراً بمديح الناس له...

إذاً، فليفرح بحق في صومه مَنْ كان على هذه الحال، ذلك الذي بصيامه يتعفف عن الملذات العالمية ليكون طَيِّعاً للمسيح، الذي بحسب هذه الوصية يبتغي دهن الرأس بالطيب (بهذا المعنى الذي أوردناه). ومَنْ عَمِلَ هكذا فقد غسل الوجه أيضاً، أي طهَّر القلب الذي به سيُعاين الله، حيث لا يعوقه حجاب متوسط بسبب قذى العين (الداخلية) الذي يُضعف من الرؤية؛ بل سيكون ثابتاً راسخاً لكونه نقي القلب صافي النية.

يقول الرب: «اغتسلوا تنقوا اعزلوا شرَّ أفعالكم من أمام عينيَّ» (إش ١٦:١). فمن القذارة التي تغضب عين الله ينبغي أن نغسل وجوهنا (عيوننا الداخلية)، لأننا بوجه مكشوف كما في مرآة نرى مجد الرب، ونتغير إلى تلك

الصورة عينها (٢كو ٣:١٨)... ليت الله يُميل قلوبنا إلى شهاداته (وصاياه)، ويُحوِّل عيوننا عن النظر إلى الباطل (مز ١١٩:٣٦)؛ لأن «غاية الوصية هي: المحبة من قلب طاهر وضمير صالح وإيمان بلا رياء.» (١تي ١:٥)

القديس أغسطينوس



الصـــلاة الربـانيـــة

(مت ٦: ٩-١٥)

«أبانا الذي في السموات» *

+ يا للجود الفائق! ويـا للطـف الـذي لا يُبـارى، وهـذا حقـاً يليـق بـا لله وحده! إنه يمنحنا مجده، إنـه يرفـع العبيـد الأرقّـاء إلى كرامـة الحريـة، فيُكَـرِّم الجنس البشري بمثل هذا الامتياز الذي يفوق قوى الطبيعة، ويحقق ما نطـق بـه صاحب المزامير قديماً: «أنا قلتُ إنكم آلهة وبنو العلـي كُلُّكُـم» (مـز ٨٢: ٦). فها هو يحررنا من نير العبودية واهباً لنا بنعمته ما لم يكن لنـا بالطبيعـة، سـامحاً لنا أن ندعو الله أباً لنا، بعد أن قَبِلْنا في مرتبة البنين. وهذا مع كل الامتيـازات الأخرى قد نلناه من الرب، حسبما يشهد بذلـك الحكيـم (الروحـاني) يوحنـا الإنجيلي مدوِّناً عنه أنه: «جاء إلى خاصته وخاصتُه لم تقبله. وأمـا كـل الذيـن

* هذه الشروحات للصلاة الربانية للقديس كيرلس الإسكندري الملقّب بعمـود الديـن، مـن شروحاته لإنجيل القديس لوقا التي كان يلقيهـا على الشعب في الكنيسـة في سلسلة مـن العظات المتتابعة.

قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه. الذين وُلدوا ليس من دمٍ ولا من مشيئة جسدٍ ولا من مشيئة رجلٍ بل من الله.» (يو ١:١١-١٣)

+ لأننا قد أُبدعنا (من جديد) لنكون على (هذه) البنوة بالميلاد الذي تم فينا روحياً «لا من زرع يفنى؛ بل مما لا يفنى، بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد» (١بط ١:٢٣)، كما يقول الكتاب. وأيضاً يُعلن واحدٌ من الرسل القديسين قائلاً: «شاء فولدنا بكلمة الحق لكي نكون باكورة من خلائقه» (يع ١:١٨). والسيد المسيح نفسه في موضع آخر يشرح بوضوح كيفية هذا الميلاد قائلاً: «الحقَّ الحقَّ أقول لك: إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.» (يو ٣:٥)

وحَريٌّ بكم الآن (بعد أن تعمَّدتم) أن نكلمكم عن الأمور السرية (mysterious)، فالمسيح نفسه قد صار في نفس الوقت كُلاًّ من: الطريق والباب ومنبعاً للنعمة الموهوبة لنا إذ صرنا مُمجَّدين ومؤهَّلين للفوز (بالخلاص) باتخاذه لنفسه صورة (بشريتنا).

+ فبالرغم من حقيقة كونه هو الإله، وبالتالي يمتلك كامل الحرية، إلا أنه اتخذ شكل عبدٍ، ليهبنا ما له، ويُثري العبد بامتيازاته الإلهية. فهو وحده الذي بالطبيعة له السلطان الكامل (وحرية التصرف فيما له)، لأنه الوحيد ابن الآب، أي من ذاك الذي هو الكائن الأسمى فوق الكل ويسود على الكل، والذي بالطبيعة له السلطان المطلق في كل شيء. لأن كل الأشياء التي أُتِيَ بها

للوجود تخضع بعُنْق العبودية [انظر: صلاة الصلح في القداس الكيرلسي] لمن أوْجَدَها.

+ وها مرتل المزامير يتغنى له قائلا: «لأن الكلَّ عبيدُك» (مز ١١٩: ٩١).
ولكن طالما هو في افتقاده الإلهي لنا تنازل وأخذ على نفسه ما لنا، فقد أعطانا أيضاً ما له، ويشهد لنا بذلك بولس الفائق الحكمة خادم أسراره، عندما يكتب هكذا قائلاً: «الذي وهو الغنيُّ افتقر، حتى بفقره نغتني نحن» (٢كو ٨: ٩)، والمقصود بالافتقار هنا أو أخذ ما لنا هو ارتضاء الله الكلمة بأن يتنازل ويلبس طبيعتنا البشرية: أما أَخْذُنا ما له فهو غنىً للطبيعة البشرية [انظر: ثيئوتوكية يوم الجمعة من التسبحة اليومية: "هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له..."] (لأن هذا ارتفاع من الأدنى إلى الأعلى)، وواحدة من هذا (الغنى) هي كرامة الحرية؛ وهي نعمة تليق بصفة خاصة بمَنْ قد دُعوا إلى البنوَّة (الإلهية). وهذه هبة –كما ذكرت (وليست حقاً أو طبيعة) – فهو قد قال لنا: «لا تَدْعُوا إنساناً أباً لكم على الأرض: فواحدٌ هو أبوكم، الذي في السموات وأنتم جميعاً إخوة» (مت ٢٣: ٩). وهو أيضاً نفسه كذلك من فرط محبته اللانهائية للبشر، لا يستنكف أن يدعونا إخوته هكذا قائلاً: «أُبشِّرُ باسمِكَ أخوتي» (مز ٢٢: ٢٢). فلأنه صار شبيهاً بنا، فبهذا عينه قد فُزْنا نحن بالأُخوَّة معه. لذا يستحثنا على أن نجرؤ ونقول في صلواتنا: «أبانا الذي في السموات». نحن أبناء الأرض والعبيد والخاضعون بحسب ناموس الطبيعة لِمَنْ خَلَقَنا، ندعو الله أباً لنا!

+ إنه لمن المناسب جداً أن نضع هذه الحقيقة في أذهان الذين يُصلُّون: إنه إذا كنّا ندعو الله «أبانا»، وقد حُسِبْنَا جديرين بهذه الكرامة السامية حقاً، ألا ينبغي علينا بالضرورة أن نسلك سيرة مقدسة وبلا لوم تماماً، وأن نحيا هكذا كما يُرضي أبانا (السماوي)، وألاّ نتفكر في شيء أو أن نقول شيئاً لا يليق أو يتناسب مع هذه الحرية التي مُنِحْناها؟ وهكذا يقول أحد الرسل القديسين: «وإن كنتم تدعون أباً الذي يحكم بغير محاباةٍ حسب عمل كل واحد، فسيروا زمان غربتكم بخوف.» (١بط ١:١٧)

+ إنه لأمر خطير للغاية أن نُحْزِنَ ونُغْضِبَ أباً (جسدياً) بالانحراف وراء الأمور غير الصالحة. فكيف يتصرف الآباء الأرضيون أو ما هو شعورهم نحو أبنائهم؟ عندما يرونهم مُلبِّين لرغباتهم سالكين ذلك الطريق الذي يرضيهم، فهم يحبونهم ويكرِّمونهم، ويرحبون بهم، ويغدقون عليهم كل ما يُرضي ذوقهم من هدايا، ويعترفون بهم كوارثين شرعيين لهم. أما إذا كانوا متمردين غير طائعين، لا يحترمون نواميس الطبيعة غير مبالين حتى ولا بالحب الفطري المغروس فينا، فإنهم، أي الآباء، يطردونهم من بيوتهم ويعتبرونهم غير جديرين بأية كرامة، أو تسامح، أو محبة؛ بل إنهم يأبون أن يعترفوا بهم كأبناء، ولا يُقرُّون بأي ميراث لهم.

+ والآن لنرتفع بتفكيرنا من هذه الوقائع (الأرضية) التي تحدث معنا إلى تلك السماوية التي تفوقها. فأنت تدعو الله أباً، فكرِّمه بطاعة متأهبة، وقدِّم له خضوعاً يليق به، واسلك حياة مرضية له. ولا تسمح لنفسك أن تكون عنيفاً

أو متكبراً؛ بل على النقيض، مُذعناً خاضعاً، مستعداً بلا أي إبطاء أن تتبع مشوراته، حتى يكرِّمك هو بدوره ويجعلك شريكاً في الميراث مع ذاك الذي هو ابنه بالطبيعة. لأنه إذا كان قد «بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا معه كل شيء» (رو ٨: ٣٢) بحد تعبير المغبوط بولس. ولكن إن كنت لا تراعي نفسك ولا تُبالي بسخاء النعمة التي أُعطِيتَها، فقد بَرْهَنْتَ على أنك بلا حياء – وإن جاز القول – بلا ملح، محباً للذة أكثر من حبك للآب السماوي. فخف إذاً لئلا يقول عنك الله أيضاً ما قيل عن الإسرائيليين بفم إشعياء: «اسمعي أيتها السموات واصغي أيتها الأرض لأن الرب يتكلم. ربَّيْتُ بنينَ ونَشَّأْتُهُم، أما هم فَعَصَوا عليَّ.» (إش ١: ٢)

ثقيل على كل وجه، يا أحبائي، هو جُرْم مَنْ يعصى، وإثمٌ عظيم للغاية أن يرفض الإنسان الله ويستهين بمحبته.

+ فإذاً، لحكمة بالغة – كما قلت – يمنحنا مخلِّص الكلِّ أن ندعو الله «أبانا»، حتى إذ نعرف جيداً أننا أبناء الله، نحيا سيرة تليق بمَنْ كرَّمَنا؛ وهكذا سيقبل ابتهالاتنا التي نُقدِّمها في المسيح: الذي به ومعه للآب، المجد والمُلْكُ، مع الروح القدس، إلى أبد الأبد آمين.

* * *

«ليتقدس اسمك»

+ كل الذين يتوقون لوعود الله المقدسة ها صوت إشعياء النبي يناديهم قائلاً: «أيها العطاش جميعاً هلموا إلى المياه» (إش ٥٥: ١)، لأن كل مَنْ أراد فيمكنه أن يستقي من الينبوع المحيي. ومَنْ هو يا ترى هذا الينبوع؟ بكل يقين هو المسيح وتعاليمه. لأنه هو نفسه قد قال في موضع ما: «مَنْ يعطش فليُقْبِلْ إليَّ ويشرب» (يو ٧: ٣٧). فلنأتِ نحن أيضاً إلى هذا الينبوع لنروي أرواحنا العطشى ونُشبع نفوسنا الجائعة من روضة تنعماته. فداود المبارك يتحدث عنه في المزامير مخاطباً الله الآب: «يُرْوَوْنَ من دسم بيتك ومن نهر نعمك تسقيهم. لأن عندك ينبوع الحياة» (مز ٣٦: ٨)، لأن نهر النعم الفائض لنا بوفرة، وكذلك ينبوع الحياة كلاهما في المسيح، الذي قال على فم واحدٍ من أنبيائه مشيراً إلينا هكذا: «ها أنذا أُدير عليها سلاماً كنهرٍ ومجدَ الأممِ كسيلٍ جارف» (إش ٦٦: ١٢). فانظر كيف أن المسيح يروينا بفيض نِعَمِه ويغمرنا ببركاته الروحية. فماذا يريد أن يلقِّننا من تعليم في هذه المناسبة؟

+ يقول لنا الرب: «متى صلَّيتم فقولوا: أبانا (الذي في السموات) ليتقدس اسمك». ولعلكم تذكرون ما تحدثنا به إليكم قبلاً وتكونون قد انتفعتم بعض الشيء عندما شرحنا لكم بأي وجه حقٍّ يسوغ لنا أن نقول (للآب السماوي) «يا أبانا». وأظن أنكم لا تنسون ما سبق وقلته لكم، إذ أنا أعرف أنكم غيورون في سماع التعليم. وحتى لا نكرِّر ما قلناه، لئلا يكون ذلك مملاً

للسامعين اليقظين الذين يخبئون في كنز قلبهم كل ما قد فهموه، ويُريدون دائماً أن يسيروا قُدُماً، ننتقل إلى الفقرة التالية، أعني بها: «ليتقدس اسمك»، لنتبين معاً على أي وجه ينبغي أن نَفْهَمَ هذه أيضاً.

+ فهل نحن نطلب مزيداً من القداسة يمكن أن تُضاف لله كلِّي القداسة؟ وكيف يكون هذا غير معقول على الإطلاق؟ ذلك أن الله كلِّي الكمال وغيرُ مُعْوَزٍ لشيء، لأن من صفات الألوهة كمال الوجود حتى الملء (في كل ما هو خير وصالح). فهو مانح القداسة للخليقة من «ملئهِ» (أي من كماله) هو الخاص؛ والملء لا يقبل المزيد. لأن كل شيء هو له، وهو بالغٌ أعلى الكمال في كل صلاح، لأن هذه أيضاً إحدى خواص طبيعته. وعلى ذلك، فمن الجهل والسخف بمكان أن يتوهم مَنْ يصلُّون أنهم يقدِّمون توسلاتهم لا من أجل تقديس أنفسهم؛ بل عن الله. فماذا يكون إذاً معنى «ليتقدس اسمك»؟

+ نقول إن البشر لا يمكن أن يبتهلوا من أجل المزيد من القداسة تُضاف لله العليِّ على الكل، لأنه مَنْ هو الأكبر منه حتى يكون قادراً على أن يعطيه أو يزيده شيئاً؟ «لأنه بلا أدنى شك الأصغر يُبَارَك من الأكبر» (عب ٧:٧)، وإنما نحن نتوسل عن أنفسنا وعن البشرية كلها أن نُمنَحَ هذه القداسة. لأنه من حيث أن يقيننا وإيماننا الراسخ أن الذي هو بالطبيعة الله العلي على الكل، هو قدوس القديسين، فبالتالي نحن نعترف بمجده وجلاله الفائقين، حتى نكون على وعي بمهابته، فنسلك الطريق المستقيم ونحيا الحياة التي بلا لوم، حتى إذ نصير نحن أنفسنا هكذا قديسين يمكننا أن نكون قادرين على التقرُّب من الله

القدوس، فإنه مكتوب: «كونوا قديسين لأني أنا قدوس» (لو ١١:١٤)؛ وقد قال أيضاً مرة لموسى معلم الناموس: «إني أتقدَّس في مَـنْ يقـتربون مـني.» (لا ٣:١٠)

+ فمعنى هذه الصلاة إذاً هو «ليت اسمك يبقى مقدَّساً فينا»، في أذهاننا وإراداتنا، فهذا هو مفهوم هذه الكلمة: «ليتقدَّسْ». وكما أن مَـنْ يعاني من مرض في بصره الجسدي ولا يقدر على الرؤية إلا قليلاً وبصعوبة، فمتى صلّى قائلاً: «يا رب الكل، يا ليتك تسمح بأن ضوء إشراق الشمس ينير لي»، فلا يمكننا أن نقول على مثل هذا أنه يتوسل من أجل الشمس؛ بل أكيداً من أجل نفسه: كذلك أيضاً إذا صلّى إنسانٌ قائلاً: «أبانا الذي في السموات، ليتقدسْ اسمك»، فهو بهذا لا يتطلب إضافة شيء إلى قداسة الله؛ ولكنه يطلب أنه هو نفسه يقتني مثل ذلك الذهن (الروحي) والإيمان، اللذين بهما يعي كرامة وقداسة اسم الله. فهذا الفعل (أي التقديس) هو مصدر الحياة (الأبدية)، وأساس كل بركة (روحية): فإذا كان قد صار للإنسان هكذا انعطافٌ نحو الله، فكيف لا يكون هذا مدعاة لأسمى كرامة؛ وأفضل طريق لخلاص النفس؟

+ ولكن لا تظن أن الذين لهم دالة المحبة وهم غيورون في توسلاتهم لله أنهم يطلبون منه مثل هذه الأمور لأجل أنفسهم فقط؛ بل اعلم أنهم يهدفون من طلبهم أن يشمل كل المسكونة: من أجل كل الذين قد آمنوا من قبل، ومن أجل كل الذين لم يقبلوا الإيمان بعد، ولم يأتوا إلى معرفة الحق بعد؛ بل أيضاً من أجل الذين سبقوا فآمنوا، فإنهم يطلبون لهم الثبات في الإيمان، لكي

يتمتعوا بأمجاد الحياة الفُضْلَـى. أمـا عـن الذيـن لم يصـيروا بعـد مؤمنـين، فهـم يطلبون من أجل أن تصل لهم الدعوة وتنفتح أعينهم (الداخلية)، وهم في هـذا إنما يتبعون أثر خطوات الرب يسوع المسيح الذي بحسب كلام الرسول يوحنا هو: «الشفيع عند الآب، وهـو كفّـارة لخطايانـا، وليـس لخطايانـا فقـط؛ بـل لخطايا كل العالم أيضاً» (١يو ٢:١)، فهو الذي يطلب بدالّة (من الآب) عـن القديسين، ومن أجل كل العالم، ويريد من تلاميذه أن يتمثلوا به. فإذاً، عندما نصلي للآب قائلين: «ليتقدسْ اسمك»، فنحن نضع في الاعتبار أن بين أولئـك الذين نطلب لأجلهم مَنْ لم يدركوا بعد نور الحق و لم يُقْبِلُوا بعـد إلى الإيمـان، مَنْ يستهينون باسم الله و لم يتكشف لهم بعد قداسته وكرامته ومهابته؛ ولكـن حالما يُشرق عليهم نور الحق، ويستفيقون بالجهد كما من نـوم عميـق في ليلـة حالكـة الظـلام، وإذ يبـدأون في التعـرُّف علـى الله ويتلامسـون مـع عظمتـه الفائقة، يسلِّمون بأنه (حقاً وفعلاً) هو «قدوس القديسـين»، ومـن ثـمَّ يكـون لهم علاقة صميمية معه وإيمان واثق.

+ إذاً فمعنى تقديسنا لاسـم الله هـو اعترافنـا بأنـه «قـدوس القديسـين»، وكمال قداسته في غير ما حاجةٍ إلى إضافة من جهتنا. قال واحـدٌ مـن الأنبيـاء القديسين: «قدِّسوا الرب فيكون مخـافتكم، آمنـوا بـه فيصـير قداسـتكم» (إش ٨:١٣ – بحسب السبعينية)، أي: آمنوا أنه قـدوس فحينئـذ تهابونـه. وهكـذا (من خلال هذه المهابة) سيصير هو نفسه قداسة لكم. وقد كُتب عـن المسـيح مخلِّصنا جميعاً: «قدِّسوا ذاك الذي قد اسـتهان بنفسـه» (إش ٤٩:٧ – بحسب

السبعينية)، لأنه قد استهان بنفسه عندما لم يعمل لحياته حساباً، واضعاً إياها من أجلنا. ولكن عندما يقول: «قدِّسوه»، أي: اعترفوا بأنه قدوس، لأنه هو هكذا بالطبيعة كونه هو الإله ابن الإله، لأن القداسة جوهرياً لا يمكن أن تكون بالطبيعة لأيٍّ من الأشياء التي أُوجدَت من العدم؛ بل هي من ماهية الكائن الأسمى الذي يفوق سائر المخلوقات. فبإيماننا أنه بالطبيعة قدوس – لأن هذا هو معنى تقديسنا له – نعترف بالتالي أنه هو الله.

+ إذاً، من أجل أنفسنا نحن لا من أجل الله نحن نطلب قائلين: «ليتقدسْ اسمُك»، لأنه إذا تسلَّحنا بهذه النية وقدَّمنا طَلِباتٍ مثل هذه بذهن واعٍ، فالله الآب سيستجيب لنا والمسيح معه سيباركنا. الذي به ومعه، لله الآب، المجد والسلطان، مع الروح القدس إلى أبد الأبد، آمين.

* * *

«ليأتِ ملكوتك»

+ أولئك الذين يُولعون بالغنى الأرضي، وينصرفون دائماً إلى جمع المال، ولا يألون جهداً في اتخاذ كل ما أَمكَنهم من وسيلة لتحقيق رغباتهم المنشودة؛ ينتهي مسعاهم إلى عاقبة غير مُرضية؛ وكما يقول المخلِّص: «لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كلَّه وخسر نفسه.» (مت ١٦:٢٦)

+ أما مَنْ يحبون كلمة الخلاص، وينقّبون الأسفار الإلهية كمَنْ يبحث عن كنز، ويفتشون باهتمام عن الأمور الخفية التي فيه؛ فإنهم حتماً سيجدون المعرفة المحيية التي تقودهم إلى كل مطلب فاضل وتكملهم في معرفة الحق.

+ إذاً، فلنُنَقِّبْ نحن عن معنى الآية (من الصلاة الربانية) التي أمامنا، وغايتنا هي أن نفهم جيداً ما أوصى به المخلِّص، فقد قال إنه ينبغي علينا عندما نصلي أن نُقدِّم هذه الطلبة: «ليأتِ ملكوتك». ومع أن المسيح يملك على الكل مع الله الآب؛ ولا يمكن أن يُضاف إلى مجده الكوني شيء، كأن يُزاد له من الخارج أو كأن يُعطى له بواسطة آخر، ولا أن ينمو معه مع تعاقب الزمن، لأن مجد ملكوته قائم معه بلا بداية ولا نهاية، فهو كائن منذ الأزل وما يزال بما كان عليه. وكونه هو إله بالطبيعة وبالحق، فهو بالتالي كلّي القدرة، وهذا السلطان مُلازم لألوهيته التي لا بداية لها ولا نهاية؛ وهكذا أيضاً يقول واحدٌ من الأنبياء القديسين: «الرب يملك إلى الدهر والأبد» (خر ١٥:١٨)، والمرنم الإلهي يتغنى قائلاً: «ملكوتك (يا رب) ملكوت أبدي» (مز ١٤٥:١٣)، وأيضاً: «الله ملكنا منذ القِدَم.» (مز ٧٤:١٢)

+ فإذا كان الله دائم الملوكية وكلّي القدرة، فبأي معنى نُقدِّم توسلاتنا لله الآب ونقول: «ليأتِ ملكوتك»؟

يبدو لي أننا نقولها بمفهوم أننا نترجى مجيء المسيح مخلِّص الجميع ثانية ليُشرق على العالم بنوره. فهو يقيناً سيأتي، سيأتي وينزل كديَّان، ولكن ليس بعد في هيئتنا المتواضعة ولا في طبيعة بشرية حقيرة؛ ولكن في مجده كما يليق

به كإله حالٌ في نور لا يُدنى منه، تحيط به جوقة من الملائكة. فهكذا هو نفسه قد قال في موضع ما إن «ابن الإنسان سيأتي في مجد أبيه مع ملائكته القديسين» (مت ١٦: ٢٧).

+ ومن المناسب أن أُضيف إلى هذا أيضاً: أنه في نهاية هذا العالم سينزل الرب من السماء، ولكن لا ليُعَلِّم فيما بعد الذين على الأرض، كما فعل في القديم، ولا أيضاً ليريهم طريق الخلاص - فأوان هذا سيكون قد فات - ولكنه سينزل ليدين العالم. والحكيم بولس أيضاً يشهد لما أقول، معلناً هذا: «لأنه لابدَّ أننا جميعاً نُظهر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً.» (٢كو ٥: ١٠)

+ القديسون، إذاً، يطلبون سرعة مجيء المُلْك الكامل للمخلِّص، لأنهم جاهدوا كما ينبغي وصاروا أنقياء السريرة، وهم يتوقعون المجازاة الحسنة لما فعلوا من خير. فهُم كمَنْ ينتظرون عيداً وفرحاً على وشك المجيء وقرب الظهور، يتأهبون ويتلهفون لاستقباله. لأنهم يثقون أنهم سيتمجدون في حضرة الديَّان وأنهم سيسمعونه قائلاً لهم: «تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المعدَّ لكم منذ تأسيس العالم» (مت ٢٥: ٣٤). لقد كانوا وكلاءَ حكماءَ غيورين عندما أقامهم الرب على أهل بيته ليقدِّموا لهم الطعام في حينه. إنهم، بلطف وفطنة، وزعوا على العبيد رفقائهم مما قد نالوه هم أنفسهم واغتنوا به من قبل؛ لأنهم وضعوا في بالهم قول الرب: «مجاناً أخذتم،

مجاناً اعطوا» (مت ١٠:٨). عندما أخذوا منه الوزنة(١) لم يطمروها في الأرض... بل تاجروا بها وربحوا كثيراً وقدموها مع ربحها قائلين: «يا سيد، وَزْنَتُك قد ربحت عشر وزنات» (لو ١٩:١٦)، فنالوا حظوة أكثر كرامة. لقد كانوا ذوي غيرة قلبية حادة، ونية مستقيمة شُجاعة فلبسوا سلاح الله الكامل: درع البر، وخوذة الخلاص، حاملين سيف الروح. لأنه لم يَغِبْ عنهم أنهم قائمون للحرب، لا مقابل لحم ودم؛ بل ضد رؤساء وقوات يسودون على عالم ظلمة هذا الدهر، ضد أرواح الشر المنبثّة تحت قبة السماء (أف ٦:١٣).

+ فكثيرون هم الذين يعقدون لهم أكاليل الشهادة، وهم باحتمالهم المضايقات حتى بذل الحياة وسفك الدم قد صاروا «منظراً للعالم، للملائكة والناس» (١كو ٤:٩)، وحُسِبوا مستحقين لكل تمجيد. وآخرون صبروا على الأتعاب والاضطهادات مجاهدين بغيرة حارة لأجل مجد الله... إلا أنهم لم يستكثروا آلامهم، لأنهم كانوا يتطلعون إلى الرجاء الذي كان لهم في المسيح. فلم يكن مجهولاً لديهم أنهم إن كانوا «يتألمون من أجله فإنهم سيملكون معه» (٢تي ٢:١٢). إنهم قد تيقّنوا أنه في وقت القيامة الأخيرة «سيغيّر شكل جسد تواضعهم ليكون على صورة جسده الممجد» (في ٣:٢١). إنهم

(١) الوزنة من الفضة أيام المسيح تساوي ما يقابل الآن ٢٥٠ أو ٣٤٠ جنيهاً، والوزنة من الذهب تساوي عشرة آلاف جنيهاً تقريباً.

آمنوا تماماً بما قاله الرب عن نهاية العالم، أنه عندما يستعلن لهم ثانية من السماء «سيضيئون كالشمس في ملكوت أبيهم.» (مت ١٣: ٤٣)

+ إذاً، فيسوغ لهم بحق أن يقولوا في صلواتهم: «ليأتِ ملكوتك». لأنهم يشعرون بالثقة أنهم سينالون مجازاة شجاعة إيمانهم، وسيبلغون غاية رجائهم الموضوع أمامهم.

+ ليته يكون لنا نحن أيضاً نصيب معهم لتوجد مستحقين لهذا الميراث العظيم في المسيح؛ الذي به ومعه لله الآب التسبيح والسلطان، مع الروح القدس، إلى أبد الآبدين، آمين.

* * *

«لتكن مشيئتك كما في السماء، كذلك على الأرض»

+ توسل داود النبي إلى المسيح مخلّص العالم قائلاً: «قُدْني إلى حقّك وعلّمني أنك أنت الله مخلّصي» (مز ٢٥: ٥)، لأنهم يتعلمون من الله كل مَنْ هم في المسيح بالإيمان؛ ومن بين هؤلاء نحن، فمن المسيح - تمجّد اسمه - نلتمس إيضاح أقواله: لأن مَنْ أراد أن يفهم جيداً دون ما زلل ما يتوق الرب أن يعلّمه لنا، هو في حاجة إلى النور الإلهي، فهو المانح لكل حكمة، ويفيض

بنوره على ذِهن وقلب أولئك الذين يسألونه. وها مرنم المزامير يقول أيضاً: «افتح عينيَّ فأرى عجائب من شريعتك.» (مز ١١٩:١٨)

+ إذاً فلنتمعن أيضاً في هذا الجزء من الصلاة الربانية: لأنه ليس هيِّناً ما سنربحه هنا لخلاص النفس. والآن نقول: لماذا أوصى الرب صفوته المختارين أن يخاطبوا الله الآب قائلين: «لتكن مشيئتك كما في السماء، كذلك على الأرض»؟

+ إن هذه الطلبة تليق بالأكثر بالقديسين، وما أمجدها أيضاً. إنه وُضع على القديسين أن يتوسلوا من أجل أن تسود إرادة الله الصالحة على المسكونة كلها، وماذا يهدف هذا التوسل إلا أن يعيش كل الجنس البشري حياة تليق بأبناء الله المختارين ويمارسوا ويعرفوا كل فضيلة؟ فهكذا بكل يقين يحيا الملائكة القديسون في الأمجاد السماوية لأنه مكتوب: «باركوا الرب يا جميع جنوده؛ يا خُدَّامه العاملين مَرْضَاتَه» (مز ١٠٣:٢١)، فَهُم بإذعانهم لإرادة سيدهم، وبتتميمهم البرَّ الذي يفوق طاقة البشر، يحفظون رتبتهم العالية؛ وأما الذين فعلوا بخلاف ذلك فقد هبطوا من ذلك المستوى.

+ ولكن لكي نسير قُدُماً إلى الأمام ونفهم فحوى الكلام، لنضرع إلى الله أن يمنحنا القوة نحن القاطنين على الأرض لنعمل مشيئته ونتمثل بحياة الملائكة القديسين السامية، تلك التي يمارسونها هناك في السماء؛ ولنتأمل بقدر ما نُؤتَى من نعمة، في الطريق الذي تسلكه القوات العلوية وطغمات الملائكة الأطهار لكي يؤدوا ما أُنيط بهم على الوجه الأكمل. كيف يكرِّمون الله؟ هل

بتقديم ذبائح دموية؟ هل بأطياب وبخور تماماً كما كان يفعل بنو إسرائيل قديماً؟ ولكن أظن أن هذا غير معقول فكراً وقولاً. بل إنه من الصواب أن نؤكد أنهم يُتممون خدمة روحية غير مادية على الإطلاق، مقدِّمين دائماً التماجيد والتسابيح لخالق الكل، مكمِّلين البر اللائق بالأرواح السماوية الطاهرة.

+ إذاً، فأولئك الذين في صلواتهم يتوسلون أن تتم مشيئة الله على الأرض، ينبغي بالضرورة أن يحيوا هم أنفسهم بلا لوم، وأن لا يبالوا بالأمور الأرضية؛ بل أن يتحرروا من كل ما هو نجس، ويقفزوا خارجين من حُفر الإثم، «مكمِّلين القداسة في خوف الله» (٢كو٧: ١)، وكما يقول بولس الرسول أيضاً، إنه حتى وإن كانوا يسيرون على الأرض إنما ينبغي أن تكون «سيرتهم في السموات(٢)» (في ٣: ٢٠) ...

+ فالقديسون يبتهلون (إلى الآب السماوي) من أجل جميع الناس، أياً كانوا، أن يوجدوا مستحقين للسلام الذي من الأعالي، وأن يجدوا راحة القلب بعد البؤس الذي كانوا يقاسونه حينما كانوا واقعين في حبال الإثم الذي لم يكن لهم إمكانية الفرار منه (لو لم تفتقدَهم رحمة الله)، وإذ نالوا بر المسيح بالإيمان، يمكنهم أن يصيروا أطهاراً، ومؤهَّلين لكل عمل صالح. من أجل هذا يصلي (القديسون) قائلين: «لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك

---

(٢) أي وإن كانوا يعيشون على الأرض، إنما ينبغي أن يحيوا كمَنْ هم من رعايا السماء.

على الأرض»، لأن إرادة إلـه الكـل – كمـا سـبق وقلـت – أن يحيـا سـكان الأرض بقداسة وتقوى وبلا أدنى ملامة، أنقياءَ من كل عيب، مثـابرين علـى التمثل بسجايا الأرواح العلويـة في السـماء؛ حتـى إن الكنيسـة علـى الأرض، كونها المثال المنظور والصورة لــ «كنيسـة الأبكـار» الـتي في الأعـالي، تصـير مرضية للمسيح؛ الـذي بـه ومعـه لله الآب، التسـبيح والسـلطان، مـع الـروح القدس، إلى أبد الأبد، آمـين.

* * *

«خبزنا كفافنا أعطنا اليوم»

+ أولئك الذين يقتنـون الثـروات الأرضيـة يدعـون إلى بيوتهـم أصحـابهم الذين يودون أن يكرموهـم، ويضعون أمامهم المآدب الفاخرة، قاصدين بذلـك أن يعطوهم الفرصة ليمتّعوا ذواتهم، مع أنهم لم يُعِدُّوا لهم شيئاً أكثر مما يُشـبع شهيتهم للطعام المادي. أما مخلّصنا ورب الكل فلا يُوْلِم لنا مأدبة نسـتمتع بهـا جسدياً، فهذا لا يعود لنا بنفع؛ بل قد يكون ضاراً حتى بالجسد نفسـه، وإنمـا هو يُعدُّ ولائم روحية لِمَنْ يحبونه من كل قلوبهم ويريـدون أن يحيـوا بـالتقوى، مانحاً إياهم المعرفة الخلاصية التي للإنجيل والتي بها يصير الإنسان ممتلئاً من كـل صلاح ووارثاً للحياة الأبدية.

وما قلته هذا يُعَلِّمه لنا بوضوح هذا الفصل (من الإنجيل) الذي أمامنا الآن؛ فالرب يقول: «فمتى صليتم، ينبغي عليكم أن تقولوا: أعطنا كل يوم خبزنا الضروري» (نص تفسيري).

+ ولكن ربما يعترض البعض قائلاً: إنه ليس من المناسب ولا من اللائق بالقديسين أن يطلبوا من الله هذه الأمور الجسدانية، ولذا قد يأخذون ما قيل بالمعنى الروحي، ويؤكِّدون أنهم لا يسألون الخبز الأرضي أو ما هو للجسد؛ بل «ذاك الذي نزل من فوق، من السماء وأعطى الحياة للعالم». وأنا أيضاً بلا أدنى شك أقول: إنه من الأليق جداً بالقديسين أن يسعوا بكل جدٍّ ليُحسَبوا مستحقين للعطايا الروحية، ولكن من جهة أخرى ينبغي لنا أن نفهم أنه حتى إذا ما كانوا يطلبون مجرد الخبز العادي إلا أنه لا لوم عليهم البتة في ذلك إذا ما كانوا يسألونه من الله حسبما يدعوهم المخلِّص أن يفعلوا هكذا، لأن هذا يليق بحياتهم التَقَوية. ولكن علينا أن نمعن النظر في المعنى المتواري في هذا الكلام، وما يحويه من تعاليم نافعة لحياتنا الروحية.

+ فالرب إذ أوصاهم أن يسألوا من أجل الخبز، أي من أجل الغذاء اليومي، فهذا برهان واضح على أنه لا يسمح لهم بامتلاك أي شيء (حتى الطعام الضروري لليوم التالي)؛ بل يلزمهم أن يمارسوا التجرد التام كقديسين (مفروزين بالكامل للكرازة والمناداة بالإنجيل). فالسؤال هنا ليس من حق مَنْ يمتلكون نفس الشيء؛ بل هو لَمنْ هم في حاجة ماسة لِمَا يلزم الجسد ولِمَا لا غِنَى لهم عنه. فإذا فُرِضَ أن واحداً ليس في عوز إلى شيء وطلب من الله

العليم بكل شيء قائلاً: «أعطنا خبز اليوم»، فإنه يبدو بطبيعة الحال كمَنْ يستهزئ أو ربما كمَنْ يجعل الوصية مدعاة للسخرية، ويتصور كما يفعل البعض أن «الرب لا يُبصر وإله يعقوب لا يُلاحظ.» (مز ٩٤: ٧)

+ ولكن بهذه الوصية نفسها – طالما هم يسألون ما ليس عندهم – نفهم أن الرب لا يروم لتلاميذه أن يبتغوا الغِنَى الأرضي، وهو ينهاهم في مناسبة أخرى قائلاً لهم بوضوح: «لا تكونوا قلقي البال من أجل حياتكم، ماذا تأكلون، أو ماذا تشربون؛ ولا لأجسادكم ماذا تلبسون، لأن هذه الأمور كلها تطلبها الأمم (التي لا تعرف الله)، لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرَّه، وهذه كلها تُزاد لكم. لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها.» (مت ٦: ٢٥-٣٣)

وكلمة «إبيوسيوس επιουσιος» الملحقة هنا بـ «خبزنا»، يشرحها البعض بمعنى «الآتي»، أي الخبز (أو الطعام) المزمع أن نُعْطاه في العالم الآتي بالمفهوم الروحي أيضاً. في حين أن آخرين يعطون للكلمة معنىً مغايراً؛ ولكن إذا كان حقاً أن الخبز الذي يُشار إليه في هذه الطلبة هو الذي سيُعطَى في العالم الآتي فلماذا نضيف: «أعطه لنا كل يوم» أو «يوماً فيوماً»، لأن هذا يعني أننا نلتمس زادنا اليومي، ونحن نسأل هكذا لا كأناس محبين لوفرة الطعام والشراب؛ بل كأحرار من كل هَمٍّ أرضي. فمعنى «إبيوسيوس»، إذاً، «ما هو ضروري وكافٍ»، والرسول المغبوط بولس قد استخدم هذا التعبير مع تحوير طفيف عندما تكلم عن المسيح مخلِّص العالم قائلاً عنه: «إنه أعدَّ لنفسه شعباً

خاصاً περιουσιος» (تي ٢: ١٤)، مستعمِلاً «بيريوسيوس» بدلاً من «إبيوسيوس»، قاصداً بذلك «صفوة مختارة لا يعوزها الكمال»، أي «شعب كفء». فَهُم (التلاميذ) عندما يطلبون قوت يومهم فحسب (كفافهم)، فإنهم يبرهنون بهذا على أنهم متحررون من كل رغبة للقِنْيَة؛ بل ويحسبون فخراً لهم أن يكونوا متجردين بالتمام من كل الأمور الأرضية (حتى يكون الله الكل في الكل لحياتهم).

+ لأنه يليق بمَنْ تعيَّنوا للخدمة الرسولية أن يكونوا خالين من كل همٍّ وانشغال دنيوي، غير منقادين وراء تلك الأمور التي تُغرق الناس في الهموم وتلقي بهم كما في حمأة من وحل وقاذورات الشهوات العالمية. «لأن محبة المال أصل لكل الشرور» (١تي ٦: ١٠). ومن الصواب أن أقول لِمَنْ يبتغون أن يُقلِعوا عن مثل هذه العيوب أنهم ينبغي أن يستردوا للعالم ما يخصه، وأن يجحدوا كل الأمور الجسدية (الباطلة)، وأن يطلبوا من الله فقط ما هو ضروري لقوام الحياة، متحدِّين عجز الجسد الذي يتظاهر دائماً بالضعف ولا يكف عن طلب الطعام، ومستعدين ألاَّ يُلبُّوا كل رغباته بقدر إمكانهم؛ وبهذا تطول الحياة، وتفرح الروح جداً بقبول هذا التجرد (أكثر مما بسعة العيش وبحبوحة الحياة).

+ لأنه كما أن أولئك الذين يعرفون كيف يجاهدون في المصارعات الجسدانية، ويبرعون في ألعاب المسابقات، يتجردون حتى من ثيابهم، ويقفون بشهامة صامدين أمام شدة بأس مناوئيهم؛ كذلك القديسون إذ يتخلصون من

كل الهموم الدنياوية، والأهواء الجسدانية؛ بل ولا يالون حتى أن يقتنوا وفرة من القوت (الضروري) متجرِّدين – كما قلت – لمقاومة إبليس وكل أعوانه أعداء الحق، يكرِّسون أنفسهم تماماً للجهاد الموضوع أمامهم في خدمة الرب، فينالون النصرة كأبطال فائزين (في السباق). وهذا ما يقوله أيضاً الرسول الإلهي بولس في إحدى رسائله (٢تي ٢:٤) عن أولئك الذين يحاربون في الجسد: «ليس أحدٌ وهو يحارب يرتبك بأعمال الحياة لكي يُرضي مَنْ جنَّده». لأنه ليس من محارب يذهب إلى المعركة وهو محمَّلٌ بأشياء زائدة عن الحاجة؛ بل فقط تلك المعدات الضرورية واللازمة لِمَنْ أُنيط بهم مهمة القتال.

+ إذاً، يليق بالقديسين، كأناس وُضع عليهم أن يجاهدوا ليس فحسب مقابل «دمٍ ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة عالم ظلمة هذا الدهر، مع أرواح الشر المنبثّة في الهواء» (أف ٦:١٢ – حسب النص المترجم)، يليق بهم أن يمنطقوا حسناً حَقْوَي ذهنهم (أي يكونوا صاحين روحياً)، حتى لا تفاجئهم الضربة القاتلة التي لأولئك الخصوم الذين يقاومونهم ويحاربون ضد رسالتهم وكرازتهم. ومن اللائق بهم أيضاً أن يكونوا ذوي غرض واحد مستقيم في حياتهم، بمعنى أن يفكِّروا ويسعوا فقط فيما يرضي الرب، وأن لا يسمحوا بأن يتسرب إليهم شيء من همِّ العالم؛ بل إذ يكونون كلهم مقدَّسين بالتمام وبلا عيب يجعلون حياتهم ذبيحة مقبولة لدى الله. لأنه مكتوب أن «كل تقدمة كاهن تُحرَق بكمالها» (لا ٦:٢٣)، لأن حياة أهل العالم "منقسمة" بسبب اهتماماتهم الكثيرة بحسب تعبير القديس بولس (١كو

٣٣:٧)؛ أما حياة القديسين فليست كذلك، إذ أنهم كرَّسوا حياتهم بالكامل وتقدَّسوا تماماً للرب (روحاً ونفساً وجسداً)، مقدِّمين ذواتهم محرقاتٍ طيِّبة الرائحة لدى الله، وهذا هو ما نعنيه بـ «محرقة كاملة» أو «تُحرَق بكمالها».

+ ولكن إذا وُجد شيء ما غير مقدس في أيٍّ منهم (أي من القديسين) فإنه يلوِّث الذبيحة، ويُفسِد رائحتها الزكية إذ يختلط النجس بالطاهر. فمحبة المال (على سبيل المثال) إذا تسرَّبت إلى حياة القديسين، فهي تكون كشيء رديء الطعم (أو الرائحة)؛ كذلك القلق من أجل أمور الجسد، لأن الله في كل مكان (وزمان) قد وعد القديسين أنهم لن يكونوا في عَوَز إلى شيء. فإذا كنَّا لا نصدق أنه كفيلٌ بأن يمنحنا هذه، فقد صرنا شركاء اليهود في عدم إيمانهم. لأنه عندما أخرج الله الكلي القدرة لهم من الصخرة ماء بطريقة إعجازية فائقة، تذمَّروا عليه قائلين: «هل يقدر الرب أن يرتب مائدة في البرية» (مز ٧٨:١٩)؟ ولماذا لا يقدر؟ ولماذا لا يُعطي ما قد وعد به؟ لأنه إذا كان الناس ذوو السجايا الحميدة يكونون دائماً أوفياء بما تنطق به أفواههم، فكيف يكون الله الذي هو أسمى من الجميع غير صادق فيما وعد به؟ بل إن البشر (مهما سمَت أخلاقهم) قد يُقصِّرون في غالب الأحيان في إيفاء ما تعهدوا به من إسداء شيء من الخير بسبب عجزهم (الطبيعي). أما مَنْ لايشوبه ضعفٌ؛ بل هو رب القوات، الذي يفعل ما يريد، وهو يريد بلا أدنى مشقة وبكل سهولة، كيف لا يتمم كل ما يَعِدُ هو به للبشر؟

+ إذاً، «مُلْقين كل همِّنا عليه» (١بط ٥:٧)، فلْنسأله (تمجَّد اسمه) من جهة احتياجاتنا الجسدية ما يقوم فقط بأَوَد الحياة من قوت وكسوة، متجنبين كل رغبة في حب الثراء، لأن ذلك يهدِّد حياتنا (الروحية) بالدمار. فإذا ثبتنا على هذه النية، رضي المسيح عنّا وباركنا؛ به ومعه لله الآب، التسبيح والسلطان، مع الروح القدس، إلى أبد الأبد، آمين.

* * *

«واغفر لنا ذنوبنا،
كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا»

+ إن إشعياء النبي المبارك عندما كان يعلن طريق الخلاص عن طريق الإنجيل العتيد أن يُستعلن، نطق هكذا قائلاً في موضع ما من سِفْرِ نبوّاته: «وتكون هناك طريق سوية يُقال لها الطريق المقدسة» (إش ٣٥:٨)، لأنها تقود أولئك الذين يسلكون فيها إلى القداسة بعبادة روحية وبرٍّ يفوق الناموس.

+ ويحضرنا كذلك ما يقوله المخلِّص لِمَنْ يحبونه: «الحقَّ أقول لكم: إن لم يَزِدْ برُّكم على الكتبة والفريسيين، فلن تدخلوا ملكوت الله» (مت ٥:١٠). إنه من اللائق لِمَنْ دُعُوا بالإيمان إلى معرفة مجد المسيح مخلِّصنا وقد اتخذوه مثالاً أعلى لهم؛ أن يُسَرُّوا بالاقتداء بأعماله، وأن يكونوا غيورين بأن يضيء نورهم

بالسيرة المقدسة التي كانوا يجهلونها سابقاً قبل أن يأتوا إلى الإيمان «لأن مَنْ كان في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكل قد صار جديداً» (٢كو ٥:١٧). فالرب يطلب من تلاميذه أن يكونوا ودعاءَ متسامحين، حتى يمكن أن يكون لهم الدالة أن يقولوا بلا ملامة في صلواتهم: «اغفر لنا آثامنا؛ لأننا نحن أيضاً نغفر لكل مَنْ أساء إلينا».

+ يا لِعظَم حكمة الله العجيبة وعمق وغِنَى معرفته الفائقة؟ إنه يطلب منهم أن يسألوه الصفح عن ذنوبهم التي ارتكبوها، بشرط أن ينووا هم أن يصفحوا كذلك وتماماً للآخرين ذنوبهم؛ وكأنهم يطالبون الله أن يطيل أناته عليهم كما يفعلون هم أيضاً مع الآخرين؛ وأن يعاملهم بمثل اللطف الذي يمارسونه هم مع العبيد رفقائهم. إنهم يتوسلون أن ينالوا نفس الكيل من الله، الذي يجازي بعدل، ويعرف كيف يُظهر الرحمة لكل مَنْ يعمل الرحمة.

+ فتعالوا بنا نسعى جادين لندرك بوضوح أكثر معنى هذه الصلاة؛ بالتعمق في هذا النص الذي أمامنا.

+ فكما قلت: إن الرب أوصانا عندما نتقدم إليه (بالصلاة التي علّمنا إياها) أن نقول: «اغفر لنا ذنوبنا». فلنتأمل معاً فحوى هذه العبارة لنجتني ثمارها المطلوبة: فالذين يتوسلون إلى الرب هكذا، فإنهم لا يمكن بطبيعة الحال أن يكونوا متشامخين، أو يرتأوا في أنفسهم أموراً عظيمة، ولا يمكن أن يتعالوا على الضعفاء؛ بل كما يقول الكتاب: «هم قضاة لأنفسهم» (أم ١٣:١٠ – بحسب السبعينية). فَهُم ليسوا مثل ذلك الفريسي المُدَّعِي المتعالي، الذي

يتجاسر حتى على أن يُشْهِد الرب نفسه (على أعمال برِّه الشخصي)، بحسبما يقول ذلك المثل (الذي في الإنجيل): «إنسانان صعدا إلى الهيكل ليصليا، واحدٌ فريسي والآخر عشار. أمَّا الفريسي فوقف يصلي في نفسه هكذا: اللهمَّ أنا أشكرك أني لست مثل باقي الناس الخاطفين الظالمين الزناة، ولا مثل هذا العشَّار؛ أصوم مرتين في الأسبوع وأُعشِّر كل ما أقتنيه. وأمَّا العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء؛ بل قرع على صدره قائلاً: اللهمَّ ارحمني أنا الخاطئ. أقول لكم (يقول الرب يسوع) إن هذا نزل إلى بيته مبرَّراً دون ذاك» (لو ١٨:١٠-١٤).

+ فانظر كم هو مُهلك للنفس أن يعتزَّ الإنسان بذاته ويتباهى على مَنْ هم ضعاف، متوهِّماً أن سيرتنا غير جديرة بالملامة على الإطلاق. وإنما ينبغي علينا أن نضع في اعتبارنا على الدوام «أننا في أشياء كثيرة نعثر جميعنا» (يع ٣:٢). بل ويمكننا أن نقول إننا دائماً نخطئ ولو بغير إرادتنا، لأنه مكتوب: «السهوات مَنْ يشعر بها»، وها هو مُنْشِدُ المزامير المغبوط يتوسل إلى الله برغبة حارة وبصراحة تامة قائلاً: «من الخطايا المستترة أبرئني، ومن المتكبرين احفظ عبدك فلا يتسلطوا عليَّ، حينئذٍ أكون بلا لوم وأتبرَّأ من ذنب جسيم» (مز ١٩:١٣). وكذلك أيضاً أيوب، الذي كان مثالاً عظيماً في الصبر، نراه يقدِّم ذبائح عن خطايا أبنائه، المجهولة أو بالأحرى غير المُدْرَكة، متبصِّراً فيما يفعلون قائلاً: «ربما أخطأ بنيَّ وجدَّفوا على الله في قلوبهم» (أي ١:٥). ونذكر أيضاً بولس ذا الحكمة العالية الذي عندما كتب قائلاً: «فإني لست

أشعر بشيء (من الخطأ) في ذاتي»، استدرك قائلاً بفطنة: «لكنني لست بذلك مبرَّراً؛ ولكن الذي يحكم فيَّ هو الرب.» (١كو ٤:٤)

+ إذاً، من النافع لنا جداً وعلى الدوام أن نَخُرَّ ساجدين أمام الله الذي يحب كل ما هو صالح ونقول: «اغفر لنا ذنوبنا»، فهو قد قال بفم أحد أنبيائه القديسين: «أقِرَّ أولاً بتعدياتك وأنت تتبرر» (إش ٤٣:٢٥و٢٦). وإذ لم يكن هذا المبدأ مجهولاً لدى المغبوط داود، فقد أنشد هكذا في مزاميره قائلاً: «قلتُ أعترف للرب بذنبي، وأنت رفعت إثم قلبي» (مز ٣٢:٥ - بحسب السبعينية). لأن الله سريعاً ما يرضى على الإنسان، ويترأف على مَنْ لا يتناسون ذنوبهم؛ بل يتواضعون أمامه ويسألون غفرانه: إلا أنه شديد بحق وعدل على قساة القلوب والمتكبرين، وعلى كل مَنْ يسعى بمنتهى الجهل أن يبرئ نفسه من أيِّ ملامة. فالرب قد قال لِمَنْ هو على مثال هذه الحال: «ها أنذا أُحاكمك لأنك قلتَ لم أخطئ» (إر ٢:٣٥). لأنه مَن يمكنه أن يفتخر بأن له قلباً نقياً (من كل عيب)؟ أو مَنْ يقدر أن يجرؤ ويقول أنه بريء من الخطايا؟

+ إذاً، فالطريق المؤدي إلى الخلاص، والذي ينقذ السائرين فيه باجتهاد من السخط الإلهي، هو الإقرار بالذنوب، وأن نقول في صلواتنا لِمَنْ يبرر الأثيم: اغفر لنا آثامنا.

+ هناك أيضاً طريق نافع لنا: فأولئك الذين يعترفون بحق أنهم قد أخطأوا، ويتوقون أن ينالوا الصفح من الله، فهؤلاء بالضرورة سيهابونه باعتباره مزمعاً أن يكون ديَّاناً لهم. فَهُم لا يمكنهم أن ينسوا أنهم سيقفون أمام كرسي دينونة

الله الرهيب. وكما يكتب بولس الفائق الحكمة: «لأنه لابدَّ أننا جميعاً نُظْهر أمام كرسي المسيح لينال كل واحدٍ ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً» (٢كو ٥: ١٠). أما أولئك الذين يضعون في اعتبارهم أنهم لابدَّ أنهم سيقفون أمام كرسي الديَّان، ويعطون حساباً عمَّا فعلوا، وأنهم إذا أُخذوا بجريرةٍ ما، فسوف يقاسون أمرَّ العذاب، أو سيكرَّمون إذا ما كانوا قد سلكوا سلوكاً حميداً وعاشوا حياة فاضلة في الجسد على الأرض؛ مثل هؤلاء سيتوقون إلى الصفح عمَّا ارتكبوا من خطايا حتى ينجوا من العذاب الذي لا نهاية له والعقوبة الأبدية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنهم يهتمون بأن يحيوا باستقامة ويسيروا سيرة لا عيب فيها، حتى يمكنهم أن ينالوا الإكليل اللائق بحياتهم الفاضلة. لأنه بهذا سيتلطف بهم الديَّان (العادل)، ولن يذكر لهم شيئاً مما عملوه من سيئات، فالرب يقول: «والشرير لا يعثر بشره عند توبته عن إثمه.» (حز ٣٣: ١٢)

+ ولكن لا يتوهم أحد، أنه يحق لكل الناس بلا تفرقة أن يقولوا: «اغفر لنا آثامنا»، فإنه لا يليق بمَنْ يستمرئون البقاء في شرورهم أن يقولوا: «اغفر لنا ذنوبنا»؛ بل لِمَنْ تخلَّوْا عن رذائلهم السابقة راغبين بكل اشتياق أن يحيوا كما يليق بقديسين. وإلا فلا شيء يمنع فَعَلة الشر، ضاربي الآباء وقاتلي الأمهات، والفاسقين، والسحرة، وكل مَنْ ارتكب مثل هذه الجرائم الأشد شناعة، أن يستمرئ فعلها ويعزز وجود دوافعها الشريرة كما هي بدون تغيير، ويتبع هواه إلى كل فعل نجس ودنيء، ثم يتقدم إلى الله بجسارة ويقول:

«اغفر لنا ذنوبنا»؛ فإن مخلِّص العالم ورب الكل (عندما علَّم تلاميذه الصلاة الربانية) لم يختم هذه العبارة عند هذا الحد؛ بل أمرنا أن نضيف قائلين: «لأننا نحن أيضاً أنفسنا قد تركنا لكل مَنْ هو مديون لنا (بمعنى أساء إلينا)»، فإن هذا لا يتناسب إلا مع الذين قد اختاروا لأنفسهم الحياة الفُضْلَى، وساروا بلا تراخٍ في طريق مشيئة الله، تلك التي هي – كما يقول الكتاب – «صالحة ومرضية وكاملة» (رو ١٢: ٢). هؤلاء يتحلُّون بطول الأناة ويبرئون أولئك الذين أساءوا إليهم من كل عيب، وحتى إذا ما ضايقهم أحد فإنهم لا يعاودون التفكير في شيء مما أَلَمَّ بهم. فالحِلْمُ هو فضيلتهم المكرَّمة، وهو في نفس الوقت ثمرة المحبة التي قال عنها بولس الرسول الحكيم (الروحاني) أنها: «تكميل الناموس.» (رو ١٣: ١٠)

+ ثم تأملوا معي في حُسْن هذه الفضيلة الفائق ولو بالمقارنة مع قُبح الرذيلة المضادة لها (على حسب المبدأ العام أن الأشياء تُعرف من أضدادها). لأن الغضب في الواقع هو مرض خطير ومَنْ استسلم له بفكره صار إنساناً حاد الطبع، نَكِداً، عنيفاً وعنيداً، ومرتعاً خصباً للغضب والهياج (لأتفه الأسباب)؛ وإذا ما استمر المرء على هذه الحال وقتاً طويلاً لكان من الصعب شفاؤه؛ بل وأكثر من ذلك نجده دائماً ينظر بعين شريرة لكل مَنْ أساء إليه. فهو يترقبه بحقد شديد، متطلعاً إلى: متى وأين يمكنه أن يُلحِق الضرر به، وهذا في أغلب الأحيان لا يكون كيلاً بكيل؛ بل مرات كثيرة يكون الانتقام أشدُّ من الإساءة بكثير، إن مثل هذا الإنسان لا يكفُّ عن تدبير المكيدة في الخفاء.

ألا يكون مثل هذا قد عرَّض نفسه لكل العيـوب؛ بـل ومُبغِضـاً لله ومرفوضـاً منه؛ وبالتالي يكون في غاية البؤس؟ كما هو مكتوب «أما سُبُل الغضب فهي إلى الموت.» (أم ١٢:٢٨ – حسب السبعينية)

+ ولكن الإنسان البسيط القلب غـير الغضـوب يتّسـم بالاحتمـال، إلا أن الاحتمال الذي يمارسه البشر، ليس بنفس القدر كالذي يأتي مـن فـوق ومـن الله. فإنسان الله لا يستسلم قلبُه لإنفعال الغضب؛ بل يسود عليه ويتحكم في نفسه أمام كل استثارة مُكدِّرة تنشأ فيه. إنه صفوح وعطوف مع كل رفقائه، لطيف وودود ومترفق بالضعفاء – وهذه كانت سجايا تلاميذ المخلِّص – وها هو المغبوط بولس يكتب قـائلاً: «نُشْـتَم فَنُبـارِك، نُضطَهـد فنحتمـل، يُفْـتَرى علينا فنتوسل (من أجـل المفـترين علينـا)» (١كـو ٤:١٢و١٣)، لأنهـم تمثلـوا بربهم «الذي إذْ شُتِم لم يكن يَشتِم عوضاً، وإذ تألَّم لم يكن يُهـدِّد؛ بـل كـان يسلِّم لِمَنْ يقضي بعدل.» (١بط ٢:٢٣)

+ فنحـن، إذاً، ينبغـي علينـا أن نطلـب مـن الله مغفـرة خطايانـا الـتي ارتكبناها، إذا ما نحن أنفسنا قد سبقنا وغفرنا لِمَنْ أساء إلينا في شيء، بشـرط أن تكون خطيتهم ضدنا وليس ضـد مجـد الله الكـائن علـى الكـل. لأن هـذه الأخيرة (أي التي ضد مجد الله)، ليس لنا سـلطان عليهـا؛ بـل علـى تلـك الـتي تكون قد ارتُكِبت ضدنا نحن، وبالصفح عن إخوتنا عمَّا عملوه في حقنا يقينـاً سنجد المسيح مخلِّص الجميع مترفقاً بنا، مسـتعداً أن يُظهـر لنـا رأفتـه (في كـل

وقت): الذي به ومعه لله الآب التسبيح والسلطان، مع الروح القدس إلى أبد الآبدين آمين.

«ولا تُدْخِلْنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير»

+ هلموا بنا يا جميع مَنْ تحبون أن تكملوا المشيئة الإلهية، ويا مَنْ تشتاقون بغيرة حارة أن تسلكوا حياة لا عيب فيها، لنتقرب إلى الله الكائن على الكل، ونتوسل إليه قائلين: «طُرُقَكَ يا رب عرِّفْني. سُبُلَكَ علِّمني» (مز ٢٥: ٤). لأن كل حكمة وفهم هما منه، ومعرفة كل صلاح تأتينا من فوق صادرة من عرش النعمة الإلهي؛ كما من ينبوع ماء جارٍ لا ينضب أبداً، ولا يمكن لإنسان أن يكمل أي عملٍ حميدٍ ما لم يأخذ القدرة على ذلك منه - تمجد اسمه - وهذا ما يعلِّمنا إياه الرب نفسه قائلاً: «بدوني لا تقدرون أنْ تعملوا شيئاً». فالرب الذي يعطي كل إنسان كل الأشياء التي تؤدي بحق إلى مجده، هو الذي يقودنا الآن إلى واحدٍ من هذه الأمور الهامة لخلاصنا. فهو يوصينا عندما نقف للصلاة أن نقول: «لا تُدْخِلْنا في تجربة».

+ بهذه الطلبة يختم القديس لوقا (في إنجيله) الصلاة الربانية، أما القديس متى فنجده يضيف: «لكن نجنا من الشرِّ (أو الشرير)»، ولابدَّ من علاقة

متوارية في كلا النصين: فمن الواضح أنَّ مَنْ لا يُدْخَلون في تجربة، أنهم أيضاً يُنَجَّوْنَ من الشرير...

+ ولكن لنتأمل في هذا: هل يرضى مخلِّصُ وربُّ الكل لأحبائه أن يكونوا جبناءَ؟ أو أن يكونوا قاعدي الهمة ومتخاذلين، مفضِّلين بالأحرى أن يتجنبوا المباراة من أن يفوزوا بإكليل المجد؟ إلا أن الروح القدس يقول في سفر المزامير: «تشدَّدوا، ولتتشجَّع قلوبكم، يا جميع المتكلين على الرب» (مز٣١:٢٤)، والمخلِّص نفسه يقول في موضع ما: «طوبى للمضطَهَدين من أجل البر، لأنَّ لهم ملكوت السموات» (مت ٥:١٠). فإذا كان الرب يتوِّج بمثل هذه الكرامات ذاك الذي يُضْطَهَد، والاضطهاد هو بلا شك محنة (أو تجربة) للإنسان، فبأي معنى يوصيهم الرب، إذاً، أن يتفادوا التجربة؟ إن الذين يدخلون المباريات الرياضية ويوجَدُون مستحقين للتكريم وتصفيق الأيدي لا يحصلون على ذلك من فراغ ولا بدون بذل مجهود، أو وهم نائمون على بساط الراحة؛ بل بعد كدٍّ وعناء شديدين في تدريبات عنيفة. كذلك ليس في وقت السِلْم يُعرف الرجل المتضلع جيداً في فن «التكتيك» الحربي، ولا الشجاع المحنَّك في المعارك؛ بل عندما يُرَى هذا الإنسان مُنازلاً شديد البأس مقابل عدوِّه. فإذا كان الأمر كذلك فلماذا نرى الرب وكأنه يعوِّق محبيه (عن الدخول في الجهاد) بجعلهم يقولون: «لا تُدخلنا في تجربة»؟

+ نُجيب على هذا بقدر ما يمكننا من فهم، فنقول: إن الرب لم يُرِدْ لتابعيه أن يكونوا مُستضْعفين أو كسالى في أي طريق (صالح) يسلكون فيه، حتى إنه

يستحثهم أن يكونوا ذوي بأس في كل أمر حميد قائلاً لهم: «ادخلوا من الباب الضيق. لأنه ما أضيق الباب وأعسر الطريق الذي يؤدي إلى الحياة الأبدية، وقليلون هم الذين يجدونه» (مت ٧:١٣و١٤). فينبغي إذاً أن يكون لنا غيرة روحية قوية ودائمة وطول أناة مع فكرٍ ثابت لا يتزعزع (في الملمات مهما كانت)، هذا ما كان عليه المغبوط بولس عندما قال: «مَنْ سيفصلنا عن محبة المسيح. أشدَّة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عُرْيٌ أم خطر أم سيف» (رو ٨:٣٥).

+ ولكن حتى إذا ما تسلَّحنا بهذه النية وبلغنا إلى هذه المعايير من الشجاعة إلا أنه ينبغي علينا ألاَّ نعتبر أنفسنا شيئاً؛ بل أن نكون «مساكين بالروح» حسب قول المخلِّص (مت ٥:٣)، وألاَّ نتصوَّر دائماً أننا حتماً سنتغلب على كل التجارب. لأنه أحياناً قد تداهم عقل الإنسان رُعْبة لا تُطاق تَنْزِلُ به إلى أشد أنواع المخاوف، كما يفعل الشيطان المبغِض لكل خير؛ وإن عنف التجربة أحياناً قد يَهُزُّ عقل أشد الناس شجاعة كما تفعل كذلك لطمات الأمواج العنيفة التي لا تُطاق فتحطِّم أمتن السفن بناءً وأكبرها حجماً. وهكذا يفعل عدد كثيف من القذائف تُرشق بيدي العدو من شأنها أن تجعل أشدَّ الجنود بسالةً يُولِّي الأدبار.

+ إذاً، لا ينبغي لأحد أن يطمئن لنفسه غير مبالٍ بمصادمة التجارب، مهما كان شجاعاً رابط الجأش؛ بل لنعرف وهن تفكيرنا وليكن لنا مخافة واعية،

لئلا نكون مثار سخرية أمام مناوئينـا، بكوننـا غـير قـادرين علـى تحمُّـلِ شـدة القتال.

+ إذاً، فلنصلِّ أن لا نُجرَّب، لأنه أمر صعـب أن نفـرَّ مـن التجربـة، وإنـه لأمر متعذر على الغالبية العظمى مـن النـاس أن يصمـدوا فيهـا. ولكـن إذا مـا دعت الضرورة وأُلقينا فيها رغماً عنا، فلابدَّ أن ندخل المعركـة بـاذلين أقصـى جهدنا ونصـارع مـن أجـل (خـلاص) نفوسـنا، غـير هيَّـابين شـيئاً البتـة؛ بـل مسترجعين في وعينا ما قاله لنا المسيح مخلِّص وربُّ الكل: «لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوهـا. بـل خـافوا بـالحري مـن الذي يقدر أن يُهلـك النفس والجسـد كليهمـا في جهنـم» (مـت ١٠ :٢٨). وكما كتب أيضاً ذلك الرسول القديس قائلاً: «طوبـى لـلرجل الـذي يحتمـل التجربة. لأنه إذا تزكَّى ينال إكليل الحياة الذي وعد به الرب الذيـن يحبونـه.» (يع ١ :١٢)

+ هناك، على أي حال، أنواع عديدة من التجارب: منهـا اثنتـان عامتـان وشائعتان ومنتشرتان جداً في كل مكان؛ ومن اللائق بنا أن نوقفكـم عليهمـا. ففي العالم توجد هرطقات (شِيَع) كثيرة: رسلٌ كذبة، معلِّمون كذبـة، الذيـن يحشون عقولهم ويثقلـون ذواتهـم بعلـل بـدع جافـة لا روح فيهـا، مفتخريـن بمعرفة فنون حكمة هذا الدهر، يزيِّفـون لغـة الاستعلانات الإلهيـة (المدوَّنـة في الكتب المقدسة)، ويكثرون من أقوال التجديف مغالطين أنفسهم. وكما يقول المزمور: «يرفعون إلى العُلا قَرْنَهـم متكلمـين بـالإثم ضـد الله» (مـز ٧٥ :٥)،

أجل، وضد الله الكلمة خالق الكل. الذي – بحسب زعمهم – يعتبرونه شيئاً ما ضمن تلك الأشياء، التي لم يكن لها وجود في الواقع إلاّ به؛ بل ويقولون إنه عبدٌ (خادمٌ) وليس ابناً؛ بل واحدٌ من الخلائق وليس ربًّا. وهؤلاء إذ يقاومون المناضلين من أجل الحق، يضطهدون الصفوة التي اختارت التمسك بالتعليم الصحيح، والذين يدافعون عن الإيمان المجيد («المسلّم مرة للقديسين»)، والذين يسعون أن يعطوا المجد ويقدّموا التسبيح بأسمى عبارات التقديس لكلمة الله الوحيد. فعندما تقابلك تجربة من هذا النوع لا تطرح عنك درعك، ولا تكن كجندي يفرُّ من المعركة، أو كمصارع يتخلى عن دُرْبَتِهِ وشجاعته.

+ لا تودّ سلاماً في غير أوانه (أو راحة قبل ميعادها)، وإلا كان هذا سبباً في دمار عاجل؛ بل تذكّرْ ما قاله مخلِّص الكل: «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض. ما جئتُ لأُلقي سلاماً بل سيفاً» (مت ١٠:٣٤). وحتى إذا ما كان للمضطهِدين سلطان دنيوي، فلا تَخَفْ من الأذية التي يمكنهم أن يلحقوها بك، حتى ولو وَصَلَتْ إلى سفك الدم والمغامرة بالحياة. لكن تذكر أيضاً نصيحة الرسول القديس الذي يقول: «فإذاً الذين يتألمون بحسب مشيئة الله، فليستودعوا أنفسهم كما لخالق أمين» (١بط ٤:١٩)، وأيضا: «فلا يتألم أحدكم كسارق أو فاعل شر أو متداخل في أمور غيره؛ ولكن إن كان كمسيحي فلا يخجل؛ بل يمجّد الله من هذا القبيل.» (١بط ٤:١٥و١٦)

+ إنها لحقيقة (روحية) واقعة: أننا إن كنّا نتألم ظلماً من أجل اسمه، فسَنُحْسَبُ مستحقين للأمجاد الأبدية. فالجهاد لن يكون بلا مكافأة، والمعاناة

(في سبيل الله أو القريب) لن تذهب سدىً؛ فكما قال القديس بولس: «لأن الله ليس بظالم حتى ينسى عملكم وتعب المحبة التي أظهرتموها نحو اسمه» (عب ٦: ١٠). فمثل هذه المصادمات قد وُضِعَتْ على كل الذين يتّقون الله، لتبيِّن مَنْ هو الذي يعرف كيف يتحمل (الضيقات) بصبر حتى النهاية. فالشهداء المغبوطون قد فازوا بأكاليل البر بعد أن «جاهدوا الجهاد الصالح وأكملوا سعيهم، وحفظوا الإيمان.» (٢تي ٤: ٧)

+ ثم إن هناك أنواعاً أخرى من التجارب بجانب هذه العامة يمكننا أن نقول إنها تأتي على كل واحدٍ تقريباً، ولكنها تختلف من واحد لآخر. فكما يقول واحدٌ من الرسل القديسين: «لا يقل أحدٌ إذا جُرِّب: إني أُجرَّب من قِبَل الله. لأن الله غير مُجرَّب بالشرور، وهو لا يُجَرِّب أحداً. ولكن كل واحدٍ يُجرَّب إذا انجذب وانخدع من شهوته. ثم إن الشهوة إذا حبلت تلد خطية، والخطية إذا كملت تنتج موتاً.» (يع ١: ١٣-١٥)

+ إذاً، فهو جهاد محفوف بالخطر الجسيم قد وُضِعَ على كل واحدٍ (مسيحي) حتى ينزلق إلى الخطية وينحرف عن جادة الصواب تائهاً في ارتكاب الأعمال المسيئة لنفسه وللآخرين. عنيفة هي سطوة الشهوات، ومثيرة لحروب جمة وأهواء شرسة دنيئة وعديدة تشدُّ فكر الإنسان إلى الحضيض إذا ما استسلم لها.

+ فالبعض قد ينغلبون من الشهوة الجسدية وينحرفون إلى أحطِّ أنواع الفساد، وآخرون قد ينساقون في حب جمع المال إلى أن يصيروا فريسة

للاكتناز الخسيس (بطرق غير مشروعة) قد تقودهم أخيراً إلى أشنع الجرائم. فحسناً يليق بنا نحن المُحاطين بمثل هذه الشرور الخطيرة، حتى ولو لم نكن قد وقعنا فيها بعد، أن نصلي قائلين: «لا تُدْخِلْنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير»، لأنه جيد للإنسان (السائر في طريق الله) أن يكون بمنأى عن كل شر.

+ أما إذا اقْتَحَمَتْك التجربة (رغماً عنك)، فكن صنديداً لا يُقهر؛ اقمع الجسد، وأَلْجِمْ العقل، واطلب المعونة من الله، فتحوز الأمان بقوة تُمنح لك من الأعالي. تشدد وتقوَّ ولا تكن ضعيفاً سهل الوقوع في فخاخ العدو؛ بل حَذِراً واعياً، محبًّا لله أكثر من حبك لأي مسرَّةٍ أخرى. فحينئذٍ يعينك ويهبك النصرة، لأنه مخلِّص ورب الكل. به ومعه، لله الآب، الحمد والربوبية، مع الروح القدس، إلى أبد الأبد آمين.

القديس كيرلس الكبير



«اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرَّه،
وهذه كلها تُزاد لكم»
(مت ٦: ١٩-٣٤)

• **إنه لا يمكن أن نخدم سيِّدين هما على طرفي نقيض.**

«لا تكتنزوا لكم كنوزاً على الأرض...»:

إذ يوصينا الرب هنا ألا نكترث بأمجاد الدنيا ولا بغناها البشري الزائل، يُشير علينا أن يكون جُلُّ اهتمامنا أن يُبْذَل في إرضاء الله، لأن الجاه البشري تفسده الشهوات الجسدية أو بغضة الحاسدين، والكنز الأرضي هو عرضة دائماً للتلف أو الضياع؛ أما المجد السماوي فهو أبديٌّ ولا يمكن أن يُختلس أو تصيبه عوامل الفناء أو ترمقه عين الحسد، ومركز القلب يلزم أن يكون في أحد المكانين، حيث يضع كنزه (إما في الأرض أو في السماء). ونور البصيرة إما أن يكون مُنْكَبًّا على المال علّة الدمار أو منشغلاً بالله، فيكون له الحياة الأبدية.

«سراج الجسد هو العين...»:

مفهوم الكلام يأتي في نفس المعنى السابق؛ فعلى أساس وظيفة العين يرتسم النور في القلب، فإذا ظلَّ القلب نقياً صافياً (في داخل الإنسان دون أن تعكره أية شهوات أو انفعالات خاطئة)، فإنه يملأ الكيان البشري بأشعة النور الأبدي؛ بل ويفيض من نبعه على طبيعة الجسد الفاني ببريقه الساطع. أما إذا غُشي هذا النور الداخلي بدُجى الآثام وتشوش بسبب اختلال الإرادة، فإن طبيعة الجسد ستخضع صاغرة للميول الفاسدة التي للنفس. وإذا صار النور الذي فينا ظلاماً، فكم يكون الظلام نفسه في حد ذاته، لأن الفساد الذي أصاب الجسد الأرضي في الصميم يبدأ بفرض سلطانه الخطير على أصالة النفس، وتصبح خطايا الجسد أكثر ثقلاً وضغطاً إذا ما ساندتها شهوات النفس. وهذا ما يجعل بالضرورة أجسادنا كثيفة الظلمة (أي مثقّلة بالشهوات) أكثر مما تطيق الطبيعة (أي تتعدى حتى طبيعتها)، ذلك إذا ما انطفأ فيها نور الضمير. أما إذا حفظناه بخلوص النية وسلامة الطويّة (أي إذا اتبعنا إيحاءات الروح الطيبة)، فإن نوره (الذي هو استنارة الضمير) لابد أن يشمل الجسد أيضاً (فيحفظه من كل انحراف نحو أعمال الظلمة).

«لا يقدر أحدٌ أن يخدم سيدين»:

الخضوع لسيدين هو خداع، والإنسان الواحد لا يمكن أن يكون له همٌّ بالعالم (أي بشهواته) وبالله على حدٍّ سواء. ينبغي أن يمقت الواحد ويحب الآخر. لأن ذات الأعمال الخاصة بكل سيد، العالم أو الله، لا تتوافق مع

الأخرى، ولأن المساكين بالروح، المرضين لله، لا يعرفون أن يتوافقوا مع مفاخر هذا العالم وأطماحه (الزائلة).

«لذلك أقول لكم لا تضعوا همًّا في قلوبكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللُّباس؟»:

في كل ما تقدَّم يوصينا (الرب) بأن نزهد في أمور هذه الدنيا، ونضع رجاءنا الوطيد في حياة الدهر الآتي. وعندما يشير علينا أن نكون على أُهبة الاستعداد لتحمُّل الظلم وخسران كل شيء عن رضىً، متغاضين عن الانتقام لأنفسنا، محبين للكل دون تحيُّز، غير مكترثين بأمجاد الدنيا، فإنما غاية الرب من ذلك أن يستحث فينا الرجاء بالخيرات (العظمى) العتيدة.

+ إن الكَلَف بمباهج الحياة الحاضرة، وعدم الرجاء في الحياة الفُضْلى والباقية إلى الأبد؛ من شأنه أن يجعل الكثيرين من الناس مرتابين ومنخدعين بتحقيق الرغبات الأرضية أو قَلِقي الفكر بسبب عدم الإيمان.

+ إذاً، فملكوت السموات الذي أنبأ به الأنبياء وبشَّر به يوحنا المعمدان والذي أعلن عنه الرب أنه كائن فيه، لا يمكن أن يُطْلَبَ بإرادة منقسمة مُتَقلِّبة، وإلاَّ فإنه إذا كان الإيمان نفسه في ريبة فلن يكون هناك تبرير بالإيمان. فالرب يريدنا ألاَّ نحمل همَّ الكساء أو القُوت، بقوله إن النفس أرفع قدراً من الطعام، والجسد أكثر قيمة من اللباس.

+ إنه من اليقين بمكان أن الزهد في أمور الحياة الحاضرة من شأنه أن يجعلنا أن نداب بالتمام على الاهتمام بالأمور الإلهية؛ بل إن قول الرب يحثنا على أن نسمو بأفكارنا لكي نبلغ إلى فهم المقاصد السماوية. فالرب يدعونا أن نودِع في السماء كنزنا، وقد وعدنا ببهاء النور الذي يأتي عن طريق العين حتى للجسد أيضاً، وبعد ذلك أكّد أنه لا يمكن لأحد أن يرضي سيدين (هما على طرفي نقيض)؛ بعد ذلك قال: «لذلك أقول لكم: لا تهتموا (بمعنى لا تقلقوا) لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون. ولا لأجسادكم بما تلبسون».

القديس هيلاريون أسقف بواتييه

* * *

• طلب ملكوت الله هو غايتنا العظمى، أما طلب ضروريات الحياة الجسدية فيأتي في المقام الثاني.

«انظروا إلى طيور السماء... فلا تهتموا (تقلقوا) قائلين: ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس... لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها. لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه وهذه كلها تُزاد لكم»:

هنا يبين الرب بكل وضوح أن هذه الأمور لا ينبغي أن نَجدَّ في طلبها، كما لو كانت غاية في حد ذاتها نعمل بكل قوتنا للحصول عليها؛ بل لمجرد كونها فقط ضرورة (تدعو إليها طبيعة الجسد الذي نلبسه). لأن الفارق بين

الغاية التي نسعى إليها والوسيلة التي تدعو إليها حاجة الطريق قد أوضحه الرب عندما عبَّر عن ذلك قائلاً: «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرَّه، وهذه كلها تُزاد لكم» (مت ٦:٣٣). فملكوته وبرُّه هو مطلبنا الأول والغاية التي يجب أن نعمل بكل جهدنا وبكل ما أُوتينا من قوة في سبيل الوصول إليها.

ولكن لأننا نعمل كجنود في مسيرة هذه الحياة لكي نقدر أن نبلغ إلى ذلك الملكوت، ولأن حياتنا (على الأرض) لا يمكن أن تقوم بدون هذه الضروريات، لذا يقول الرب: «إن كل هذه ستُزاد لكم»، ولكن: «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره». لأنه بقولِ الرب «أولاً»، دلَّ بذلك على أن هذه الأمور ينبغي أن تُطلب فيما بعد، لا من جهة الزمن ولكن من حيث الأهمية. فالمطلب الأول هو خيرنا الأسمى، أما المطلب الآخر فهو كشيء ضروري فقط نحتاج إليه في مسيرتنا نحو ذلك الخير.

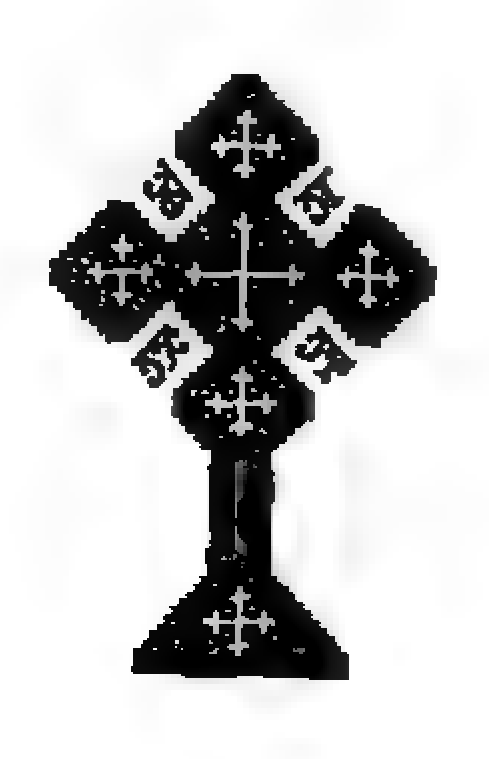
+ وعلى سبيل المثال: لا يليق بنا (ككارزين) أن نبشر بالإنجيل لكي نحصل على القوت؛ بل إننا نقتات لكي نقدر أن نواصل كرازتنا بالإنجيل. لأننا إذا كرزنا بالإنجيل من أجل هذه الغاية، أي الحصول على القوت، فإننا بهذا نجعل الإنجيل أقلَّ قيمة من الطعام. وفي هذه الحال تكون غايتنا التي نسعى إليها هي الحصول على القوت، والوسيلة التي نحتاجها في سبيل ذلك هي البشارة بالإنجيل.

+ فالذين يطلبون ملكوت الله وبرَّه، أي الذين يُفَضِّلون هذه الغاية عن كل ما عداها من الأمور الأخرى، ومن أجله (أي من أجل الملكوت) يعملون

كل شيء، ينبغي ألاّ يقعوا فريسة القلق لئلا يخفقوا في سبيل تحقيق (غايتهم العظمى)، وهي ملكوت الله. لأنه قال سابقاً: «لأن أباكم يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها». فهو لم يقل: «اطلبوا أولاً ملكوت الله... وبعدئذٍ اسعوا في طلب هذه الأمور (مع أنها ضرورية)»؛ بل إنه يؤكِّد: «وكل هذه ستُزاد لكم»، أي لا تضعوا نُصْبَ أعينكم هدفين؛ أي ملكوت الله وهذه الضروريات، لأن هذه الأخيرة ينبغي أن تكون فقط وسيلة في الطريق للسير نحو الأولى... لأننا لا نقدر أن نخدم سيدين.

أما الإنسان الذي يحاول أن يخدم سيدين، فهو كمَنْ يطلب ملكوت الله كهدفٍ سامٍ (وخير أعظم)، ومعه أيضاً يجدُّ في السعي وراء هذه الأمور الزمنية (كغاية في حد ذاتها). مثل هذا الإنسان لا يمكن أن يكون له هدف أو حد يتخذ فيه الله وحده ربًّا (ومعبوداً)، ما لم يعقد العزم على أن يأخذ من الأمور الأخرى (المادية والزمنية)، ما هو فقط ضروري للحياة، ويكون همه الأوحد هو هذا الأمر الواحد: ملكوت الله.

القديس أغسطينوس أسقف هيبو



● طلب ملكوت الله - مثل التنفس - هو مناسب للكل، لأنه ضروري ضرورة التنفس للإنسان.

«اطلبوا أولاً ملكوت السموات، وكل هذه تُزاد لكم»:

وهكذا بعد أن حرَّر الرب النفس من الهمِّ بدأ يتكلَّم عن السماء. لأنه في الواقع جاء ليحررنا من الأمور العتيقة، ولكي يدعونا إلى وطنٍ أسمى. لذا نجد أن كل همِّ الرب هو أن يعتقنا من الأمور غير الضرورية، ومن تعلقنا بالأرض (والأرضيات). لذا نجده يشير إلى الوثنيين كذلك عندما يقول: «فإن هذه كلها تطلبها **الأمم** (التي لا تعرف الله)». هؤلاء الذين كل كدِّهم هو من أجل الحياة الحاضرة، وهم لا يفكرون أبداً في الأمور الآتية (والتي تختص بالحياة الأخرى)، ولا يبالون على الإطلاق بالسماء (والحياة بعد الموت). وأما لديكم أنتم (أيها المؤمنون)، فإن هذه الأمور الحاضرة ليست هي مطلبكم الأساسي، لأنكم وضعتم نُصْبَ أعينكم ما هو أفضل. فنحن لم نولد لهذه الغاية أن نأكل ونشرب ونلبس؛ بل لكي نُرضي الله ونفوز بنعيم الحياة الآتية.

+ وكما أن أمور هذه الأرض هي ثانوية في طريق جهادنا (نحو الحياة الفُضلى) فلتكن كذلك ثانوية في صلواتنا. لذلك قال (الرب) أيضاً: «اطلبوا ملكوت السموات، وكل هذه ستُزاد لكم». لاحِظ أن الرب لم يقل «تُعْطى»؛ بل «تُزاد» حتى نضع في الاعتبار أن الأشياء الحاضرة ليست من

الأهمية بمكان في عطايا الله عندما نقارنها بعظمة تلك النِعَم الآتية. لذا لم يُعوِّل الرب كثيراً على أن نطلبها؛ بل أوضح أنه فيما نحن نسأل من أجل تلك الأمور الأفضل (والأبقى)، فليكن لنا ثقة (في الرب) أنه سيُزيد لنا معها تلك الأخرى أيضاً.

+ فاطلب، إذاً، ما يختص بالحياة (الأبدية) الآتية، وأنت ستأخذ قطعاً معها هذه الأشياء الحاضرة (بزيادة وفيض)؛ لا تطلب الأمور المنظورة وأنت يقيناً ستحصل عليها. نعم، لأنه لا يليق بك أن تقترب من الرب من أجل هذه الأمور (الثانوية والصغيرة). وإن كنت قد بذلت قُصارى جهدك وحرصك من أجل تلك النِعَم الفائقة، فلا ينبغي أن تهين نفسك باستنزافها في السعي وراء شهوة الأمور الزائلة.

+ ورُبَّ قائلٍ: ألم يَدْعُنا (الرب) أن نسأل من أجل «خبزنا»؟ نعم! إلا أنه أضاف إلى «خبزنا كفافنا» كلمة «اليوم»، وهنا يقول: يكفي «اليوم». وفي كلتا الحالتين يؤكد الرب نفس المعنى. فهو لم يقُلْ: «لا تهتموا»؛ بل «**لا تهتموا للغد**»، فبكليهما يريدنا أن نكون أكثر حرية «من الهم»، وأن نثبِّت أنظارنا نحو تلك الأمور الأكثر ضرورة (لحياتنا الروحية). وحتى عندما دعانا أن نطلب منه هذه الأمور (المادية أو الروحية)، ليس كأنَّ الله في حاجة لأن ننبهه إلى ما نحتاجه؛ بل لكي نتعلم أننا بمعونته يمكننا أن نتمم أيًّا كان من أعمالنا، وبسؤالنا إياه دائماً من أجل هذه الأمور نصير أكثر دالة وقُرْبى منه.

+ أرأيتَ كيف أن الرب بهذا أيضاً يريد أن يقنعهم أنهم أكيداً سيحصلون على حاجتهم من أمور هذه الحياة الحاضرة؟ لأن ذاك الذي يمنح الأعظم لا يُقَصِّر بالأولى أن يعطي الأقل. وكأنه يقول لهم: «عندما أدعوكم ألاّ تنهمكوا وألاّ تنشغلوا بأمور هذه الحياة، فإني لا أريدكم بهذا أن تعانوا من ألم الجوع أو العُرْي؛ بل لأني سأُفيض عليكم هذه الأشياء بسخاء. (لا تحتاجون معه إلى طلب المزيد)... ولكي أُجنِّبكم الوقوع في غمٍّ لا طائلٍ من ورائه، ما هو كفيل بأن يجعلكم تنحرفون عن الهدف الأسمى الموضوع أمامكم».

«فلا تهتموا للغد، لأن الغد يهتم بما لنفسه. يكفي اليوم شرُّه»:

أي يكفي ما يحدث فيه من أمور تجلب الغم والضيق. ألا يكفيك أنك تأكل خبزك بعرق جبينك؟ لماذا تثقل نفسك بضيق أشد يأتي من جراء القلق على الغد، في حين أنَّ الرب مزمع أن يحررك حتى من المتاعب الأولى ليومك الذي تعيشه (الكد والتعب من أجل لقمة العيش)؟

+ الرب لا يعني بـ «الشر» هنا: الإثم، حاشا؛ بل الهمّ والقلق والبلايا (التي قد تحدث لأي إنسان)... فهذا هو معنى قوله: **«يكفي اليومَ شرُّه»**، لأنه لا شيء يكون عبئاً على النفس مثل الهم والقلق. وهذا ما جعل بولس الرسول في مجال تشجيعه للبتولية، أن يعطي هذه المشورة: «فأُريد أن تكونوا بلا همٍّ» (١كو ٧: ٣٢)...

+ ليتنا نتقرب إلى الرب (هدف حياتنا الأوحد)، «في وقت مناسب وغير مناسب»، وفي الواقع ليس هناك مَنْ يمكنه أن يتقرب في «وقت غير مناسب»؛ بل إنه من «غير المناسب» ألاّ نتقرب إلى الله على الدوام. لأن مَنْ يتوق أن يعطي كل وقته لله فهذا هو المناسب لكل مَنْ يلتمس من الله. وكما أن التنفس لا يمكن أن يكون في وقت ما غير مناسب (لأن الإنسان في حاجة دائمة إليه)، كذلك الصلاة لا يمكن أن تكون في وقت ما أمراً غير مناسب؛ بل عدم الصلاة هو غير المناسب. فطالما نحن في حاجة إلى التنفس كذلك تماماً نحن في حاجة دائمة إلى المعونة التي تأتينا من الله؛ بل وإذا شئنا يمكننا بسهولة أن نجعله يقترب إلينا. والنبي لكي يعلن هذا ويشير إلى مبادرة جوده الذي لا يتغير، قال: «هلمَّ نرجع إلى الرب... ولسوف نجده متأهباً كالصباح (لاستقبالنا).» (هو ٦: ١-٣ السبعينية)

+ لأننا بقدر ما نقترب؛ بقدر ما نراه مترقباً لمجرد تحركاتنا. أما إذا أخفقنا في أن نستقي من الماء الحي الذي لينبوع إحسانه الدائم، فالملامة كلها تقع علينا... أما إذا تحركنا ولو قليلاً حتى ولو أننا فقط أدركنا أننا أخطأنا (إلى الرب)، فهو سيفيض علينا بجوده أكثر من الينابيع، وسينسكب علينا (بروحه) بما يفوق ماء البحار؛ وبقدر ما تزداد أنت أخذاً بقدر ما يفرح هو أكثر؛ فيفيض علينا أيضاً وهكذا إلى مالانهاية. فالرب في الواقع يبتهج بخلاصنا لأنه يعتبرنا ميراثه الخاص، وبأن يعطي بسخاء لكل مَنْ يسأل. ويبدو أن هذا هو

ما كان يقصده بولس الرسول عندما كان يجاهر قائلاً: «إنه غنيٌّ لكل وعلى كل الذين يَدْعُون.» (رو ١٠: ١٢، قارن مع رو ٣: ٢٢)

+ إذاً، فلا ينبغي أن يدبَّ فينا روح اليأس أبداً؛ بل إذ تدفعنا بواعثٌ هذه مقدارها ويحدونا الرجاء من كل جانب في محبة الله الفائقة، حتى ولو كنا قد أخطأنا كل اليوم، فلنتقدم إليه ملتمسين ومتوسلين طالبين منه الصفح عن آثامنا. وهكذا سنأخذ القدرة على السير قُدُماً إلى الأمام وترك الخطية أكثر خلف ظهورنا؛ بل وطرح إبليس بعيداً عنّا، وسنجتذب حنان الله، ونفوز بنعيم الحياة الأبدية، بنعمة ربنا يسوع المسيح ومحبته للبشر؛ له المجد والقدرة دائماً وإلى الأبد آمين.

القديس يوحنا ذهبي الفم



«لا تدينوا لكي لا تُدانوا»

(مت ٧: ١-٦)

● **خطورة دينونة الآخرين على خلاصنا الأبدي.**

+ ماذا إذاً؟ ألا ينبغي علينا أن نلوم الذين يخطئون؟ لأن بولس الرسول أيضاً يقول بنفس هذا الأمر، أو بالأحرى إنه المسيح يتكلم في بولس ويقول: «لماذا تدين أخاك؟ وأنت أيضاً لماذا تزدري بأخيك» (رو ١٤: ١٠)، «مَنْ أنت الذي تدين عبد غيرك» (رو ١٤: ٤)؟ وأيضاً: «إذاً لا تحكموا في شيء قبل الوقت حتى يأتي الرب.» (١كو ٤: ٥)

+ ثم كيف يقول في موضع آخر: «وبِّخ، انتهرْ، عِظْ» (٢تي ٤: ٢)، وأيضاً: «الذين يخطئون وبِّخهم أمام الجميع» (١تي ٥: ٢٠). ويقول المسيح مرة أخرى لبطرس: «إن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما، إن سمع منك فقد ربحت أخاك؛ وإن لم يسمع فخُذْ معك واحداً أو اثنين لكي تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة؛ وإن لم يسمع منك فقُلْ للكنيسة» (مت ١٨: ١٥-١٧)، وكيف جعل أمامنا كل هذا لكي نوبِّخ؛ بل أن نُعاقِب؟ لأن الذي لا يستمع لكل هذا، فقد أمر (الرب) أن يكون بمثابة «الوثني والعشار» (مت ١٨: ١٨). بل وكيف أعطى الرسل المفاتيح؟ لأنه إن

لم يكُنْ قد أعطى لهم أن يحكموا، فلن تكون لهم سلطة في أي أمرٍ، وعبثاً يكونون قد أخذوا سلطان الربط والحلّ (أي ربط قوات الشر، وحلُّ الذي وقع تحت أسْرِهم).

+ ثم إنه إذا ظلّت الحرية الخاطئة بلا رادع ولا عقاب، فإنه سيختل نظام العالم وتسود الفوضى تماماً سواء في الكنائس أو الدول أو الأُسر، لأنه ما لم يحكم السيد خادمه، والسيدة جاريتها، والأب ابنه، والأصدقاء بعضهم البعض، ستتفاقم كل أنواع الشرور.

+ فما هو إذاً هذا القول؟ ليتنا ننتبه جيداً لئلا تُعتبر أدوية الخلاص وقوانين السلام هي قوانين اضطراب وقَلْبٍ للحقائق. أول كل شيء أشار الرب إلى الذين فهموا سموّ ناموسه قائلاً: «لماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك، أما الخشبة التي في عينك فلا تعتبرها.» (مت ٧:٣)

+ وأما للذين هم أقل فهماً، فهي أكثر غموضاً، وسأجتهد في التوضيح من البداية. في هذا الوضع كما يبدو لي على الأقل، لم يطلب منّا الرب ألاّ ندين خطايا الآخرين بصفة عامة، وبالتالي لم يمنع أن نفعل ذلك (في الحدود المشروعة كنسياً ومدنياً)، وإنما عَنِيَ بهذا القول مَنْ تثقّلوا بأمراض (أي بخطايا) لا حصر لها، ولكنهم في الوقت نفسه يمتهنون الآخرين من أجل أمور تافهة...

+ وبولس الرسول أيضاً لم يمنع الكورنثيين أن يدينوا على الإطلاق، لكن ألاَّ يدينوا رؤساءهم، وعلى أسسٍ لم تتقرر بعد، لا أن يمتنعوا نهائياً عن إصلاح مَنْ يخطئ.

+ والرب في الواقع لم يكن يوبِّخ الجميع بدون تمييز. وإنما التلاميذ الذين يفعلون ما يستحقون عليه التوبيخ كانوا موضوع توبيخه؛ وأيضاً الذين هم واقعون في أسر خطايا لا حصر لها وفي الوقت نفسه يقررون شهادة خاطئة عن الأبرياء.

+ هذا، إذاً، هو الأمر الذي لمَّح إليه الرب في هذا الموضع، لم يلمِّح إليه فقط؛ بل حذَّر منه أيضاً بكل تشديد وعقاب حيث لا تنفع فيه صلاة.

«لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تُدانون» (مت ٧: ٢):

أي بدينونتك للآخرين، فأنت في الواقع تدين نفسك وتحكم عليها القضاء الرهيب والحساب العسير. فكما أن في مغفرة الخطايا يجب أن نكون نحن البادئين، كذلك هو الأمر من جهة الدينونة، فنحن الذين نضع لأنفسنا معايير دينونتنا.

+ إذاً، فنحن ينبغي علينا ألاَّ نعنِّف ولا أن نمتهن الخطاة؛ بل أن ننبههم، لا أن ننتهرهم. أن نُسْدي إليهم النصيحة، لا أن نهاجمهم متعالين عليهم؛ بل أن نعالجهم برفق.

+ وإذا كنت تريد أن تُصحح لأخيك زلة ما إذا ما دعت الحاجة، فاقطع أنت من نفسك أولاً دابر الغضب وحب الانتقام، لكي تعرف أن تعطي الرأي المناسب.

+ أرأيت كيف أن هاتين الوصيتين المتقدمتين، هما من السهولة بمكان أن نمارسهما وهما مفعمتان بالبركات الجزيلة لِمَنْ يطيعهما، ولكنهما أيضاً من جهة أخرى محفوفتان بالخطر لِمَنْ لا يراعيهما؟

+ لأن مَنْ صفح عن قريبه فقد سبق وبرّأ نفسه من أية شكاية يمكن أن تقوم ضده بلا أدنى جهد؛ وذاك الذي برفقٍ وحلم يتبنّى زلاّت الآخرين، فقد سبق فأعدَّ لنفسه عفواً كبيراً بالتماسه الأعذار للضعفاء مثله.

+ قد تقول: «فماذا، إذاً، إذا ما سألني إنسان عن فسقٍ قد ارتكبه، هل لا أقول له أن هذا أمر سيءٌ للغاية؟ وهل لا أصلح من شأن إنسان في مسئوليتي أخاً أو صديقاً أو ابناً... إلخ، قد أسلم نفسه لأعمال الفجور؟». كلا، بل قوِّمه بقدر ما يمكنك، ولكن ليس كعدو ولا كخصم يريد أن يعجِّل بالعقاب؛ بل كطبيب يمدُّ له يد المعونة بالأدوية الواقية. لأن الرب لم يقل: «لا توقف مَنْ ارتكب السيئات»؛ بل قال: «لا تَدِنْهُ»، بمعنى ألاّ تكون صارماً في الحكم عليه.

القديس يوحنا ذهبي الفم

* * *

«ولماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك، وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها...»:

في هذا القول وما يتبعه يعلّمنا الرب أن التجديف على الروح القدس، هو الخطية الوحيدة التي لا تُغفر، أما كل الذنوب الأخرى فالله قد وعد بمنح الصفح عنها. حيث الخطية ضد الروح القدس هي رفض وعدم قبول سيادة الله وسلطانه وإنكار أزلية المسيح الجوهرية، هذا الذي به وفيه أتى الله مستعلَناً في الإنسان حتى يصير الإنسان بدوره شريكاً في الطبيعة الإلهية.

+ هكذا نجد أن الفارق الكبير بين القذى (أو قشة التبن) والخشبة الضخمة يبين مدى خطورة خطية التجديف على الروح القدس، وهذا تلميح أيضاً إلى الذين لا يقبلون الإيمان (بأساسيات الخلاص)؛ بينما هم يلومون الآخرين على بعض الأخطاء السطحية الظاهرة. فَهُم لا يرون في أنفسهم أولاً جسامة الخطية التي تجعلهم يرتابون في وعود الله، وهذه أشبه بعارضة ضخمة موضوعة نصب العين (الداخلية) تمنع روح الإنسان من الرؤية الصافية لاستقبال النور الحقيقي، لمعرفة حقيقة نفسه والآخرين.

+ إنه قد يحدث معنا مراراً عديدة أننا ندَّعي السلطة لأنفسنا أن نتجنى على الآخرين دون أن نعطي لهم بحياتنا الشخصية المثال الذي ينبغي أن يُحتذى؛ بل ونفتخر جهاراً بأننا نبرئ عمى قلب الآخرين، بينما نحن أنفسنا

تحفنا الظلمات الكثيفة التي تمنعنا من الرؤية السليمة، حيث أنه من المستحيل أن يجود إنسان بشيء ليس عنده لآخر. أما أفضل طريقة للتعليم (في الحياة الروحية بالأكثر)، فهي إعطاء المثل بالقدوة أحرى منه بالكلام.

+ إذاً، على الإنسان المسيحي أن يُعنَى أولاً بانفتاح بصيرته هو، لأنه بطبيعة الحال لا يمكن لأحد أن يصير معلماً (روحياً) قادراً أن يزيل من الآخر القذى الذي في عينيه قبل أن تستنير روحه هو، ويطرح من أمام بصيرته خشبة عدم الإيمان التي تقف حائلاً كثيفاً تمنعه من الرؤية السليمة.

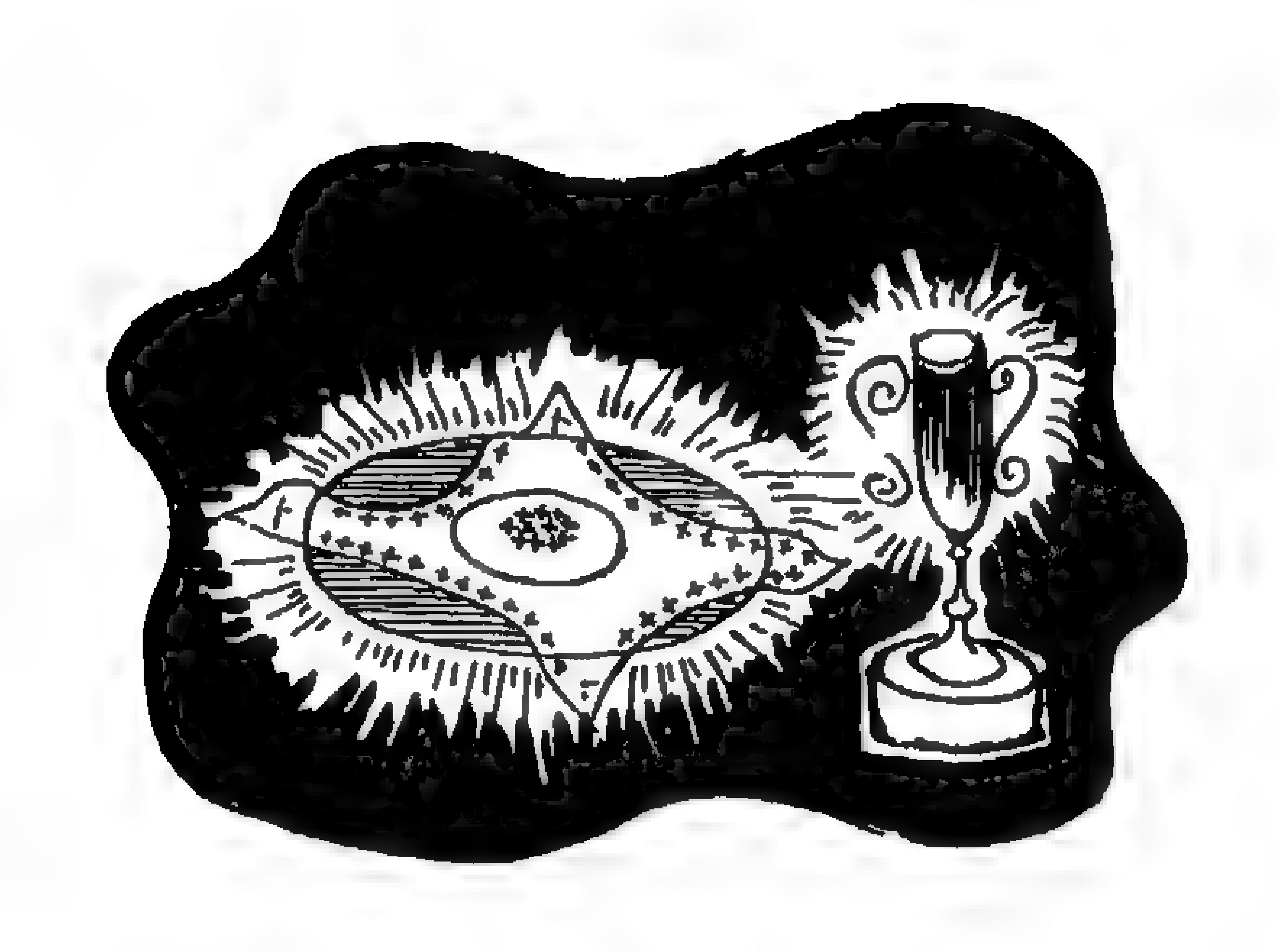
«لا تعطوا القُدْسَ للكلاب، ولا تطرحوا دُرَرَكم قدام الخنازير...»:

لا شيء أثمن وأقدس من وصايا الله ووعوده التي تهبنا القداسة وتورثنا الحياة الأبدية. ولكننا لسنا أحراراً في أن نبوح بأسرار حياتنا ومصدر قوتنا للذين لا يعرفون الله، ولا حتى أن نناقش ذلك مع المنحرفين عن الإيمان الصحيح. وقد شُبِّه بالكلاب مَنْ لا يؤمنون بالله؛ بل ويتقوَّلون ضده كلاماً هراءً...

+ أما كلمة «الخنازير»، من جهة أخرى، فهي اسم يُكْنَى به عن المنحرفين عن الإيمان، فكل منهم له أظافر مشقوقة إلى نصفين، وهم يتعاطون معرفة الله، ولكن دونما اجترار (أي دونما ترديد لها في قلبهم) لما قد تقبَّلوه. إذاً، فليس من المناسب أن نعرض عليهم حقائق الإيمان دونما استعداد لائق من جهتهم لقبولها مثل: تجسد كلمة الله، وسر آلامه، وقيامته المجيدة؛ ولا أن نقدمها لهم دون أن نكون مؤهَّلين بما فيه الكفاية لذلك، لئلا إذا كان ينقصنا

التأهيل للمعرفة الكاملة، فإنهم يحتقرون جهلنا ويمحقوننا تحت أقدامهم لأنهم يستكثرون على الله أن يتجسد ويتألم.

القديس هيلاريون أسقف بواتييه (فرنسا)



«اسألوا تُعطَوْا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم»

(مت ٧: ٧-١٢)

• أمثلة من واقع الحياة البشرية عن عطايا الآباء لأبنائهم.

+ لكي نفهم ونصدِّق كل المواعيد الإلهية ولا نكون عُرضة بعد ذلك للإرتياب والشك، وجب علينا أن: «نطلب، ونسعى، ونقرع»، لكي بالطلبة نُؤهَّل لرأفة الله، وبالسعي نسير قُدُماً إلى الأمام (في الطريق الروحي)، وبالقَرْع (أي بترديد الصلاة) ينفتح أمامنا باب (الحياة الأبدية). ولكي يقوِّي فينا الرب الرجاء بيقينية نوال ما نطلبه، وضع نُصْبَ أعيننا أمثلة من واقع الحياة البشرية وحنو الآباء على بنيهم: فإذا كنَّا (كوالدين) لا يمكن أن نعطي أبناءنا حيَّة أو حجراً عندما يطلبون منَّا سمكاً أو خبزاً؛ فكم بالأحري الله الذي تفوق وتسمو أُبوَّته عن كل وصف أو حدٍّ. فكيف لا يستجيب لتوسلاتنا ويجود علينا بملء إنعامات الإيمان، التي لا يمكن معها أبداً أن يعطينا حَجَر قساوة القلب الذي لا يعرف الله بدلاً من خبز الحياة الذي نطلبه (أي

المسيح الذي هو قوت الحياة الأبدية)، ولا يمكن أن يعطينا طريقاً منحرفاً خادعاً كالحية السامة عندما نطلب نعمة الخلاص التي تتم بالإيمان والعماد.

+ ولكي يجمع الرب كل وصايا الناموس والأنبياء في مبدأ واحد شامل يوحِّد بين قلوب الناس ويوجد بينهم الود واللطف والمحبة لبعضهم البعض، قال بضرورة أن نُلزم أنفسنا نحن أولاً بالعمل الصالح نحو الجميع (دون تفرقة)، إذا أردنا للآخرين أن يكونوا هم كذلك على نفس هذا الخُلُق من جهتنا.

القديس هيلاريون أسقف بواتييه

* * *

• التباين بين الأبوّة البشرية والأبوّة الإلهية.

«اطلبوا تُعطَوْا، اسعَوْا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم»:

بما أن الرب يريد أن يمنحنا أموراً فائقة وعجيبة، لذلك يطلب منا أن نترفع عن كل الأهواء البشرية (الخاطئة)، لأنه يود أن يقودنا إلى السماء نفسها، لذلك أوصانا أيضاً أن نسعى في أن نتشبه لا بملائكة ورؤساء ملائكة؛ بل برب الكل ذاته... ولكن الرب لا يَدَعُنا نجاهد وحدنا؛ بل أن نستمد المعونة من فوق، وأكَّد أن هذه المعونة لابدَّ آتية لتكون في معيَّتنا لمساندتنا في كفاحنا، ولكي تسهِّل لنا كل الأمور العسرة. لذلك أوصانا الرب أن نطلب، وتعهَّد هو نفسه بالاستجابة.

+ ولكنه يوصينا لا مجرد أن نُقدِّم الطلبة فحسب؛ بل أن نثابر على ذلك بهمة لا تعرف الكلل. فهذا هو معنى «الطلب أو السعي»، لأن مَنْ يسعى باحثاً عن أمرٍ ما لا يشغل باله بشيء آخر غير ما يبحث عنه؛ بل يضع كل همه في موضوع بحثه وحده. وما أقوله يعرفه تماماً كل مَنْ فقد ذهباً أو أشخاصاً وكيف كان يسعى في العثور عليهم بكل ما أوتي من جهد. «**فبالطلب**» (أي بالسعي) قصد الرب هذا: أن نركِّز اهتمامنا على ما نسعى إليه، و«**بالقرع**»: أن نتقدم بغيرة حارة وبذهنٍ واعٍ.

+ أما إذا لم نأخذ ما نطلبه في الحال، فينبغي علينا ألاَّ نيأس، لأنه عَنِيَ بـ «القرع» أيضاً أنه حتى إذا لم ينفتح لنا الباب في التو فعلينا أن نظل أمامه قارعين.

«أم أي إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزاً، يعطيه حجراً؟»:

فكونك لم تأخذ ما طلبت، فهذا بسبب أنك تطلب حجراً (أي أموراً مادية بدلاً من خبز الحياة). فمع أنك ابن، إلا أنه لن يُستجاب لمثل هذا الطلب لأنه لا يسد حاجتك؛ بل إنه يعوِّق مسيرتك (الروحية) لأنك كابن (لله) لم تطلب ما يليق بك وما هو نافع لروحك قبل جسدك.

+ إذاً، لا تطلب أموراً دنياوية زائلة؛ بل اطلب ما هو روحي. وأنت يقيناً لابد ستنال طلبتك، فهكذا فعل سليمان لأنه سأل من الرب ما يليق به، فسرعان ما نال مطلبه. لذلك فهناك شرطان لازمان لاستجابة الطلب: فمَنْ

يطلب عليه أن يفعل ذلك بغيرة واهتمام؛ والأمر الثاني أن يطلب ما يليق به (كابن لله).

«فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالحري أبوكم الذي في السموات»:

وقول الرب هذا لا يعني أنه يوصم طبيعة الإنسان بالشر، أو يذم الأُبوَّة البشرية فينا؛ بل بالمقابلة مع صلاحه الإلهي (اللامحدود) يدعو الحنان الأبوي الإنساني بكلمة «وأنتم أشرار» (بمعنى أنه يخضع للضعف البشري). فيا لِعظَم حبه الفائق للإنسان!

«فكل ما تريدون أن يعمله الناس معكم، اعملوه أنتم أيضاً معهم»:

لقد أوجز الرب في هذا القول أسهل فضيلة معروفة ومقبولة لدى الناس جميعاً. ونلاحظ أن الرب هنا لم يقل بمجرد: «كل ما تريدون...»؛ بل «فكل ما تريدون...»: أي أن هذا الكلام مرتبطٌ أشد الارتباط بما قبله ويحمل مضموناً هاماً. وكأن الرب يقول: «إذا ابتغيتم أن تُستجاب طلباتكم وتُسمع توسلاتكم، كما قلت لكم، اعملوا أنتم كذلك وتمموا هذه الأمور (البسيطة)، وما هي؟»: «كل ما تريدون أن يعمله الناس معكم».

+ أرأيت كيف أن الرب يشير علينا هنا أنه مع الصلاة ينبغي أن يكون لنا سيرة منضبطة (بمخافة الله). وهو لم يقل: «كل ما تريدون أن يعمله الله معكم اعملوه أنتم مع الآخرين»، لئلا تقول: «لكن كيف يكون ذلك ممكناً، فهو الله أما أنا فإنسان؟»؛ لذا قال: «كل ما تريدون أن يعمله الناس معكم،

اعملوه أنتم برفقائكم». فأية وصية أخف وأبسط من هذه؟ ومع هذا فالنتيجة (بعد أن نمارسها) جديرة بالإعجاب وجليلة القدر حتى قبل أن نحصل على المقابل.

«لأن هذا هو الناموس والأنبياء»:

حيث أنه من الواضح أن هذه الفضيلة تتوافق جداً مع طبيعتنا، فنحن أنفسنا نعرف ما هي واجباتنا، ولا يمكننا أبداً أن نعتذر بالجهل عندما نُقصِّر في عمل الخير ومحبة الآخرين.

القديس يوحنا ذهبي الفم



«ادخلوا من الباب الضيق»

(مت ٧: ١٣-٢٣)

• لِمَنْ هو مرتبط بشهوات الدنيا، صعبٌ عليه أن يدخل الطريق المؤدي إلى السماء.

«ادخلوا من الباب الضيق. لأنه واسعٌ الباب ورحب الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك»:

الطريق المؤدي إلى السماء هو وعر على الإنسان المرتبط بشهوات الأرض، وبابه ضيق ودقيق حيث يتسع فقط لدخول المرء الذي لا يحمل شيئاً من هَمٍّ الدنيا أو حطامها. بينما (السبيل) المؤدية إلى الهلاك رحبة، وهذه ينحدر فيها الأغلبية الساحقة من الناس، بخلاف الأولى التي لا يجدها سوى القليلين. ذلك لأنهم قِلَّة، وهم الذين يرغبون أن يتجردوا من أمور هذه الحياة الحاضرة، ويُعرِضُوا عن شهوات الجسد لكي يفوزوا بمشتهيات الروح، ويتخلَّوْا عن كل المفاتن الخادعة التي تضافرت كل قوات هذا العالم لتضعها أمام عيوننا؛ وذلك بهدف أن يربحوا تلك النِعَم الأعظم التي نترجاها في حياة الدهر الآتي.

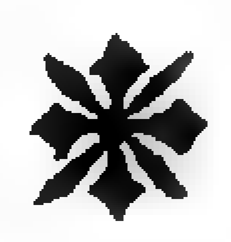
+ أما الذين لا يجدون راحتهم إلاَّ في تناول المآكل الفاخرة، والتكالب على أمور الدنيا الزائلة، وتعظُّم المعيشة في هذه الحياة، وامتهان الآخرين، والحقد والسلب؛ هؤلاء الذين أسْلَموا أنفسهم لأنواع عديدة من الرذائل، هم

الذين يكتظُّ بهم هذا الطريق الواسع. أما أولئك الذين يجدون الطريق الضيق، فلكونهم قِلّة، لذا يحذّرنا الرب من خداع الذين يتظاهرون بأنهم جادُّون في طلبه فيقول:

«احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان... إلخ»:

وهنا ينبهنا الرب أيضاً أن الأقوال المصطنعة، ودماثة الأخلاق الظاهرة ينبغي أن تُعرف حقيقتها من ثمار الأعمال فلا ننتظر نفعاً من معسول الكلام؛ بل من ذاك الذي يتّصف بصالح الأعمال، لأن كثيرين من الناس لهم شراسة الذئاب ولكنهم يتسترون بثياب الحملان. وكما أنه لا يمكن للشوك أن يثمر عنباً ولا العوسج تيناً، وكما أن الأشجار الرديئة لا يمكن أن تحمل ثماراً جيدة، هكذا يُفهِمنا الرب أنه عند مثل هؤلاء لا مكان لإتمام أي عمل صالح، وذلك من واقع أن كل واحد ينبغي أن يُعْرَف من ثماره. فنحن لا يمكن أن نفوز بملكوت السموات بمقتضى الكلام المجرد «أن إنجيلنا لم يصر لكم بالكلام فقط، بل بالقوة أيضاً وبالروح القدس وبيقين شديد...» (١تس ١:٥)

القديس هيلاريون أسقف بواتييه



● **في غيـاب أعمـال المحبـة لا ينفعنـا الإيمـان (أي الاعتقاد الديني)، ولا عمل المعجزات شيئاً.**

«ليس كل مَنْ يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات؛ بل الـذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات»:

لماذا لم يقل الرب هنا: «بل الذي يفعـل إرادتـي»، لأنـه كـان يكفيهـم في ذلك الوقت أن يتقبلوا هذا الكلام مبدئياً، مراعاةً لبعض الضعفاء فيهـم الذيـن لم يكونوا قد أدركوا بعد إدراكاً كـاملاً حقيقـة ألوهيتـه. ثـم إن الـرب بهـذا القول يلمِّح أيضاً إلى مبدأ آخر وهو أنه لا توجـد إرادة أخـرى للابـن بجـانب إرادة الآب.

+ ويبدو لي هنا أن الرب يوبِّخ أساساً الذيـن يصرفـون جُـلَّ اهتمـامهم في مراعاة شكليات الدين، غير مبالين بجوهره وهو ممارسة الحياة الفاضلـة. ومثـل هـؤلاء يلومهـم بولـس الرسـول قـائلاً: «هـا أنـت تُسـمَّى يهوديـاً وتتمسـك بالشريعة وتفخر بأنك تعرف الله وتميِّز مشيئته...» (رو ٢: ١٧)، ولكنـك لم تنتفع بهذا الإيمان النظري طالما أنك لم تحققه في حياتك بالأعمال الصالحة.

+ ولكن الرب لم يقف عند هذا الحد؛ بل زاد عليه هذا:

«كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يا رب يا رب أليس باسمك تنبَّأنا»:

إنه كمَنْ يقول: «ليس فقط مَنْ كان له الإيمان وأهمل في ممارسة الحياة هو الذي يُطْرَح خارجاً، ولا يكون لـه نصيـب في السـماء؛ بـل حتـى ولـو كـان

بجانب إيمانه قد عمل المعجزات الكثيرة، ولكنه لم يعمل شيئاً من الصلاح، فحتى مثل هذا الإنسان أيضاً يُوصَدُ أمامه الباب».

«فحينئذ أُصرِّح لهم أني لم أعرفكم قط (أو قط ما عرفتكم). اذهبوا عني يا فاعلي الإثم»:

فليس في يوم الدينونة فقط يصارحهم الله بهذا القول؛ بل حتى إبان اجتراحهم المعجزات (لأن «ما عرفتكم»: جاءت في الفعل الماضي). لذلك قال الرب لتلاميذه: «لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم؛ بل افرحوا بالحري أن أسماءكم كُتِبَتْ في السموات» (لو ١٠:٢٠). وطالما دعانا الرب في كل جانب من تعليمه أن نولي اهتماماً كبيراً بحياتنا الروحية الخاصة (وعلاقتنا الصميمية به)، لأن الإنسان الذي يحيا باستقامة وتقوى حقيقية متحرراً من سائر الأهواء، لا يمكن أن تغفل عنه العناية الإلهية، حتى ولو وقع في زللٍ فالرب حالاً يُقيمه ويأتي به إلى الطريق السوي.

+ وقد يقول البعض: إن هؤلاء لم يخلصوا بسبب أنهم ادَّعوا كذباً أنهم (تنبَّأوا باسمه وعملوا المعجزات... إلخ). ولكن لو كان هذا الأمر صحيحاً لكان فحوى الكلام على النقيض مما يقصده الرب؛ وإنما حقيقة مضمون القول هو أن يبين أن الإيمان لا يفيد شيئاً بدون أعمال. بل ولكي يشدِّد الرب على هذا المعنى، قال ما هو أكثر من ذلك: إن صاحب هذا الإيمان (الخالي من أعمال المحبة)، حتى ولو كان يجترح العجائب، لا يربح شيئاً ما دام لا يُمارس الحياة الفاضلة (التي تقوم على أساس المحبة العملية لله وللقريب).

+ وعندما يأتي وقت الدينونة، فإنهم سوف يرون نهاية على النقيض مما كانوا يتوقعون، وبعد أن كان كلُّ الناس يُعْجَبون بهم بعد صُنْعهم المعجزات، فسوف يرون أنفسهم لا يلاقون شيئاً سوى العقاب الذي كان ينتظرهم؛ وإذ يتحيرون مندهشين يقولون: «يا رب أليس باسمك تنبَّأنا»، فلماذا تُحوِّل وجهك عنَّا الآن؟

+ ولكن إذا كان هؤلاء قد اندهشوا لأنهم نالوا القصاص بعد أن اجترحوا مثل تلك العجائب، فلا تندهش أنت، لأن النعمة كلها كانت هبةً مجانية تماماً من الله، أما هؤلاء فلم يعطوا شيئاً البتة من عندهم؛ ولذلك فهم بعدلٍ قد نالوا جزاءهم، كأُناس ناكرين للجميل عديمي الحس مقابل مَنْ كرَّمهم بمنح نعمته لهم رغم عدم استحقاقهم.

+ وربَّ قائلٍ: «وهل يمكنهم أن يجروا مثل تلك الأعمال باسم المسيح وهم منغمسون في الإثم»؟ قد يقول البعض: إنهم لم يرتكبوا الإثم إبَّان صُنْعهم المعجزات؛ بل إنهم قد تحوَّلوا عن جادة الصواب بعد ذلك واقترفوا تلك الذنوب التي حوكموا عليها. ولكن لو كان الأمر كذلك لما تقررت الحقيقة التي يرمي إليها الرب، لأن ما يريد أن ينبِّهنا إليه هنا هو: أنه في غياب أعمال المحبة، لا الإيمان (بمعنى الاعتقاد الديني)، ولا عمل المعجزات يفيدان شيئاً؛ وأعمال المحبة هي التي يتكلم عنها بولس الرسول قائلاً: «إن كان لي الإيمان حتى أنقل الجبال، وأفهم جميع الأسرار وكل معرفة، وليس لي محبة فلست شيئاً.» (١كو ١٣: ٢)

+ إذاً، لنرهبنَّ الله، يا أحبائي، ولنبذل قصارى جهدنا للاهتمام بحياتنا الروحية، ولا نعتبرنَّ أنفسنا أضعف المؤمنين بسبب أننا لا نعمل المعجزات الآن، لأن عدم مزاولتها لن ينفعنا بشيء؛ كما أن عدم مزاولتها لن يكون فيه أية خسارة لنا. هذا إذا ما راعينا بجدٍّ ممارسة كل الأعمال الصالحة (النابعة من علاقتنا الصميمية بالله «كنز الصالحات ومعطي الحياة»)، لأن عمل المعجزات، سندفع نحن الدَّيْنَ عليه، أما الحياة الروحية والأعمال الفاضلة فدافع الدَّيْن عليها (أي الأجر والمكافأة) هو الله نفسه.

القديس يوحنا ذهبي الفم



البيت المبني على الصخـر

(مت ٧: ٢٤-٢٧)

• البنـاء علـى الصخـر هـو ممارسـة الوصايـا، والأساس الراسخ هو الرب نفسه.

+ «فكل مَنْ سمع أقوالي هذه ويعمل بها أُشبِّهه برجلٍ عاقل (حكيم) بنى بيته على الصخر. فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبَّت على ذلك البيت فلم يسقط، لأنه كان مؤسساً على الصخر. وكـل مَنْ يسـمع أقـوالي هـذه ولا يعمل بها يُشَبَّه برجلٍ جاهل بنى بيتـه علـى الرمـل. فـنزل المطـر وجـاءت الأنهـار وهبَّت الريـاح وصدمـت ذلـك البيـت فسـقط، وكـان سـقوطه عظيماً»:

مضمون هذا القـول مرتبـط بسـابقه، فـالرب إذ يلـوم هنـا بحق إدعـاءات الأنبياء الكذبة ومحاجاة المرائين (في الدين)، يعطي مثلاً للإنسان الذي يقتني في داخله الإيمان الكامل الذي يسمع أقواله ويعمل بها، فيُشبِّهه بمَنْ بنى بيته علـى الصخر ودعَّمه على أساس راسخ وطيد، فهو لن يتصدع أبداً إذا ما هبَّت عليه العواصف العاتية.

أما الصخر (الذي ينبغي أن يقوم عليه إيماننا وتُبنى عليه حياتنـا الروحيـة)، فهو الرب نفسه كأساس قوي لأكبر وأسمى بناء، فمَنْ يبني حياته عليه كـانت

حياته كبناية راسخة الأساس مرتفعة إلى العلاء، لا يمكن أن يُزعزعها لا انهمار المطر ولا فيضان الأنهار ولا شدة العواصف (يعني بالأمطار هنا ميول اللذات الخادعة التي تتسلل داخل الإنسان دون أن يشعر بها، وهذه من شأنها أن تزعزع بناء الحياة الروحية)، التي بعدها تنهمر السيول وتتلاطم الأمواج (كناية عن مهاجمة الشهوات الجامحة)، ثم تليها الرياح العاتية (أي التجارب المفاجئة) التي تهب من كل جهة وبشدة؛ متضافرة بقوة شيطانية، لمهاجمة الإنسان (المؤمن) والانقضاض عليه. أما مَنْ بَنَى واضعاً أساسه على الصخر (صخر الدهور)، فسيظل في مكانه راسخاً لا يمكن أن يحوِّله عن ثباته شيء.

ولكن مَنْ انحرف عن جادَّة الصواب وأهْمَلَ في ممارسة وصايا الله التي قد سمعها، فهو أشبه بمَنْ بنى بيتاً غير متوازن على الرمل لا أمان قائماً لثباته، وسريعاً ما يسقط عن آخره بمجرد أن تتسرب إليه مياه الأمطار، ثم تجرفه السيول وتعصف به الرياح فيتفكك ولا يبقى له أثر. لأن هذه هي طبيعة الرمل الذي تَشَيَّد عليه، فهو لا يحتمل حتى مجرد ثقل ما تراكم من حطام.

وهكذا فبإعطائنا هذه التشبيهات، أراد الرب أن يُنهض همتنا للعمل بما أوصانا به، وأن يحثنا أيضاً على أن نؤمن بمواعيده.

القديس هيلاريون أسقف بواتييه

* * *

● **ما يصون حياة المؤمن، هو حياة التقوى النابعة من الإيمان.**

+ **«فنزلت الأمطار، وهبّت العواصف، فضربت ذلك البيت؛ فلم يسقط لأنه كان مؤسساً على الصخر»:**

"الأمطار"، و"السيول"، و"العواصف"، هي هنا تعبير مجازي عن البلايا والمِحَن التي تحدث للناس؛ مثل الاتهامات الباطلة، والدسائس، والخسارات، والمنايا، وفقدان الأحباء، ومضايقات الغرباء، وسائر المساوئ التي يمكن أن تصيبنا في هذه الحياة، وكل ما يمكن أن يتصوره أي إنسان. يقول الرب: إنه ولا أي شيء منها يمكن أن يزحزح مثل تلك النفس (عن إيمانها)؛ والعلّة في ذلك «أنها مؤسسة على الصخر». الرب هنا يسمي **رصانة تعاليمه** وثباتها **بالصخر** لأن وصاياه في الحقيقة هي أقوى من الصخر، وكفيلة بأن تجعل مَنْ (يسمعها ويعمل بها) يعلو فوق كل متاعب الحياة البشرية، لأن مَنْ يمارسها بدقة وأمانة ليس فقط ينتصر على مضايقات الناس؛ بل وأيضا على مكايدات الأبالسة التي تحيكها ضده. وهذا ليس مجرد مباهاة في القول فشاهِدُنا على ذلك في الواقع هو أيوب (الصدّيق) الذي تقبّل كل هجمات الشيطان وظل راسخاً رابط الجأش لا يتزعزع (عن إيمانه وتمسُّكه بالله). والرسل الحواريون أيضاً هم شُهودُنا؛ فعندما كان العالم بأسره يموج ضدهم، عندما كانت كلتا الأمّتين (الرومان واليهود) برؤسائهما، مع شعب كلٍّ منهما الخاص متضافرين

مع جنود الشر ورئيسهم ومستخدمين كل وسيلة للتنكيل بهم، وقفوا أمام كل هذا أكثر ثباتاً من الجبال وبدّدوا كل حيل المضاد التي تجمعت لزعزعتهم عن إيمانهم.

وماذا يمكن أن يكون أكثر سعادة من هذا النوع من الحياة؟ فما يصون حياة المؤمن هنا ليس هو المال أو قوة الجسد، وليس هو الجاه أو السطوة؛ وإنما هو فحسب حياة التقوى (النابعة من الإيمان المؤسس على الصخر)، لأنه لا يمكن أن نجد حياة أخرى لا تشوبها المفاسد غير هذه الحياة وحدها. وأنتم شهود على ما أقول، فانظروا إلى الدسائس التي تُحاك في قصور الملوك، والقلاقل والهموم التي في بيوت أصحاب الجاه، أما رسل السلام فلم نجد بينهم شيئاً من هذه الأمور.

ولكن هل لم يُصبهم قط مثيلٌ لهذه المساوئ على يَدَيْ أي إنسان؟ بلى، ولكن أعجب ما في تلك الأمور كلها، أنهم كانوا هدفاً لمكايد أكثر من غيرهم، وعُرْضة لعواصف عنيفة من الاضطهادات، إلاَّ أن نفوسهم لم تُقْهَرْ بسبب هذه العواصف، ولم تستسلم أبداً لليأس؛ بل بأجساد مجردة من كل سلاح مادي صارعوا وغلبوا، وكان النصر دائماً حليفهم.

وأنت أيضاً (أيها القارئ أو السامع) إذا كنت تريد أن تسلك هذا الطريق عينه فإنك ستستهين بكل المساوئ التي ستَعْرِضْ لك. نعم، إذا ما تزوّدت بمثل هذه الحكمة الروحانية المستمدة من الإيمان والتقوى؛ فلن يقدر شيء ما أن يصيبك بسوء. لأنه أية دسيسة يحيكها العدو يمكنها أن تؤذي نفسك المؤسسة

على صخرة الإيمان؟ سيجرِّدونك من مالِك؟ ولكن قبل تهديدهم لك بهذا، فقد سبق الرب وأوصاك أن تمقته وتزهد فيه بشدة إلى الدرجة التي لا ينبغي معها حتى مجرد أن تطلب شيئاً منه في صلاتك.

هل سيلقيك المضطهِدُ في السجن؟ ولكن ما بالك إذا كنت كمسيحي قد تحتّم عليك، قبل أن تكون مسجوناً، أن تكون مصلوباً للعالم كله أي كمائت من جهة أية شهوة أرضية.

أو إنهم سيتقوّلون عليك شرًّا؟ ولكن الرب قد رفع عنك هذا العبء، عندما وعدك بالمكافأة الجزيلة دونما أدنى تعب من جهتك – إذا ما احتملت ما يُقال عليك من سوء – بل حررك من كل مضايقة تنشأ من مجرد تحرُّك الغضب فيك عندما أوصاك أن تصلي من أجل المسيئين إليك.

هل العدو يطاردك ويُضيِّق عليك الخناق ويحيك لك الدسائس التي لا حصر لها؟ ثق تماماً أنه بفعله هذا يجعل تاجك أكثر بهاءً وأرفع مجداً.

هل يريد أن يحطِّمك ويقضي عليك؟ بهذا أيضاً يجعلك تفوز بأعظم مجازاة، فهو يجعلك تفوز بإكليل الشهداء، ويأتي بك سريعاً إلى ميناء السلام والنعيم الأبدي... وأعجب الأمور كلها هنا أن كل مؤامرات الأعداء لا يمكن أبداً أن تمس إيماننا أو أرواحنا بأذى؛ بل تتحول جميعها إلى خير عميم. فأي شيء في العالم يمكن أن يفوق هذا، أعني به السلوك في هذه الحياة الفُضْلى، أي حياة الإيمان المبني على الصخر، عندما لا يطلب الإنسان معها شيئاً آخر؟ وهكذا نجد أن الرب بينما يسمي الطريق كرباً وضيِّقاً؛ فلكي يخفف علينا

عبء الجهاد أيضاً، أشار إلى عظمة السلام المرتقب والبهجة الفائقة المتأتية بعدئذٍ؛ وحتى بالحديث المقابل (عمَّن يسمع أقوال الله ولا يعمل بها) يلمِّح الرب إلى جسامة الخسارة حتمية الوقوع. لأنه إذ أكَّد فضيلة الإيمان العامل بالمحبة ومجازاتها، كذلك أيضاً بيَّن مدى عقاب رذيلة عدم سماع كلام الله والعمل به... وهكذا بكل وسيلة يقدِّم الرب فرصة الخلاص لسامعيه؛ من جهة بالحث على حياة التقوى، ومن جهة أخرى بالأمر ببغضة الرذيلة.

فهناك مَنْ يُعجَبُون بأقواله؛ ولكنهم لا يعطون الدليل بأعمالهم على أنهم قبلوا الكلمة حقاً. لذا نجد الرب يسبق فيثير فيهم الخوف قائلاً: ولو أن الأمور التي يتكلم عنها صالحة، ولكن لا يكفي لتأمينها مجرد السماع، ولكن الحاجة ماسَّة أيضاً إلى الطاعة العملية لأنه لا أمان بغير هذا. وهنا ينهي الرب حديثه ببعثه في سامعيه مشاعر الخوف.

إذاً، لِنَنْتَبِهنَّ من غفلتنا واضعين في اعتبارنا كل هذه (المبادئ التي وردت في العظة على الجبل) التي تختص بحياتنا الحاضرة وتلك المستقبلة، هاربين من كل إثم، ساعين في طريق التقوى؛ حتى لا يكون جهادنا عبثاً وبلا أدنى منفعة؛ بل ننعم بالسلام هنا، ونشارك في المجد هناك، هذا المجد الذي نرجو الله أن يُنعم علينا به جميعاً بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح نحو البشر، له المجد والقدرة إلى أبد الآبدين آمين.

القديس يوحنا ذهبي الفم

قائمة الكتب
للأب متى المسكين

سلسلة شروحات الإنجيل:

- القديس بولس الرسول
- شرح رسالة رومية
- المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا
- شرح إنجيل القديس يوحنا – ج ١
- شرح إنجيل القديس يوحنا – ج ٢
- شرح الرسالة إلى العبرانيين
- شرح الرسالة إلى أهل أفسس
- شرح الرسالة إلى أهل غلاطية
- شرح الإنجيل بحسب مرقس
- شرح سفر أعمال الرسل

مجلّدات في مواضيع متنوعة:

- القديس أثناسيوس الرسولي
  (نفذ وسيعاد طبعه)
- الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار
- حياة الصلاة الأرثوذكسية

سلسلة دراسات في التقليد الكنسي:

- التقليد المقدس
- القديسة العذراء مريم (ثيئوتوكس)
- الصليب المقدس
- التسبحة اليومية ومزامير السواعي
- الإفخارستيا والقداس
  (جزء ١: الإفخارستيا) (نفذ وسيعاد طبعه)

سلسلة "الرؤية الإلهية للأعياد الكنسية":

- أعياد الظهور الإلهي
- الصوم الأربعيني المقدس
- مع المسيح في آلامه حتى الصليب
- القيامة والصعود
- الروح القدس الرب المحيي
  (في جزئين داخل كيس واحد)
- التجسد الإلهي في تعليم القديس كيرلس الكبير
- ميلاد يسوع المسيح ابن الله

مقالات تصلح للخدام والشباب:

- الخدمة (٣ أجزاء معاً)
- المسيحي في المجتمع
- المسيحي في الأسرة
- كيف تقرأ الكتاب المقدس
- في التدبير الروحى
- توجيهات فى الصلاة

عيد القيامة المجيد:

- القيامة والخليقة الجديدة
- القيامة والرجاء الحى

عيدا الصعود والعنصرة:

- رسائل ومقالات في عيدي الصعود والعنصرة
- يوم الخمسين في التقليد الآبائي
- الروح القدس وعمله داخل النفس
- مع الروح القدس في جهادنا اليومي

صوم الرسل:

- صوم الرسل ومكانته الروحية في الكنيسة، والروح القدس وصوم الرسل

صوم العذراء وعيد صعود جسدها:

- صوم العذراء القديسة مريم وعيد صعود جسدها إلى السماء

عيد النيروز:

- الشهادة والشهداء

(انظر: قصص مسيحية للحياة)

مجموعة مقالات في اللاهوت (ألقاب المسيح)

- ماهية المسيح ـ لاهوت المسيح الذي حدد مصير الإنسان.
- المسيح ابن الله
- ابن الإنسان
- المسيح والمسيًّا
- المسيح رب
- المحبوب
- الفدية والكفارة
- الخلاص والإيمان
- عمانوئيل
- رئيس الحياة
- أنا هو نور العالم
- العريس
- أنا هو الطريق والحق والحياة
- أنا هو خبز الحياة
- أنا هو الكرمة الحقيقية وأبي الكرّام
- حمل الله
- أنا هو القيامة والحياة
- مشتهى كل الأمم
- أنا هو الراعي الصالح

في الموضوعات الروحية العامة:

- التوبة
- التوبة والنسك في الإنجيل
- العمل الروحى
- الفضائل المسيحية بحسب الإنجيل
- رسائل القديس أنطونيوس
- الإيمان بالمسيح
- حبة الحنطة
- أين شوكتك يا موت
- التبرير
- الوحدة المسيحية
- مقالات بين السياسة والدين
- ملكوت الله
- المرأة حقوقها وواجباتها
- الكشف الأثرى في دير القديس أنبا مقار عن رفات القديس يوحنا المعمدان وأليشع النبي
- لمحة سريعة عن دير القديس أنبا مقار والرهبنة في مصر
- سيرة القديس أنبا مقار
- رسائل روحية
- غاية الحياة المسيحية
- القديس أنطونيوس ناسك إنجيلي
- رأي فى تحديد النسل
- الكنيسة الخالدة

- كلمة الله : خدمة وشهادة وحياة
- الوحدة الحقيقية ستكون إلهاماً للعالم
- لقد وحدنا يسوع – دعوة تعارف
- قصة الإنسان (حول الخطية والخلاص)
- تغيَّروا عن شكلكم
- حاجتنا إلى المسيح
- الكتاب المقدس رسالة شخصية لك
- النعمة في العقيدة والحياة النسكية
- الحدود المتسعة للإيمان بالله
- فى تعليم المبتدئين
- ميلاد المسيح وميلاد الإنسان
- إماتة الذات بهدف الحب الإلهي ـ اختبار الله في حياة الراهب
- تاريخ إسرائيل
- كيف سيدين المسيح المسكونة بالعدل
- الحكم الألفي
- أنشودة للتجسُّد
- رسالة توعية
- الحلقة الجديدة للإنسان في الإيمان المسيحي
- "الإنسان والخطية" رسالة سلام للنفس المتعبة
- رسالة حياة لمن يطلب الحياة "تسليم الحياة للمسيح"
- الله واحد مع شرح صلاة "أبانا الذي في السموات"
- قصص مسيحية للحياة (في مجلد واحد)

(وهي تشمل ١٥ قصة طُبعت منفصلة في ٩ كتيبات صغيرة وعناوينها كالآتي):

- سفراء من العالم الآخر
- في رفّاق المسيحيين
- قصة استشهاد الرسولين بطرس وبولس
- النيروز وذكرى أيام الشهداء
- أيقونة جميلة
- قصة استشهاد مؤثرة للغاية
- قصة طهارة واستشهاد بارع، القديس فوكا البستاني، فلسفة الموت عند شهداء مصر
- أولوجيوس والمقعد الرذيل، المحارب العجوز
- تاييس امرأة الأساطير، القديسة ميلانية العجيبة، صلاة فلاح، اتِّباع المسيح وبهرجة الفلسفات

كتب من توزيع وإصدار
دار مجلة مرقس

☩

قصص من واقع الحياة

(وهي قصص سبق نشرها في مجلة مرقس)

- المحبة تدخلنا أمام الله
- إيمان الطفولة العجيب
- إني مستعد أن أموت ثانية وقصص أخرى
- كيف عُدت إلى الله

- قارع الناقوس وقصص أخرى
- تعالَ أيها الطفل يسوع
- والدة الإله تأتي لاستقبال مريض
- ليلة عيد ميلاد في أوكرانيا
- الليلة العظيمة
- جمعة آلام وعيد قيامة
- ضيف ليلة عيد الميلاد
- قدَّاس في غرفة الإعدام
- صغير لكنه جميل
- آلام الكنيسة طريق انتصارها
- مغتصبو الملكوت
- مولودون من جديد
- المصالحة مع الله
- شهود وشهداء
- فنَّانون للمسيح
- فرح القيامة في أشد الضيقات
- اعترافات سجين تائب

من سير القديسين والقديسات

- القديسة مريم المصرية
- القديسة بيلاجية التائبة
- القديسة كاترينا شهيدة الإسكندرية
- القديسة مونيكا أم أغسطينوس

مقالات مسلسلة

سبق نشرها في مجلة مرقس

- شخصية الكاهن عند الآباء الملقَّبين بالأقمار الثلاثة
- الصلاة الربانية وشروحاتها عند الآباء
- العظة على الجبل وشروحاتها عند الآباء
- الروح القدس وحياة النسك عند القديس أنطونيوس وآباء البرية الأوائل
- التبني في المسيح يسوع في فكر آباء الكنيسة
- التجسُّد والميلاد في تعاليم آباء الكنيسة
- الكنيسة جسد المسيح في تعليم القديس كيرلس الكبير
- تربية الأطفال في تعليم القديس يوحنا ذهبي الفم
- شهيد السراديب: قصة عن روما القديمة
- المسيح في صلاته وصومه من أجلنا
- وجودنا وكياننا في المسيح يسوع في فكر القديس كيرلس الكبير
- العهد القديم كما عرفته كنيسة الإسكندرية
- المسيح في حياته المقدَّسة وآلامه وقيامته وصعوده السماوي من أجلنا في تعليم القديسَين أثناسيوس وكيرلس الكبير
- أصول الأبوة الروحية عند آباء البرية
- دعوة الإنسان العليا
- المحبة في المفهوم المسيحي
- الكنيسة بيت ميلادنا الجديد
- تدبير الخلاص بحسب تعاليم القديس أثناسيوس الرسولي
- الخلاص الثمين

تُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٥٠ "أ" شارع شبرا - شقة ٤ - ت: ٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ١٣ شارع الشهداء - المنشية - ت: ٤٨٤٠١١٠

صدر من مجموعة

مقالات مسلسلة سبق نشرها في مجلة مرقس

☩☩☩

- شخصية الكاهن عند الآباء الملقبين بالأقمار الثلاثة
- الصلاة الربانية وشروحاتها عند الآباء
- العظة على الجبل وشروحاتها عند الآباء
- الروح القدس وحياة النسك عند القديس أنطونيوس وآباء البرية الأوائل
- التبني في المسيح يسوع في فكر آباء الكنيسة
- الكنيسة جسد المسيح في تعليم القديس كيرلس الكبير
- تربية الأطفال في تعليم القديس يو[illegible] ذهبي الفم
- شهيد السراديب: قصة عن روما القديمة



الثمن ٤٥٠ قرشاً